كتاب اليوم

الحريم والسلطة

من أميرات الشرق إلى عاهرة الجمهورية

سلمى قاسم جودة



أغسطس 2005



اغسطس 2005

رئيس مجلس الإدارة

محمد عهدى فضلى

رئيس التحـــرير

نـوال مصطفى



سلمى قاسم جودة



دار أخبار اليوم

كتاب اليوم

ثقافة اليوم وكل يوم

يصدر عن دار أخبار اليوم أول كل شهر

العدد رقم/ ٤٧٢

أغسطس ٢٠٠٥

٦ شارع الصحافة ـ القاهرة

ت: ٥٨٠٦٢٣٥

تليفاكس: ٥٧٨٤٤٤٤

الغلاف

اهداء من الفنان:

عمرو فهمى

العنوان على الإنترنت

www.akhbarelyom.org.eg/ketab

البريد الاليكترونى

ketabelyom@akhbaerlyom.org

الاشتراك السنوى

داخل جمهورية مصر العربية	٧٢ جنيها
الدول العربية	٣٣ دولاراً أمريكياً
اتحاد البريد الافريقى وأوروبا	٤١ دولاراً أمريكياً
أمريكا وكندا	٤٧ دولاراً أمريكياً
باقى دول العالم	٦٢ دولاراً أمريكياً

هذا الكتاب.. وهذه الكاتبة

لكل كتاب قصة.. ولكل كاتب قدر!
هذا ما آمنت به دوماً، فالكتاب كائن حى تتشكل بذرته الأولى داخلنا، ثم تنمو رويداً.. رويداً كما تنمو النطفة فى الرحم، فتكبر مع الأيام، وتتحدد ملامحها بمضى الشهور، وتكتمل وتتكون ربما فى سنين. ثم تأتى اللحظة القدرية.. لحظة الميلاد المرتقب للكاتب والكتاب.

و«كتاب اليوم».. الذى أتشرف برئاسة تحريره ابتداء من هذا العدد كتاب عريق له تاريخه.. وله تراثه الغنى بأروع الأفكار.. أجمل الأقلام.. وألمع كتاب العصر الذهبى للثقافة والمعرفة فى مصر من أمثال عباس محمود العقاد.. طه حسين.. توفيق الحكيم.. محمد التابعى.. جليل البندارى.. مصطفى أمين.. يوسف جوهر.. ابراهيم المصرى.. سلامة موسى.. وغيرهم كثيرون.

فقصة «كتاب اليوم» هى قصة اكتشاف النجوم المصرية والإستفادة من فكر المواهب الحقيقية، وإقامة جسر حقيقى بين الكتاب كدورية شهرية منتظمة وبين قرائه فى كل مكان على أرض مصر.. وخارجها.

ولذلك انتابتنى الحيرة وأنا أفكر فى كتاب جديد استعيد من خلاله ما كان لتلك السلسلة العريقة من مجد فى الماضى القريب.. أعنى فى خمسينات وسبعينات وثمانينات وتسعينات القرن الماضى.. أما الستينات وبالتحديد من يناير ١٩٥٤ وحتى يوليو ١٩٦٩ فقد احتجب فيها «كتاب اليوم» عن الصدور.. ولا أعلم السبب فى ذلك.

احتلنى تفكير طويل فى الكتاب الذى ابدأ به مسئوليتى عن ذلك الكتاب العريق.. وكان أمامى أحد اختيارين إما أن أبحث عن نص جديد وكاتب جديد تكتشفه سلسلة «كتاب اليوم» -صانعة نجوم الأدب والكلمة- أو أن أعيد نشر رائعة من روائع «كتاب اليوم» القديم فأهدى إلى قرائنا الأعزاء شيئاً ثميناً.

وتنازعتنى الفكرتان.. فكلاهما مهم.. وكلاهما مطلوب.. فالقارىء ينتظر دائما من «أخبار اليوم» تقديم نجوم جدد فى كل المجالات.. خاصة مجال الكلمة والقلم. والقارىء متعطش -كذلك- للكلمة الجميلة والأسلوب الأدبى الجذاب، واللغة الراقية، والفكر العميق الذى تميز به رواد الفكر والأدب فى مصر فى القرن الماضى.. خاصة بعد أن غزت الركاكة والسطحية عددا غير محدود من الكتابات الآن وأصبح من الصعب العثور على كتاب حقيقى، لكاتب يحترم قلمه، ويقدر قراءه.

ولم أكن أملك ترف التفكير طويلاً.. فالكتاب له موعد هو اليوم الأول من كل

شهر.ولابد أن نكون ملتزمين أمام قرائنا الأعزاء حتى نعيد للكتاب مصداقيته واحترامه.. لذلك حسمت قرارى بالبحث عن نص جديد.. وكاتب جديد.. على أن نصدر كل فترة كتاباً من كنوزتراثنا الفكرى والأدبى التى صدرت عن «كتاب اليوم».

وتذكرت كتاباً مهماً يحمل المضمون العميق.. والأسلوب الشائق.. السهل الممتع..قرأته قبل فترة عندما طلبت منى الزميلة الكاتبة الصحفية سلمى قاسم جودة أن اقرأه، واعطيها رأيى بشأنه.

وحقيقة.. فاجأنى النص برصانة اللغة، وجمال الفكرة، ورشاقة الأسلوب.. لذلك استدعيت هذا الموقف سريعاً، واتصلت بها تليفونياً لأطلب منها أن تأتينى بالمخطوطة التى قرأتها قبل عدة شهور.. وكنت قد شجعتها أن تعدها للنشر ككتاب.. لكنها تكاسلت أو ربما تباطأت.. لذلك أقول إن القدر وحده هو الذى يحدد للكتاب ناشره.. ويحدد للكاتب موعد وليده الأول.

تلقفت كتاب «الحريم والسلطة» للكاتبة سلمى قاسم جودة وبسرعة راجعنا معاً الفصول ورتبناها.. وفكرنا كثيراً فى العنوان حتى اهتدينا إليه.وكونا فريق عمل أنا وسلمى ومخرج الكتاب الفنان الأستاذ أحمد السعيد والرسام الفنان عمرو فهمى..

فقد كان لابد أن يخرج «كتاب اليوم» فى شكل فنى جديد بداية من الغلاف الأول والأخير حتى الصفحات الداخلية.. وهذا ما قام به الفنانان أحمد السعيد وعمرو فهمى.وأتمنى أن يلقى هذا الجهد رضاءك عزيزى القارىء كما نتمنى أن ترسل إلينا باقتراحك وملاحظاتك.

وأصل الآن إلى مضمون كتاب «الحريم والسلطة» فأقول إنه كتاب للتأمل، وحكايات واقعية تدعونا لإستخلاص دروس الحياة من بين السطور.

إنها قصص حدثت بالفعل فى أزمنة وأمكنة مختلفة من العالم.. تجمعها تلك العلاقة الأبدية بين الجمال والسلطة.. المرأة والنفوذ.. الصراع الممتد عبر التاريخ بين سيطرة الرجل ودهاء المرأة.

ولعلنا مع كل قصة من قصص هذاالكتاب ندرك حقيقة مهمة من حقائق الحياة وهى أن قوة المرأة الحقيقية لاتنبع إلا من داخلها.. ومن تراكم رصيدها الإنسانى فى الحياة.

وحقيقة أخرى تؤكد أن كل العروش التى تربعت عليها المرأة اعتماداً على مفاتنها الأنثوية انهارت ولو بعد حين ولم يسجل التاريخ إلا أسماء لنساء صنعن أنفسهن بأنفسهن.. بالعلم.. والكفاح والتميز والموهبة والرؤية الواضحة لأهداف حقيقية وأصيلة.

والآن اتركك مع سلمى قاسم جودة وكتابها الشائق.. الجميل.

نوال مصطفى

المقدمة

● شهوة الجنس والسلطة.. هذا «الكوكتيل» المريك.. الجهنمى الذى سقطت على مذبحه الرجيم آلاف الضمائر.. ابهى المدن.. رءوس الانبياء وأعتى الامبراطوريات بل حضارات بأسرها انهارت تحت وطأة تلك التعويذة السحرية.. الأبدية المتعة.. الثروة والسلطة..فهى حكاية قديمة.. جديدة وقعت بالأمس وستقع غدا.. هى حكاية فساد الأمكنة والأزمنة شرقا وغربا.

الشهوة والسلطة.. الانتهازية فى الحب وفى دهاليز المُلك والسلطة منذ عصر الحريم وحتى يومنا هذا تيمة راودتنى كثيرا فكان هذا الكتاب هو هاجس مُلح جعلنى اتوغل فى سراديب..وأقبية الماضى والحاضر العامرة بالحكايا المثيرة وأحيانا بالقصص الفاضحة والفادحة المفعمة بالبهجة والأسى لأشهر الشخصيات التى عبرت التاريخ تاركة عطر فضيحة صاخبة لايذبل..

ويبدو أنه منذ الاشراقات الأولى للبشرية وهى..هى اللعبة، فالغريزة الحسية هى بمثابة الوشم العتيق.. العتيد الذى طوع مصائر وأقدار البشر عبر الزمن، وللسلطة ايضا وهج وجذوة لاتخمد قط وشبق طاغ لايقاوم.

ويضم هذا الكتاب مجموعة من السير الذاتية من بينها محظيات، ملكات، أميرات، ساحرات، راقصات، جاسوسات، غانيات وعاهرات وخائنات احترفن التسلق على غرائز الرجال، واتقن التمكن من نقاط الضعف ومفاتيح البوابات الذهبية لقلوب وعروش الرجال المهيبة فولجن الى منطقة «الفانتزم» او الحلم المخضب بالشهوة.

من اجل الوصول إلى السلطة التى أصبحت ضربا من الادمان، فالكتاب يحظى بقائمة شاهقة من النساء الشهيرات الفاتنات.. الخطرات باستثناء رجل واحد استعمل الأساليب الانثوية -أى الجنس- لكى يستولى على السلطة ويهيمن على الامبراطورية الروسية العظمى التى كانت، وهو راسبوتين الرجل الأسطورة الذى تدثر بعباءة الدين موظفا العقيدة من اجل

تحقيق مصالحه والنجاح فى الهيمنة هى حكاية تتكرر كل يوم ولقد استغل قدراته الخارقة فى مجال الفحولة والذكورة وايضا قدرته المدهشة على فعل المعجزات، قراءة الغيب والنبوءات التى تحقق الكثير منها ومن ثم يبرز راسبوتين المشعوذ، العراف، زير النساء.. «الجيجولو» أو داعر وعاهر الامبراطورية الذى تستر وراء الدين ليروج بضاعته المعطوبة.. تنويعة على لحن نعرفه جميعا ولايمل التاريخ من تكراره فما أكثر الراسبوتينيين!

ثم تبزغ فى فصل آخر من هذا الكتاب شخصية كريستين دوفيه جونكور.. «عاهرة الجمهورية» وهذا هو عنوان السيرة التى كتبتها عن حياتها وعن فضيحتها مع معالى الوزير الفرنسى رولان دوماس وزير الخارجية الاسبق فى حكومة فرانسوا ميتران ومازالت ساحات القضاء فى فرنسا تنظر هذه القضية التى زلزلت المجتمع الفرنسى واعتبرت قضية فساد كبرى وأمن دولة. والحقيقة ان عاهرة الجمهورية ليست إلا القرين الأنثوى لراسبوتين، فلقد وظفت كل الأسلحة الفتاكة التى تكتنزها المرأة من مكر..دهاء.. كيد..فتنة.. ثقافة.. تلويح باللذة المتأججة لسبى الرجل مهما كان مهما أو عظيما وكان يحضها على الرذيلة والسقوط فى براثن الإثم والغواية زوجها أو النموذج الفرنسى لمحجوب عبدالدايم الانتهازى العفن.. القواد فى رواية نجيب محفوظ «القاهرة الجديدة». هى حكاية كل يوم حدثت فى فرنسا وتحدث فى مصر وفى كل ارجاء الكون الفسيح.

واذا استرجعنا الزمن المفقود فسوف نحظى بنموذج انثوى آخر يجر فى غلائله طعم الهلاك والمتعة القاتمة وزينة الحياة المحفوفة بالخطر، هى أشهر غانية وراقصة فى التاريخ سالومى صاحبة أول رقصة «ستريبتيز» فى التراث الانسانى.. فلقد تمايلت وتموجت بجسدها اللدن مثل افعى رقطاء تسعى تبث فى فحيحها الدم والخراب فكانت رقصة الغلائل السبع الحريرية التى ألهبت حواس الملك هيرود وكان الثمن الذى طلبته الماجنة سالومى رأس النبى يوحنا المعمدان وقد كان. ومن سالومى الراقصة المعربدة على مذبح الدماء المقدسة الى ماتا هارى الوريثة لهذا التراث الدامى، الوحشى من العشق والدم، هى أشهر جاسوسة فى التاريخ فهى بجسدها الطازج أقرب الى لؤلؤة شقت المحارة الغامضة فانطلقت بالرقصة ايضا تلك الجهنمية

لتنهل من الاسـرار الخطرة لاعظم الممـالك والدول، فكانـت بمثـابة غـجـرية طاغية الحسـن والملاحة توشوش غريزة أعتى الرجال فتروضه وتطوعه، فهى الآمرة الناهية فى بلاط المتعة!

ولقـد دفـعت رأسـهـا الجـميل ثمنا لنشـاطهـا السـرى والسـفلى فى عـالم الجـاسوسية، ولاتقل كـريسـتين كيلر الجـاسوسـة البريطانيـة الصهباء خطورة عن سـالومى وماتا هارى او عين الفـجـر، فلقـد أطـاحت بالحكومة البـريطانيـة ذات يوم.

ويظل العشق.. الوقوع فـى أسـر الحب اشـبـه بطلسم باهظ الغـمـوض.. فـحـتى الآن لا احـد يسـتطيـع ان يلج إلى مكنون هذا اللـغـز الميتـافـيـزيقى، وادراك تلك التـرنيـمـة التى هى اشبـه بـالسـحـر، والبعض يقـول انهـا كيـمـيـاء.. والبعض الآخر يجزم بانها «عمل» وان هـذا العـاشق هو ممسوس.. ممسوس.. ملبـوس ياولدى! فـتلك الثنـائيـات المربكة.. المحـيـرة التى عـبـرت التـاريخ فى صـخب مـدو وجـرت فـى اذيالهـا صـعـود وهبـوط.. بـزوغ واندثار ممالك ودول، فكانت عـروش ونعوش للجاه والمال والـغواية.. احـدثهـا وابرزهـا الاميـرتشـارلز وكـامـيـلا.. فـمـا هو السـر.. ولماذا هو مـتيم؟! سـؤال قـادم من رحـم الأزمنة الغابرة.. ستظل الاجـابة عليه عصية من بين تلك الثـنـائيات مونيكا وكلينتون- مـارلين مـونـرو وكـينـدى ونـابليـون بونـابرت وجـوزفـين.. ايفـابيـرون.. مـوسـولينى وكلارا بيتاتشى.

ولقـد اخـتـرت ان ابرز، من خـلال بعض فصـول هذا الكتـاب، بعض النمـاذج السلبيـة للنساءعبـر التـاريخ.. فالفجـوة شاهقة بين عـاهـرات الادب على سـبيل المثـال وعـاهـرات الواقع، ففـضـيلة البـغـاء حلم أدبى أو هـاجس ابداعى تحـقق على سـاحـة الادب فكانـت «المومس الفـاضـلة» لجـان بـول سـارتر.. ونـور فى «اللص والـكلاب» لنجـيب مـحـفـوظ. وايضـا ريرى بنت الازقــة المعـتـمـة فى «السـمان والخـريف» ايضا لنجـيب محـفـوظ. ونانا لاميل زولا.. هن مـومسـات فـاضلات وعـاهـرات يتحلين بنقاء مـا، فهن اكثر فضيلة من سيـاسـى فـاسـد.. عفن.

اما فـى حلبة الوجود المضنية فالرؤى مغـايـرة.. فالعـهـر هو بمثابة صندوق بندورا للشـرور فـهو يفـجـر أعـتى الشـهوات التى تعصف بمصـائر النفـوس..

الذمم.. الشعوب.. فكم من مآس فادحة نقشت عبر التاريخ على أجساد غارقة فى ليونة دافقة.. دفع ثمنها البسطاء من البشر الذين انفقوا حياتهم فى الانحناء للسادة العظماء المولعين بافراط بمفاتن الدنيا وبذخها المُسكر.. واذكر هنا عبارة شهيرة للشاعر الفرنسى بودلير: احيانا يكون الحب هو الجريمة الوحيدة التى تحتاج الى طرفين!

وفى بعض الفصول الأخرى من الكتاب كانت قد داهمتنى «النوستالجيا» او الحنين لأزمنة مدبرة.. عصية.. تركت وراءها شجناً غير محتمل.. حقبة مزهرة تتجلى فيها زهوة مصر الملكية.. الكوزموبوليتانية والليبرالية زمن الأبيض والاسود بكل فخامته.. ورونقه المهيب وثرائه الجم بسلاطينه..ملوكه واميراته الجميلات.. النبيلات.. الملك فؤاد.. الملك فاروق.. السلطان عبدالحميد، الامبراطورة فوزية..الملكة فريدة.. الاميرة فايزة..نسل شاه.. فاطمة طوسون.. هان زادة.اللاتى هن بمثابة نجمات تزركش وترصع سماء المحروسة.. وهن اشبه بازهار الجلاديول السامقة فى بهاءبديع.

ما أروع هذا الأمس المدبر الذى هو بمثابة رقصة «ڤالس مُسكرة» تبث فى دوارها الخدر والثمالة المنعشة.ويرصد ايضا الكتاب غرام الملوك بين مصر وايران.. فاخترت القصص والخفايا السرية لزواج الجمال والسلطة بين الأميرة فوزية شقيقة ملك مصر السابق فاروق وشاه ايران رضا بهلوى.. ثم حكاية غرامه وزواجه بالامبراطورية ثريا اصفنديارى بختيار.. واخيرا آخر زوجاته فرح ديبا..

والبحث عن الزمن المفقود قادنى الى درة التراث النفيسة «الف ليلة وليلة» هذا العالم الزاخر بالحريم وراء المشربيات.. العصارى.. القيلولة فى انتظار المتعة المجهولة.. ينفقن الامسيات والليالى المعطرة برحيق الياسمين ضياء وغدارة قمر الشرق.

ففى الف ليلة وليلة هذا النص الليلى الفذ الذى ألهم مئات المبدعين شرقا وغربا.. وفتح الباب على مصراعيه امام حمم الاستشراق تسطع شهرزاد لتحكى وتؤكد ان فى ليالى الشرق كل شىء ممكن.. وكل شىء ايضا غير ممكن.. فهناك المباح وغير المباح.. فالقتل مباح والعشق مباح..والابسطة تطير والمخادع.. وايضا الرؤوس!! فهو نص بالعشق وبالدم مخضب، بشهوة

السلطة، بسيكولوجية حكام الشرق الخاضعة دائما وابدا للنزوات و الهوى للتقلبات المزاجية الحادة الفادحة. او ما يسمى (ميتامورفوز) ففى الليالى.. باق من الزمن ليلة..وربما الف ليلة.. قد يطول العمر لحظة او لحظات او اعوام.. أليست تلك هى مأساة الانسان المكبل بالعجز الوجودى المؤطر المحاصر بالمجهول.. فرائحة الموت تهيم..تهدد..جاثمة فى كل لحظة، فالحياة مرهونة ببقاء شهرزاد يقظة.. منتبهة.. تتحلى بمخيلة خصبة فى مواجهة ملك سادىٍّ هو شهريار يبحث عن المتعة.. يسعى للفرار من الواقع..يرغب فى سحق ووأد الملل.. مولع بنحر الصبايا الابكار الملاح عند الفجر عندما تخمد شهوته، وحشية مفجعة ثمرة خيانة انثى له.. وهكذا ففى هذا النص الليلى الجميع مصابون «in somnia» بالأرق فلا احد ينام فى الف ليلة وليلة، الكل يقاوم.. يصارع النعاس.. فالنوم فى عالم شهرزاد يعنى الموت.. الفناء.. الذبح..العدم.

وشبح الموت الجاثم يجعل الحياة اكثر كثافة.. ثراء وجنونا.

فهى تراوغ.. تتحايل من اجل البقاء.. تصارع من اجل الحفاظ على رغبة رجلها متأججة من خلال الحكايات المثيرة.. الحواديت والخوارق.. عالم الإنس والجن لان لغة الجسد محدودة.

اما ابطال الليالى فهم ايضا لاينامون.. الخليفة هارون الرشيد، ووزيره جعفرالبرمكى، مسرور السياف، الحمالون، والصيادون والنخاسون، المحظيات والجوارى.. الصبايا والمليحات من النساء.. الدراويش والمردة والعفاريت والشيوخ والساحرات فكلهم يجوبون ازقة ودروب بغداد .. دمشق والقاهرة.. يصلون الليل بالنهار فى المقاهى.. الحمامات فى خان التجار.. وفى النهاية كلنا شهرزاد فهى تصارع الغريم الأبدى للبشر.. الزمن.. تلك الالة الجهنمية او المطرقة الرجيمة..

هى تقاوم القوى المارقة.. الملك السعيد الشهوانى.. سفاك الدماء السيكوباتى.. هى تنازل الوحش الخبيث الكامن.. المتربص دوما .. السم البطىء المسمى بالملل تلك الثمرة العطنة التى تفسد ازهى واكثر المشاعر بهجة.. والترياق هو الثقافة.. القدرة على الحلم، المخيلة المبدعة فيها الخلاص والنجاة.. شهرزاد ملكة لالف ليلة.. لالف عام.. تقاوم الغريم

الأزلى.. الزمن الذى يدك.. يهشم ويسحق كل شىء فهو يحمل فى طياته وهن الروح وتخاذل العزيمة الخلاقة.. شهرزاد هى النموذج لكل نساء الارض تسعى للبقاءللحفاظ على جذوة الرغبة متقدة، هى الباحثة بحكمة وبدهاء عن الفردوس المفقود.. الهاربة من جحيم العالم الاظلامى الذى يعج بالعنف.. القسوة والوحشية لهذا الملك السادى المازوكى الذى ينقب بفضول عن الدهشة عن الطزاجة واللامعقول وأيضا عن المعرفة فى مروج الثقافة المورقة.. فتلك الملكة تحاول الفرار من عصور الحريم التى تسعى بعض النساء اليوم للعودة اليها.. شهرزاد بطلة هذا النص الليلى المفعم بحسية لافحة.. هى النقيض والتضاد لشخصية شمشون الجبار اول منتحر أو «كاميكاز» فى تاريخ البشرية فلقد دك المعبد عليه وعلى اعدائه بسبب كيد وخيانة حبيبته دليلة.

شهرزاد تصارع من اجل البقاء.. من اجل الحياة من اجل الخلود والوجود الابدى.. فهى الأنثى.. الخصوبة، اما شمشون فيصارع من اجل الفناء.. والعدم والصمت الابدى! فهو الرجل والكل يتصارع فى حلبة المكتوب مسبقا او «Déja vu»

سلمى قاسم جودة

الفصل 1



- عندما يهتـز جسد المرأة.. يقع الزلزال في عقل الرجل!
- عـالم مثيـر وساحـر.. أسـرار الملوك والصعاليك.
- راقصة من قديم الأزل.

عرف التاريخ منذ فجر الحضارة علاقة المرأة بالسلطة فاستطاعت الأنثى الفاتنة ترويض واستئناس أكثر الرجال قوة و قسوة وطغيانا . فكم من حكام وسلاطين وملوك وأمراء خضعوا لجمال امرأة فاتنة، طاغية الحسن -ووقعوا فريسة لاغرائها فكانت أول رقصة «ستريبتيز» فى التاريخ لسالومى، تلك الفاتنة الخطرة التى رقصت أشهر وأكثر الرقصات دموية فى التاريخ، رقصة الغلائل السبع الحريرية التى أغرت بها الملك هيرود فكان أن استجاب لطلبها بقطع رأس يوحنا المعمدان.

أيضا نجد نموذجا آخر للمرأة الخطرة التى لا تمل من استعمال أسلحتها الناعمة ومزيج من كيد النساء والمكر والدهاء واستغلال افتتان الرجل بها، فكانت دليلة التى سلبت شمشون قوته وعملقته عن طريق مؤامرة قص شعره..

أما أحدث مثال لتلك القدرة الرهيبة للمرأة فهى فضيحة «مونيكا كلينتون».. التى زلزلت العالم حاولت فيها مونيكا ليس قصقصة شعر كلينتون فحسب ولكن ربما القضاء على مستقبله السياسى نهائيا.

وهكذا فقد عرف التاريخ منذ الأزل أنشودة الجنس والسلطة بل فى كثير من الأحيان كان للمرأة دور بارز فى ادارة شئون الحكم من خلال سيطرتها على عقل وروح الرجل..

انه أقدم كوكتيل فى التاريخ «كوكتيل الجنس والسلطة» ونجد هذا المزيج الخطير فى شخصية شهرزاد أذكى نساء الأرض فهى أدركت أن لغة الجسد تتمتع بقدرات محدودة ومؤقتة وبعد فترة لا تثير دهشة

الرجل. فتحلت أيضا بالثقافة. ولقد ألهمت المرأة الشرقية ـ وخاصة الخطرة ـ المبدعين سواء فى الغرب أو الشرق من خلال رؤى ألف ليلة وليلة، ويحاول الغرب دائما تجميد الشرق أو الآخر وإرجاعه إلى عالم محظيات ألف ليلة.

رغم أننا ودعنا القرن العشرين، والتحمنا بالقرن الواحد والعشرين إلا أن الكثير من المفاهيم والأفكار الجامدة والموروثة والأيديولوجيات المحفوظة والمعلبة وايضا الكليشيهات العتيقة مازالت هى السائدة..

فمازال الغرب يصر على تأنيث الشرق وتحويله إلى محظية فاتنة حبلى بالخيرات والثمار وزاخرة بالنعم والنفائس التى لا تستحقها فهى جسد بلا عقل يجب الاستيلاء عليه واغتصابه وقطف ثماره سواء بالقوة أو بالحيلة.. وعملية تأنيث الشرق تلك تعبر عن رؤية متعالية وشعور بالتفوق لدى الغرب لمجرد أننا مختلفون، أو «الجنس الثانى» أو الأدنى على حد تعبير سيمون دى بوفوار فى كتابها «الجنس الثانى» وتلك الرؤية البالية لا تعبر عن حال الشرق بقدر ماتعبر عن عقلية الآخر أو الغرب الذى مازال يفكر بعقلية السيد أو الغازى أو السلطان الذى يريد امتلاك الجوارى والسبايا وتحويلهن لضحايا وذبائح وولائم تستغل حتى تنتهى المصالح ثم فى النهاية تلفظ وتسحق.. ولقد عبر العديد من المفكرين والفلاسفة الغربيين عن تلك النظرية العنصرية مثل كاربل فى «الانسان هذا المجهول» وجوبينو فى «خطاب عن أصل عدم المساواة فى الاجناس» أيضا أعمال لنيتشة..

وفى كتاب الاستشراق للمفكر ادوار سعيد يقول: نظام أو منهج من الصور الخيالية والأيدولوجيات أطلق عليها «الاستشراق» ويوضح سعيد قائلا: إن عملية الاستشراق وخطاب الغرب عن الشرق ليس تعبيرا عن الشرق بقدر ما هو صورة يختلقها الآخر وصفات يخلعها علينا ليشبع من خلالها احتياجاته وأحلامه وحنينه للجنة «المفقودة» وأيضا لابراز نوع من التضاد والتناقض الذى يبرز الغرب فى أجمل حالاته تاركا للشرق السلبيات والصور الكاريكاتيرية المشبعة بالإمبريالية والعنصرية».

وللأسف أؤكد أننا ساهمنا فى ترسيخ تلك الصورة وظللنا قرونا قابعين فى دائرة المفعول به وتحلينا دائما بالصمت تجاه الآخر وكثفنا

الكلام فقط عن ماضينا واستعذبنا فكرة أننا ضحايا لمؤامرات الآخر وخضعنا بمازوكية لسادية الآخر وأطماعه.

فلماذا لا نثور بشكل إيجابى لكى نعبر عن أنفسنا بأنفسنا ونرسم صورة صادقة لنا واقعية ونصدر فكرا مستنيرا؟..

وأذكر هنا عبارة لكارل ماركس عن الشرق «هم لا يستطيعون أن يصوروا أنفسهم ولكن يجب أن يصوروا من خلال الآخرين» أيضا عبارة موجهة لفولنيه: «هم مثلنا فى العصور الوسطى».

فلايصح أننا نجد إلى الآن أفلاما أوربية وأمريكية حديثة تصور المصريين وهم يرتدون العقال ويركبون الجمال فهم خارج دائرة ذاتهم معلوماتهم متواضعة للغاية. ولكن بالرغم من كل ما ذكرناه إلا أن الغرب لم يكف يوما عن الانبهار والافتتان بشرقنا السعيد والولع بكل مظاهر الحياة لدينا ولتراثنا وحضارتنا..

ألف ليلة وليلة أيقظت الفتنة النائمة

لقد عاش الغرب مئات السنين ينظر إلى الشرق من خلال أطماعه الاقتصادية والتجارية والسياسية والدينية وأكبر مثال على ذلك الحروب الصليبية، حتى اكتشف الباحث الفرنسى انطوان جالان فى بداية القرن الثامن عشر كتابا رائعا يسمى ألف ليلة وليلة فكان أن أيقظ جالان الفتنة النائمة، وكان أول من جعل شهر زاد تتحدث للغرب فأيقظت تلك الترجمة الأولى الغرب من سباته العميق وعرف أن تلك الأرض عامرة بكنوز ثقافية وفكرية وحضارية بدا يسعى للارتواء منها والنهل من منابعها التى لاتنضب. فنجد على سبيل المثال الحملة البونابرتية على مصر والولع بمصر حتى أن نساء أوروبا أثناء الحملة وبعدها كن يلبسن على الطريقة المملوكية، فنجد مارى انطوانيت وأيضا مدام دى بومبادور تلبس أزياء السلطانة الشرقية، ففى القرن الثامن عشر اجتاحت أوروبا Turcomania ثم خمدت تلك الموجة وأصبح هناك فى القرن التاسع عشر وحتى الآن Egypt omania أو الولع بمصر.

وعادات وتقاليد وشئون الحياة اليومية فى عصر الحريم والجوارى والباشوات والسلاطين فى القرون ١٨، ١٩، ٢٠ تبرز المرأة الشرقية شكلا ومضمونا: المحظية، الراقصة، الغانية والملكة بل وأيضا المرأة العاملة الكادحة..

لقد فتن المستشرقون بالمرأة الشرقية، أليست هى المرأة البعيدة، الصعبة المنال، الغامضة، أو ليس هذا ما يبحث عنه دائما الرجل ويشتهيه، فتلك الصعوبة تشعل لدى الرجال الخيال والحلم والرغبة. بل فى كثير من الأحيان يعشق الرجل المرأة الخطرة.

شهر زاد تجتمع فيها كل النساء

ومن أكثر النساء اللاتى غازلن خيال الرجل شهر زاد فهى ألهمت أيضا العديد من المبدعين، فهى نموذج للمرأة التى يحب الرجل اقتناءها: تجتمع فيها كل نساءالارض أو ليس هذا حلم الرجل الأبدى؟

فلقد عرفت شهر زاد مفاتيح الرجل، فيجب الحذر كل الحذر من أن يشبع الرجل أو يشعر بالملل فيؤدى هذا إلى الوحشية والقسوة والخطر..

فلقد عرفت شهر زاد أذكى النساء أن فتنة الجسد لها قدرات محدودة ومؤقتة ومن ثم تحلت بالثقافة و الحكمة والخيال الخصب وعزف الموسيقى والغناء والرقص وحفظ الشعر، فلقد تعلمت من دروس الزمن الغابر ودماء الصبايا العذارى، أن قدرات الروح متجددة أما قدرات الجسد فمحدودة وتصبح بعد وقت قصير محفوظة ولاتثير الدهشة..

وفى كتاب لين ثورتون المرأة من خلال المستشرقين الذى نجد فيه العديد من اللوحات التى تصور النساء الشرقيات الشهيرات فنجد لوحة شهر زاد لليون كاريه عام ١٩٢٦ وأيضا لوحة أخرى لها لأدموند دولال عام ١٩١١ ثم نجد لوحات لسالومى وبلقيس والعديد من النساء بطلات ألف ليلة وليلة مثل صافى فى حكاية الجمال والثلاث بنات لوولتير عام١٩٠٠.

راقصة من قديم الأزل

وأتوقف هنا عند دور الرقص وأهميته فى حياة المرأة منذ قديم

الزمن.. فلقد عرفت المرأة منذ الأزل قوة تأثير لغة الجسد على الرجل وكيف انه فى كثير من الأحيان يكون وسيلة سريعة لتحقيق رغباتها وأحلامها بل وأحيانا تسلق طبقة تحلم بالانتماء إليها ونذكر هنا أشهر راقصة فى التاريخ، الرقصة الدامية للفاتنة الخطرة سالومى رقصة الغلائل السبع الحريرية والتى كان ثمنها رأس يوحنا المعمدان..

فلقد تمايلت صاحبة الجسد الفاتن والحسن الطاغى وارتعدت وتلوت وكأنها أفعى تسعى، وهى تطلق شعرا وكأنه أمواج من اللهب فى طول الليل وامتداده، شعر فى سواد الظلم وطغيانه وهى تتجرد لحظة بعد لحظة من غلائلها السبع واحدة تلو الأخرى، ووقع الملك هيرود انتيباس صريعا للفتنة، فكان أن عرض عليها نصف ضياعه وبساتينه وقلاعه..

ولكن كان طلب الجميلة رأس يوحنا المعمدان ولقد كان.. فعند سقوط كل غلالة من الغلالات السبع سقط معنى من المعانى والقيم الإنسانية. ولقد ألهمت الغانية سالومى عبر التاريخ العديد من المبدعين فكانت قصة هيروديادا للأديب الفرنسى فلوبير، وسالومى لأوسكار وايلد وأيضا مسرحية سالومى للكاتب محمد سلماوى، وهناك أوبرا وباليه سالومى، ثم لوحة سالومى الشهيرة لجوستاف مورو وأيضا أخرى لليون كومير..

والمرأة الخطرة «Femme Fatale» التى يهواها أحيانا الرجل لأنها فيما أعتقد تمثل له تحديا ونوعا من الاستفزاز لترويضها وقص أظافرها ونزع أسلحتها الناعمة ومن ثم إحساس مضاعف بالتفوق وانتصار لرجولته وعنفوانه..

أيضا أذكر مثالا آخر للراقصة والغانية وهى شخصية تاييس التى انتزعت بسحرها وجاذبيتها الراهب من محرابه، فألهمت أناتول فرانس وتوفيق الحكيم فى «راقصة المعبد» ولم ينج نجيب محفوظ من هذا الإغراء فكانت روايته «رادوبيس» الراقصة الفرعونية الطاغية الحسن.

وأقول إن أثر سالومى تسلل حتى إلى بداية القرن العشرين واثناء الحرب العالمية الأولى فكانت أشهر راقصة وجاسوسة فى هذا القرن وهى ماتاهارى، كانت هى الفتنة والجمال ولقد اختارت اسم ماتاهارى والذى يعنى باللغة الماليزية عين الفجر نظرا لغموضه وسحره واحترفت

ماتاهارى الرقص بأسلوب سالومى دائما، دائما الغلائل السبع الحريرية والرقصة تلك التى تحمل فى طياتها اللعنة الأبدية وميراث الخطيئة والتى تنتهى دائما بمأساة، فلقد سلبت ماتا الوزراء والسفراء أسرارهم من خلال الغلائل السبع. فكانت أن أعدمت ماتاهارى.

أيضا نجد نموذجا آخر للمرأة الخطرة التى تنافس على تصويرها الفنانون وهى دليلة وشمشون ودليلة من أشهر لوحات روبنز بل إن أعظم قصائد الشاعر ميلتون قصيدة شمشون الجبار..

ويذكر أن فلوبير وقع فى حب راقصة أو غازية أو عالمة مصرية عندما جاءلمصر وعاش فى إسنا تدعى كشك هانم.. وذلك فى عام ١٨٥٠ وكانت ترقص رقصة أوراق الشجر أو ما يسمى بالنحلة وكانت رقصة مثيرة للغاية لدرجة أن الموسيقيين كانوا يخفون أعينهم بالمناديل خوفا من الفتنة..

وكانت المرأة فى الشرق لا ترقص فقط داخل الحريم ولكن أيضا فى الافراح والمناسبات والمواسم والاحتفالات المختلفة وفى شرفات المنازل والمقاهى وفى أفنية المنازل حتى أصدر محمد على قرارا بمنع الرقص فى الأماكن العامة عام ١٨٣٤ وأمر بنفى الراقصات أو الغوازى إلى أسوان وإسنا..

لم تكف المرأة فى يوم من الأيام عن الاستمرار فى اللعبة الأزلية مع الرجل، لعبة من الأقوى ومن فى النهاية يحكم ويتحكم. حتى فى عصر الحريم لم تيأس وحاولت دائما الخروج من دائرة المفعول به وتحقيق أحلامها بالوصول للسلطة والأمان تارة من خلال اقتناص قلب الرجل بفتنتها وتارة من خلال المؤامرات والدسائس للقضاء على غريماتها.

وهناك نظرية للفيلسوف النمساوى أوتوفينيجر يؤكد فيها التشابه بين المرأة واليهود حيث يشترك الاثنان فى المادية والمكر والخديعة نظرا لتعرضهما للاضطهاد والقهر عبر التاريخ ولقد استطاعت المرأة فى كثير من الأحيان التدخل فى شئون الحكم وأن تحظى بالسلطة عن طريق التسلق على غرائز الرجل العاشق سواء فى الشرق أو فى الغرب، سواء كانت المرأة خلف المشربيات وفى عصر

الحريم أوكانت تتمتع بحرية مطلقة فاللعبة الأزلية هى هى فى كل زمان وفى كل مكان.

شهريار.. حلم كل الرجال!

بالرغم من مضى عصر الحريم والجوارى والمحظيات والسبايا والمشربيات وعالم ألف ليلة وليلة إلا أن الرجل مازال فى كثير من الأحيان ينظر إلى المرأة نظرة السيد أو السلطان الغازى بل أحيانا النخاس، ويغازله حلم أبدى سواء كان معلنا أو خفيا ومستترا فى غياهب النفس أن يكون شهريار، أو السلطان عبدالحميد أو سى السيد فى أفضل الأحوال وأخيرا كلينتون.

وتذكر لين ثورتون فى كتابها «المرأة من خلال الفنانين المستشرقين» أنه بالرغم من أن المسلمين أعلنوا فى القرن التاسع عشر أن أغلب النساء لديهن حرية مطلقة فى الخروج والحركة ولايخضعن لأى نوع من القهر، باستثناء النساء اللاتى يقطن القصور والحريم. بل إن نساء كثيرات كانت لديهن سلطة لايستهان بها داخل بيوتهن، إلا أن العديد من المستشرقين ظلوا على اعتقادهم أن وضع المرأة الشرقية مهين، والعديد من المستشرقات رفضن الدخول إلى الحريم على أنه مكان لاستبعاد وقمع وقهر المرأة ووأد مقاومتها وتجريدها من إنسانيتها.

أما عالم الحريم أو الحرملك كان غريبا للغاية فكلمة Odalisque والتى تعنى المحظية هى فى الأصل كلمة Odas بالتركية أودة أو حجرة كما نقول فى مصروالأودة هى المكان الذى تمكث فيه الجارية عند حضورها للقصر عندما تسبى لكى يتم اعدادها لمقابلة السلطان أو السيد أو الملك الجديد! فإذا أعجبته كان يلقى عليها منديله كما كان يفعل السلطان عبدالحميد ومن النساء الأوروبيات اللاتى اختطفن من قبل القراصنة ودخلن فى الحريم العثمانى إيميه دو بوكه وهى ابنة خالة جوزفين دى بوهارنيه زوجة بونابرت ولقد قدمها داى الجزائر عام ١٧٨٤ كهدية إلى السلطان عبدالحميد.

ولقد هام بها حبا السلطان عبدالحميد واكتسبت إيميه سلطة كبيرة

وكانت تتدخل فى شئون الحكم والشئون الخارجية للباب العالى، ولقد خلدها الأديب الفرنسى ميشيل دى جريس فى روايته «ليلة فى حريم السلطان» والجارية تبدأ حياتها فى الحريم بأن تصبح Odalisque ثم Favorite أى المحظية المفضلة ثم Valide مثل إيميه أى الملكة الأم ثم Cadine.

ولقد تم سبى العديد من اليونانيات الجميلات من خلال الجيش المصرى التركى لإبراهيم باشاعام ١٨٦٤، بل عند انتصار روسيا أصبح الشراكسة يسعون إلى بيع بناتهم وأيضا القوقازيات كن يعرضن أنفسهن للبيع طمعا فى استبدال حياة التقشف والحاجة إلى عيشة رغدة مفعمة بالترف والرفاهية وحياة القصور لدى أثرياء مصر من باشوات ووزراء وأمراء. فالفتنة والجمال قادران على الكثير، على تغيير انسياب القدر.

وبالرغم من اصدار قانون بالغاء تجارة بيع المرأة أو النخاسة من اجل مغازلة الغرب وإرضائه إلا أن هذا القانون لم ينفذ حتى جاء السلطان عبدالحميد الثانى عام ١٩٠٩ وألغى ما يسمى بالحريم وقام بتسريح النساء الأوروبيات وهؤلاء خجلن من العودة لأوروبا.

لقد فتنت حياة الحريم المستشرقين فصوروا المرأة خلف المشربيات وفى الأسواق والقصور وفى الخان والبازار وفى الحمامات ذات الأرضية الرخام والمرمر ورسمت المرأة الشرقية تارة متلحفة بلهيب الشمس وتارة بضوء القمر.

ومن أعظم من رسموا الحمامات الفنان أنجر فصور المحظيات صاحبات البشرة الجليدية، الشمعية المضيئة التى تتناقض مع بشرة الجوارى التى تشبه الكهرمان والأبنوس، فلقد انبهر أنجر بالجمال المسترخى، الحالم والأجساد الكسولة الرطبة، اللينة التى يكسوها الندى فى انتظار المتعة المجهولة. وهى صورة تناقض تماما صورة المرأة الأوروبية الجافة ذات الملابس الحديدية، اليابسة، ومن أشهر لوحات أنجر فاطيما ولوحة المحظية.

اليهوديات والعاهرات

أيضا من الفنانين الذين عشقوا الشرق ماتيس Matisse والذى قال «إن الوحى هبط علىَّ فى الشرق»

ولقد رسم العديد من اليهوديات والعاهرات. أيضا هناك أوجين دولاكروا وفان دونجين ومورو ولويس ثم يأتى أتين دينيه الذى أسلم عام ١٩١٨ وكتب «حياة محمد» وقال عن الحرملك إنه الجنة والنساء هن الحور.

وأغلب المستشرقين صوروا المرأة العاشقة التى ترتعد كزهرة البنفسج إذا داعبتها نزوات النسيم، ولقد كان تبادل رسائل العشق والغرام من خلال الزهور وفاكهة الرمان التى كانت تبدو كياقوت طازج يحمل فى طياته رسائل الهوى.

والمرأة تبدو دائما من خلال اللوحات أنها خاضعة محرومة، فهى أداة لمتعة الرجل ولكنها تجهل فى اغلب الاحيان أسرارالمتعة، فهى تبدو دائما وكأنها ضحية أو وليمة وكأن شيئا سلب منها فهى لا تعرف الارتواء وربما كان هذا يبرزصورة الرجل الشرقى بكل ما به من عنفوان وقوة، هذه التيمة وهذا الاستغراق فى الرومانسية والميلودراما نجده فى رواية فيكتور هوجو «الشرقيات» عام ١٨٢٨، حيث يتخيل جارية مسجونة تعرضت للسبى تتأمل ضوء القمر المفعم بالحلم و الشجن وهو يتلألأ على سطح البحر وتمتزج دموعها بحلمها بالحرية.

مرة أخرى نجد نفس التيمة أى الشرقية المعذبة المقهورة فى أعمال بييرلوتى المبللة بماء الوردوالشجن وعطر البنفسج والحنين أو Nostalgie للمستحيل فى روايته «البائسات فى الحب» و«أزايديه».

بيع المرأة للمالك الجديد

وعندما كان الأديب الفرنسى ماكسيم دى كان فى القاهرة والاسكندرية كان يقول إنه يشعر بالأسى والحزن عندما يرى الذهبيات مكدسة بالبضاعة أى النساء استعدادا للبيع.

فلقد كانت المرأة مجرد سلعة وأذكر هنا جزءا من ألف ليلة وليلة يعبر بوضوح عن وضع المرأة فى الزمن الغابر.

«ياتجار يا أرباب الأموال ما كل مدور جوزة ولا كل مستطيلة موزة ولا كل حمراء لحمة ولا كل بيضاء شحمة ولا كل صهباء خمرة ولا كل سمراء تمرة.. ياتجار يا أرباب الأموال بكم تفتحون الثمن ياتجار هذه اليتيمة التى لا تعنى الأموال لها بقيمة بكم تفتحون باب الثمن»

وفى وصف جمال المرأة جاء فى الليالى أيضا: «وإذا بالباب انفتح بمصراعيه فنظر الحمال إلى من فتح الباب، فوجدها صبية رشيقة القد، قاعدة النهد، ذات حسن وجمال وقد واعتدال، وجبين كغرة الهلال وعيون كعيون الغزلان وحواجب كهلال رمضان وخدود كمثل شقائق النعمان وفم كخاتم سليمان، ووجه كالبدر فى الاشراق ونهدين كرمانتين باتفاق وبطن مطوى تحت الثياب».

حريم خمس نجوم

أما المؤسف حقا انه مازال فى هذا القرن شىء يسمى الرقيق الأبيض وأسواق وشبكات الدعارة بل المحزن أن هناك نوعا من النساء يعرض نفسه بإرادته من أجل تغيير انسياب القدر والحصول على مكان فى عالم الخمس نجوم.

أما بجانب حياة السرايات والقصور المسكونة بالترف والحرير والياقوت المثير والمسك والعنبر وصنع مربى الورد والبرتقال.

خلف المشربيات والنساء المدللات اللاتى يدخنّ النرجيلة، والطريف أن عادة التدخين لدى الشرقيات والتى كانت تعتبر شيئا عاديا كانت تصدم بشدة المستشرقين فى الوقت الذى كان الزنا فى الغرب أمرا مباحا وعاديا.

فبجانب هذا الوجه المشرق المتوهج كان هناك عالم مغلق، قاتم، غامض مسكون بعبق الجريمة واللعنات الأبدية وفى عالم المال والثراء والقصور والحريم، السماء ملبدة بالشرور وحبلى بالمؤامرات والدسائس والفتن. والمكائد متناثرة فى كل مكان.

فالمحظيات فى حرب مستمرة من اجل القضاء على غريماتهن من

أجل الفوز بعقل وقلب السيد سواء كان السلطان أو الخديوى أو الباشا، فالقتل هناك بالجملة أحيانا بمساعدة «الأغاوات» وكان رئيسهم كسلار أغا وهو الشخصية الأكثر قسوة وبطشا فى الإمبراطورية العثمانية خاصة فى عصر روزالين زوجة سليمان الكبير وليس من الغريب أن تلهم تلك المآسى الدامية والتراجيديا المفجعة الكثير من الفنانين فنجد لوحة «غيرة فى الحريم» لكورمون عام ١٨٧٤ ومقتل سلطانة وأيضا «المحظية المخلوعة» لكورمون.

فالتعطش للسلطة والجاه والمال والجنس أفرز عالما مسكونا بالمكر والدهاء وكان أحيانا القتل يتم بأمر السيد عقابا للمحظية إذا اكتشف غدرها وانحرافها نجد أثر هذا الجو المشبع بعطر الشرق وسحره فى أوبرا «اختطاف فى حريم السلطان» لموزار.

وغير صحيح أن المرأة الشرقية منذ قديم الزمان لم تعرف سوى الحياة المترفة الناعمة كما يهوى أن يصورها فى أغلب الاحيان المستشرقون ولكن الحقيقة هى أن الشرق وخاصة مصر عرفت منذ فجر حضارتها وجها مشرقا ومبهجا للمرأة، أى المرأة العاملة الكادحة والمكافحة التى تكسب قوتها وقوت عائلتها عن طريق العديد من الحرف مثل صناعة السجاد والكليم والفخار والجلود وشغل الإبرة والتطريز وأيضا العمل فى الحقول والبيع والشراء فى الأسواق كبيع المياه والبرتقال والبلح والفلفل ولقد انبهر عدد هائل من الفنانين بالمرأة الفلاحة والعاملة وقالوا: إن الفلاحة المصرية لديها ميراث فرعونى وهبها قامة ممشوقة، مفعمة بالعظمة والفخامة والنبل والسمو والاعتداد بالنفس.

فكانت المرأة المصرية مثالا للرشاقة والجاذبية فى حركاتها وحملها للزلعة والبلاص على حافة النهر وبالرغم من ابتعاد العصر الفرعونى إلا أن ظلاله الشاعرية تسافر فى دماء المصرية وتسرى فى روحها وجعلها تتلحف بنوع من النبل الأبدى الذى سلب روح كل الغرباء.

فالشرق يبدو دائما بطريقة ما خارج الزمن فهناك عادات وتقاليد وطقوس يومية ثابتة لا تتغير.

وبالرغم من ارتداءالمصريات للبرقع والياشمك وكثرة الفلالات التى

تحجب أكثر مما تكشف إلا أنها توحى أكثر مما تظهر وبالرغم من ذلك لم تسلب المصرية فتنتها.

فالفتنة ربما تكمن فى نظرة عين كحيلة، ناعسة، مسدلة الجفن تحرق ملهمة من لهيب الشمس وربما فى رنة خلخال وصداه او وشوشة ثوب حريرى وفى النهاية أذكر هنا مقولة عن المرأة لجبران خليل جبران «المرأة كالغرفة الدافئة» «المرأة كالغرفة، لا أقصد كل الغرف، بل الغرفة التى تستميل الإنسان حيثما يدخل فيشعر برفاهيتها وموافقتها له حتى ينسى كونه.

ان المدنية الحاضرة قدأتمت مدارك المرأة قليلا ولكنها أكثرت أوجاعها بتعميم مطامع الرجل، كانت المرأة بالأمس خادمة سعيدة فصارت اليوم سيدة تعيسة، كانت بالأمس عمياء تسير فى نور النهار فأصبحت مبصرة تسير فى ظلمة الليل. كانت جميلة بجهلها بعيدة عن القلب بمعارفها فهل يجىء يوم يجتمع فى المرأة الجمال بالمعرفة والتفنن بالفضيلة وضعف الجسد بقوة النفس».

الفصل

2

ثقافة الجوارى

■ ليالى نجيب محفوظ.. وشهر زاد.

■ الشرقيون.. والتوكل على الله.

■ خيال النساء.. وشهوة الرجال.

شهرزاد ملكة لألف عام

يحكى أنه كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والأوان ملك اسمه شهريار.

أيقظت خيانة النساءوكيدهن الوحش الآدمى الكامن والمتربص فى أعماقه فتغير الملك السعيد ذو الرأى الرشيد فأدمن سفك دماء الصبايا الملاح العذارى وكان البطش بشعبه ورعيته حتى ظهرت شهرزاد أو كما يقول عنها أديبنا الكبير نجيب محفوظ «درة النساء».

ساديته المفرطة

فكان أن شفى شهريار من رغباته الآثمة من خلال ما تحلت به شهرزاد من خصال، الفتنة والجمال والحكمة والخيال والحكايات الجميلة وأهم من كل شىء الفضيلة التي محت أثر خيانة المرأة فى أعماق شهريار وأخيه شاه زمان، تلك هى الأسطورة التى توارثتها الأجيال أو الإطار الفارسى لأبدع ما قيل وما كتب فى مجال الأدب الشعبى وهى حكايات ألف ليلة وليلة.

وتبدأ الليالى ببيتين من الشعر يعبران عن مكر ودهاء وحيل النساء وكيدهن «بحديث يوسف فاعتبر.. محذرا من كيدهن. أو ياترى إبليس أخرج.. ادم من أجلهن»

أما ما يثير الاهتمام فى هذا الأثر الشعبى والثقافى النادر أنه مسكون بروح الدين الإسلامى فى أغلب الحواديت، فحتى الأبيات تلك التى تتحدث عن قصة سيدنا يوسف ويتكرر ذكرها كثيرا من خلال الليالى تارة تعبيرا عن غدر المرأة وخيانتها فى قصة قمر الزمان ابن الملك شهرمان وبدور وقوت القلوب وأيضا فى قصة حاسب كريم الدين الذى يلقيه الحطابون فى الجب فيرجعون لأمه بقميص ملوث بالدم زاعمين أن حاسبا أكله حيوان مفترس، كما ألقى يوسف اخوته فى الجب وعادوا لأبيه بقميصه ملطخا بالدماء. فأثر القرآن الكريم فى تفاصيل كثيرة من الليالى.. أيضا نجد أنه من خلال قصة علاء الدين أبى الشامات استجاب الله لدعاء شيخ مسن شاهبندر التجار قد حرم نعمة الإنجاب هو وزوجته، وهكذا أراد الله وما شاء قد فعل أن يرزقه بالبنين بعد أن أنعم عليه بالمال فنجد هنا أثر سورة مريم والآية الكريمة حيث كان زكريا يدعو ربه بعد أن كبرت سنه ووهن العظم منه واشتعل الرأس شيبا.

الأنس والجن

وبطبيعة الحال لا يخلو جزء من الليالى من حكايات الجن والعفاريت ومن ثم ذكر سيدنا سليمان وخاتمه وقمقمه وجنده وأعوانه.

فالليالى عالم خاص يختلط فيه الأنس بالجن بأسلوب تلقائى ساحر، وهنا أيضا تتغلب الصبغة الدينية.. وهنا أذكر جزءا من الرسالة الممتعة للدكتورة سهير القلماوى والتى دارت حول ألف ليلة وليلة وليس من شك أن سورة الجن لها أثر قوى فى الليالى فمثلا تلك الجنية فى حدوتة قمر الزمان يقول عنها القاص «فلما مضى ثلث الليل قصدت الجنية السماء لاستراق السمع»..

والعفاريت فى الليالى يحلو لها أن تلهو بالبشر بل وأحيانا تقوم بدور مرسال الغرام فهى تهيم فى الظلام وتطوف البلدان وتتحدث بجمال من رأت مثلما حدث فى قصة نور الدين وأخيه شمس الدين وايضا فى قصة قمر الزمان حيث تتغزل الجنية ميمونة فى جمال

بدور بنت الملك الغيور صاحب الجزائر والسبع قصور وتراهن العفريت مهموش على أنها أجمل مخلوقات الله الفانية فلها شعر طويل كليالى الهجر ووجه كليالى الوصال وخصر مختصر من وهم وخيال وخدود كشقائق النعمان، وهنا نذكر الآية الكريمة: «قال عفريت من الجن أنا آتيك به قبل أن تقوم من مقامك وإنى عليه لقوى أمين.. قال الذى عنده علم من الكتاب، أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك» سورة النمل والليالى مفعمة بالخوارق وخاصة الجزء الأول الهندى.. الفارسى وهنا أذكر بالتحديد أن الحكايات سواء فى الجزء الأول أى الهندى الفارسى أو الجزء الثانى الذى يدور فى بغداد أو الثالث والأخير والذى يدور فى مصر كلها عامرة بتلك الروح الدينية وهذا السمو وهذا النبل الذى لا يفتقده لا الخلفاء والسلاطين ولا أيضا البسطاء والدراويش.

الشرقيون والتوكل على الله

ثم نأتى هنا لجزء هام جدا وهو جوهر الليالى ومحور من محاورها وهو التوكل على الله وتلك ركيزة أساسية موجودة لدى العبد الفقير والأمير، الجاهل والعالم، الغنى والفقير فلاتوجد حكاية تخلو من عبارات مثل «توكلت على الله.. لاحول ولاقوة إلا بالله.. إنا لله وإنا اليه راجعون» والعبارات تلك تكثر فى أوقات الشدة والخطر وهنا الإيمان بأن الحذر لا يمنع القدر وهنا تبرز حقيقة أنه لايوجد أى نوع من أنواع الابداع يعبر عن جوهر الشعب وروحه مثلما يعبر الأدب الشعبى.

حيث يعلو صوت حكمة البسطاء وعمقهم عبر الزمن وإيمانهم مهما طال الزمن فالبقاء للأصلح وبأن الخير سوف ينتصر وهزيمة الشر آتية لا محال وانكساره ضرورة محتومة ومن ثم يجب التوكل على الله فالنجاة مضمونة دائما وأبدا بشرط التحلى بالصبر الجميل.

ولقد تأثر المفكرون فى الغرب وخاصة فى عصر التنوير وكانت قصة كانديد وزاديج أو القدر لفولتير والتى تدور حول التوكل على الله

والشعور بعجز الإنسان وضآلته أمام القدر.
ونعود إلى الليالى حيث الحضور الطاغى لروح الدين وجوهره فى كل العادات والتقاليد والموروثات وخاصة فى حكايات الجزءالمصرى تلك السماءالمنقوشة بالنبل فى كثير من الأحيان ونحن للأسف أصبحنا الآن فى زمن نستجدى فيه لحظة نبل واحدة حتى فى علاقة المرأة بالرجل ففى العديد من الحكايات نجد الأمير آو العبد الفقير امتنع عن جارية هى الفتنة فى أروع صورها من باب العفة والنقاء كما حدث فى حكاية مريم النصرانية.
وحتى فى مجال السحر الذى يراد به أحيانا معاندة القدر لا يستعمل أبداً فى مجال الحب والهوى فحتى الشر له حدود وقواعد وأصول فى الليالى، فتغير النفوس ومشاعر البشر من حال إلى حال لا يتدخل فيها إنس أو جن، فكيف إذن لا تعاودنا النوستالجى دائماً لهذا الكتاب البديع فنعاود قراءته ونقدمه على الشاشة كل رمضان وينهل منه المبدعون شرقاً وغرباً ومن المؤسف والمحزن حقا أن أثرا قيما مثل ألف ليلة وليلة بهذه الروعة وهذا الثراء يصادر وكأنما نصرٌ على العودة إلى الوراء ولزمن محاكم التفتيش والالتفات فقط لبعض العبارات الخارجة التى قيلت من خلال الليالى بما أنها أدب شعبى مجهول الصاحب كان يروى على المقاهى فى بغداد ودمشق والقاهرة لإشعال خيال الرجال بحكايات الحب والهوى والملوك والصعاليك والإنس والجن ومن ثم من أجل بضعة ألفاظ يغفل أهمية أثر كهذا نجد فيه القصة القصيرة قد ظهرت قبل زمانها وأدب الخيال العلمى كما نرى فى قصة الحكماء أصحاب الطاووس حيث يطير الفرس ويطير وأيضا أدب الرحلات مثل حكايات السندباد والتى تأثر بها الغرب تأثرا شديداً فكانت حكاية روبنسون كروز وجاليفر ثم نجد عادات وتقاليد الشرق تنشر عطرها الخلاب فى كل ليالى الشرق المقمرة. بل هناك ارهاصات للطب النفسى شهريار.. الملك السادى السيكوباتى الذى يعانى من البارانويا!.
وهذه الروح الإسلامية التى تغمر الليالى حتى أن الشر دائما يتمثل

فى الغرباء سواء مجوسا أو يهودا.

ثقافة الجوارى

أيضا هناك وضع المرأة فى الليالى فعلى عكس ما يظنه البعض وخاصة المستشرقين، إنها مخلوق مقهور، هى مجرد سلعة تباع وتشترى فى الأسواق ويدلل عليها النخاسون وتنحر كالشاه إذا ما زهدها السيد أو السلطان مثلما يزهد القمر فى ليلة ما فيلفظها ويتركها حالكة الظلمة، متشحة بسوادها، ولكن فى الحقيقة أن المرأة فى عالم الحريم تملك قدرها إلى حد كبير.

ففى ألف ليلة وليلة لا مكان للمرأة التى تفتقد الثقافة والمعرفة ففى الليالى الجمال وحده لايكفى.

فالفتنة الطاغية لا تشفع للمرأة و لاتجد فيها نجاتها وأكبر مثال على ذلك شهرزاد نفسها، فلم ينقذها من الهلاك على أيدى السياف سوى ثقافتها الغزيرة وحفظها القرآن الكريم والأحاديث والشعر والفقه والفلسفة والموسيقى وبطبيعة الحال أيضا الحكمة والنقاء وليس بغريب أن تعلن كل الدوائر الثقافية فى العالم أن أروع شخصية إبداعية للألفية الثانية هى شخصية شهرزاد.

فلقد نجحت بفطنتها فى شفاء شهريار من علته وبطشه وساديته من خلال ترويضه وإدخاله مدن الشرق العديدة العامرة بالعدل والخير والجمال، فأقبل هذا الملك المتعطش للدماء وللبطش الذى كان على متع الروح ونشوة الفكر وصفاءالنفس.. وبالتالى كانت المحظيات فى الليالى تنويعات على نفس اللحن.

فثقافة الجوارى أو الحريم شرط، حتى هارون الرشيد إذا أراد أن يعتق جارية أو يعفو عن جيد محظية فكان هذا إذا أكملت بيت شعر أو اجتمع لديها ملاحة القد مع فصاحة اللسان.

وهنا أذكر حكاية على شار وزمرد الجارية وهى تبرز شخصية الجارية، فهى تختار من يشتريها ويرق قلب النخاس تجاهها، فللحب سلطان فى الليالى لايقف أمامه أحد، فالقلوب فى نعومة الياسمين

ونصاعة اللؤلؤ وارتعاشة البنفسج عند أول مداعبة للنسيم ومن ثم نجد عبارة «ونظر إليها نظرة أعقبتها ألف حسرة» تتكرر كثيراً فى الليالى ثم «وسقط مغشيا عليه» وهكذا فتباع الجارية زمرد لمن يملك الفؤاد وليس لمن يملك المال والجاه.

والشاعرية تلك المفرطة التى تغمر الليالى فتنت الغرب إلى حد الهوس، فهذه الحكايات المبللة بماء الورد ودموع الصبايا خلف المشربيات تمتزج بعطر الريحان والعنبر والشجن المسافر فى جوف الزمن على عكس ما اعتاد عليه الغرب من أدب جاف، يابس مثل مسرحيات راسين وكورنى فعذوبة الحكايات والرومانسية الطاغية جعلت المبدعين فى الغرب ينهلون من هذا النبع الشديد الغزارة فتأثر أديب فرنسا بيرلوتى بالليالى فكانت روايته «ازايده» والشرقيات البائسات.

أما شهرزاد نفسها فكانت مصدرا للإلهام منذ اليوم الذى أيقظ الباحث الفرنسى أنطوان جالان الفتنة النائمة من سباتها هو أول من جعل شهرزاد تحكى ذات ليلة إلى الغرب فى بداية القرن الثامن عشر فألهمت جوتيه الأديب الفرنسى الليلة الثانية بعد الألف حيث تأتى شهرزاد لزيارة الكاتب طالبة منه إنقاذها بقصة جديدة لأن الملك لم يعف عنها وأيضا ادجار آلان بو الأمريكى ألهمته الملكة الحكيمة قصة قصيرة طالت قليلا . أيضا أديبنا توفيق الحكيم كتب شهرزاد فلم ينج من سحرها الطاغى ثم اشترك مع طه حسين وكانت لهما شهرزاد. ثم موسيقى شهرزاد لكورساكوف الخالدة التى التحمت ذات يوم بالأبدية.

وأذكر هنا حكاية طريفة حدثت لجالان عندما نشر الجزءالأول لألف ليلة، فكان شباب فرنسا يأتون تحت نافذته ويرددون عبارات شهرزاد مثل احكى ياشهرزاد أو وأدرك شهريار الصباح، طالبين منه الاستيقاظ من نومه وأن يروى لهم الحكايات الجميلة وهنا أعود لحكايات على شار وزمرد الجارية حيث تبدو قيمة أخرى تتحلى بها المرأة فى الليالى وهى قيمة العمل، فالجميلة زمرد تتقن أيضا صناعة

الستائرالحريرية فتطرزها وتزينها بالوحوش الضارية والطيور الزاهية الألوان.

فالمرأة ليست فقط عاشقة وفاتنة ولكنها تصبو الى الكمال ونضج الشخصية وكسب الرزق الحلال وتحقيق عيشة رغدة للحبيب الذى أفلس لانه لم يطع أباه عندما نصحه بهذه الأبيات التى تعبر عن العظمة والبساطة والحكمة والعمق وتلك المعانى زاخرة بها الليالى:

«إن قل مالى فلا خل يصاحبنى وإن زاد مالى فكل الناس خلانى
فكم عدو لأجل المال صاحبنى وكم صديق لفقد المال عادانى»

ملوك وصعاليك.. وصراع الخير والشر

وهكذا

كان فيما مضى من قديم الزمان وسالف العصر والاوان ملكة تربعت على عرش الأبدية من خلال الخيال المبهر والحكايات الخيالية التى عمرت بها الليالى كان هناك ملك أدمن اغتيال زهوة الفجر العاشقة مضحيا بأعناق الصبايا العذارى فى إشراقة حياتهن ثمنا لخيانة واحدة من جنسهن.

هى شهرزاد التى دلفت ذات ليلة إلى بلاط السلطان المسكون بالرهبة والجريمة لإنقاذ وطن أصبح قمره مخضبا بالدماء، فشطرت لياليها الضجر والعنف فى نفس الملك القاسى..

ونجحت الملكة الحكيمة فى ترويض السلطة وسحرت شهريار بالثقافة والمعرفة وأدخلته مدن الأحلام حيث حكايا الحمالين والحطابين والصيادين الفقراء الذين يملكون خيرات الدنيا بين شمس وضحاها تارة بأمر عفريت مسكون فى قمقم مسحور من عصور وتارة بفتح كنزمرصود عامر بالفضة والذهب واللؤلؤ والمرجان.

ثم حكت الملكة الفاتنة عن علاقة الحاكم بشعبه فتلك ركيزة أساسية فى الليالى الألف، حيث حكايا الخلفاء والسلاطين يتخفون فى ثياب الدراويش والتجار من أجل تحقيق العدل ومحاربة الفساد على أرض العباد حيث صراع الإنس والجن والخير والشر..فهو عالم مسكون

بحكايا عن خبز البسطاء وأحلامهم بالياقوت والديباج، ومحظيات وأميرات لهن ضياء المرمر والثلج والياسمين ليفوز بهن العاشق الذى يسحق المستحيل والمردة والأهوال ومفاجآت القدر.. ففى الليالى صاحب الجلالة الهوى والسلطان الحقيقى للحب وللعدل وللجمال.

والمرأة فى الليالى تريد أن تتحكم فى السلطة بكل الوسائل فهى بالنسبة لها صمام الأمان، وبالرغم من كل ما قيل من عصر الحريم وكل الكليشيهات المتداولة عن وأد المرأة النفسى وقمعها، وأن عالم الليالى غامر بالصبايا والمحظيات والسلاطين والغزاة والنخاسين إلا انى أرى أن دنيا ألف ليلة هى مهد الزهرة أو الثمرة التى نضجت فيما بعد أو femenisme أو تحرير المرأة واستقلالها فكما نرى فمن خلال الليالى نجد انه لا مكان ولانجاة للمرأة هزيلة الشخصية أو الجاهلة التى لاتبدع ولا تعمل وإذا حاولنا بلورة الرمز الكامن فى رحم الليالى وهو أن الملك، أو الرجل عندما يمل وعندما يرتوى من المرأة التى تكتفى فقط بجمالها يكون هلاكها، فالبقاء للمرأة الذكية متعددة الوجوه، فجمال الشكل أثره يزول سريعا أما الروح فمتجددة باقية وإذا طبقنا هذا على عصرنا نجد أن البديل لفقدان الجارية أو السلطانة حياتها هو الآن موت العلاقة وذبولها أو الفتورعندما تعتمد المرأة على سلاح واحد أى سلاح الأنثى فعالم ألف ليلة هو عالم ذكورى لا تنجح فيه إلا من تقف ندا للرجل حتى إننا نجد قصصا فى الليالى تدور حول الجارية التى تحارب وهى يجب أن تغلب الرجل لكى يفوز بها.

وهنا أصل لمحور شديد الأهمية فى الليالى وهو علاقة الحاكم برعيته أو السلطة بالشعب، فالسياسة هى عصب الحياة فى هذا العالم حيث يتحقق العدل فى كثير من الأحيان على أيدى الحاكم سواء كان الخليفة أو السلطان.

وهنا أذكر عبارة للأديب الفرنسى الفونس دوديه: «إن الرواية هى حكاية الشعب أما التاريخ فهو حكاية الملوك».والمدهش هنا أنه لايوجد عمل إبداعى اجتمع فيه هذا القدر المختلف والمتنافر من البشر.

ولأول مرة يجتمع الملوك والصعاليك. الخلفاء والدراويش، ويجتمع

السلطان مع الاسكافى والحلاق والحمال ثم أيضا الإنس والجن والجاريات الصالحات ثم العاهرات والعجائز الماكرات مثل شواهى والعفاريت والحيوانات التى تنطق.

وهو ميراث هندى فارسى على طريقة كليلة ودمنة، فكل شىء ممكن ومباح فى الليالى فالدراويش تسحق المستحيل وتحقق المعجزات وعابرو السبيل يصنعون العجائب فى أمسيات الشرق الربيعية ذات القمر الباسم والخليفة يستمع للحمال ويجالس البسطاء وينصف الجوارى، فلا يوجد حاجز بين الحاكم ورعيته، وبطبيعة الحال من ضمن أسباب تلك الظاهرة قلة السكان ولكن أيضاالتمسك بتعاليم الإسلام والبحث عن العدل فكم من مرة من خلال الليالى تخفى الخليفة هارون الرشيد أمير المؤمنين هو ووزيره جعفر البرمكى ومسرور السياف فى ثياب الدراويش أو التجار من أجل الاختلاط بالرعية وتفقد أحوال الناس والحرص على رفع الظلم وتفادى النفاق فالفساد إذا استشرى كان هو العدو الأول الحاكم. ولم يعبر كتاب عن مزاج وتركيبة الحاكم العربى، الشرقى مثلما عبرت الليالى، فهو فى كثير من الأحيان متقلب الهوى، مزاجى القرار ومن ثم نجد عبارة «أصبح الضياء فى وجهه ظلاما» تتكرر كثيرا لأقل سبب، فتطير رقاب العباد، ويأتى هادم اللذات ومفرق الجماعات.

ليالى نجيب محفوظ

والحقيقة هى أن من أروع ما كتب أديبنا العظيم نجيب محفوظ كتاب «ليالى ألف ليلة» حث قام بتجميع أكبر قدر من شخصيات ألف ليلة مثل معروف الاسكافي والحمال وأنيس الجليس وقمر الزمان وحلاق بغداد وعلاء الدين وبطبيعة الحال شهريار ودنيا زاد وقام نجيب محفوظ بغزل مجموعة من الحكايات تناقش موضوعا شديد الخطورة وهو فساد البشر وعلاقة الحاكم بشعبه وتحقيق العدالة وأيضا ازدواجية البشر وميلهم المتأصل للشر وعزوفهم عن الخير واغراءات الدنيا الفانية ذات الوهج والبريق الزائف، الزائل.

فلقد استطاعت شهرزاد نجيب محفوظ لبعض الوقت شفاء الملك الطاغية من خلال الحب والمعرفة فكانت أول معالجة نفسية فى التاريخ. ويقول الأستاذ فى لياليه: «ما أنت إلا منافق يادندان.. ماذا قال المجنون؟ قال إن الرأس إذا صلح صلح الجسد كله»، فالصلاح والفساد يهبطان من أعلى وأيضا يقول: «فساد العلماء من الغفلة، وفساد الأمراء من الظلم وفساد الفقراء من النفاق»

ثم يقترب الأستاذ أيضا من ظاهرة التطرف والتمسح بالدين، قضية الإنسان فى كل زمان ومكان فيقول: «عالم التقوى الظاهرة والفساد الكامن عجيبة هذه السلطنة بناسها وعفاريتها.. ترفع شعار الله وتغوص فى الدنس».

ويمضى نجيب محفوظ فى عملية استلهام هذا التراث الممتع والغريب.

«الشيطان يعظ» وهى مستوحاة من قصة «مدينة النحاس» وأنه لمن الغريب حقا أن تكون السينما لدينا مولعة بتقديم السيرة الذاتية لتجار المخدرات والمنحرفين وألا تهرول لتقديم عمل عظيم كليالى ألف ليلة لنجيب محفوظ سواء على الشاشة الكبيرة أو الصغيرة فلقد قال لى مؤخرا الأديب الكبير إن السينما الأمريكية تريد تحويل لياليه لفيلم، وكما هو الحال دائما فى شرقنا السعيد الذى يدير ظهره لكل ما هو نفيس وحالم ويعتبره الآخر أو الغرب كنزا ينهل منه، كان هذا هو حال ألف ليلة حتى وقت ليس ببعيد، فكان الشرق يعتبر الليالى مجرد حواديت وحكايات لتدفئة العجائز فى أمسيات البرد القارس والشتاء الموحش وظلت تلك النظرة المتخلفة تغلف الليالى حتى قدمت الدكتورة سهير القلماوى رسالتها الجامعية التى قدمها الدكتور طه حسين فبدأت النظرة تلك تتغير. أما بالنسبة للغرب فالوضع مختلف فبعد ترجمة جالان للفرنسية والذى بالمناسبة ترجم القرآن الكريم من منطلق مبدأ «أعرف عدوك لكى تهزمه جيدا» والتى انتقدها الكثير من الناس لأنها كانت غير أمينة فافتقدت عبق الشرق وبدت وكأنها كتبت فى فيرساى من اجل ارضاء الذوق الفرنسى وبلاط لويس الرابع عشر. فتحولت على

سبيل المثال حلوى الرمان واللوز المشرية بماء الورد والزهر إلى جاتوه الميلفوى!!! فكان أن قام الدكتور شارل ماردروس عام ١٨٩٩ وحتى عام ١٩٠٤ بالترجمة الفرنسية الثانية لليالى وقام بتصويرها ليون كاريه. لقد ولد ماردروس فى مصر، وكانت لديهم فى المنزل جارية تدعى عائشة أنفقت حياتها على تربيته وتعليمه المعتقدات والعادات الشرقية بل وأيضا بعض الخرافات والأساطير والصور المتداولة فى مصر القديمة.

ولقد أعاد ماردروس لليالى عطر الشرق الذى افتقدته ترجمة جالان وكان ماردروس يقول: «إن الذى يترجم هذه التحفة الفنية يجب أن يكون مثل العاشق الذى يهب محبوبته كل ما تستحقه» ومن الذين أيضا تناولوا الليالى بيرتون وماكدونالد ودى ساسى. واليوم صدرت فى فرنسا الترجمة الثالثة لألف ليلة وليلة لجمال الدين بن شيخ وأندريه ميكيل.

ويرجح أن الليالى ترجع إلى الأصل هندى فارسى وهو كتاب «الهزار إفسان» وهذا يبدو واضحا من أسماءشهريار وشهرزاد.

والجزء الثانى الذى تلا الجزء الفارسى يدور فى بغداد خاصة تحت حكم الرشيد وهناك تبرز بعض الشخصيات التاريخية مثل أبى نواس والبرامكة واسحاق الموصلى والملكة زبيدة.

وفى هذا الجزء تبرز أهمية البصرة التجارية وتظهر الطبقة البورجوازية، فتنتعش التجارة وتزدهر الحالة الاقتصادية وتبدو النهضة الفنية والبذخ والثراء ونضارة العواطف وطزاجتها وسط كل هذا الترف وتلك البساتين والضياع والجمال والسماء الصافية حيث تهيم النجوم وتشهد على ذروة وأوج العصر العباسى.

فى الليالى المصرية.. الحسد والسحر

ثم يأتى الجزء الأخير وهو يدور فى مصر فى العصر الفاطمى حيث تتلحف الليالى بسماءمنقوشة بالحكمة والحذر، والولع بالسحروالتعاويذ والطلاسم والعرافين والنبوءات والخوف من الحسد كما نجد فى حكاية علاء الدين ابى الشامات حيث يخفيه والده شاهبندر التجار فى طابق تحت الارض خوفا عليه من الحسد حيث

كان بدعة الزمان فى القد والاعتدال وملاحة الطلة.

لنجد أيضا فى الحكاية المصرية الأساطير والخرافة وميراثا مسكونا بعطر الروح الفرعونية فالعادات والتقاليد المصرية لا تتغير عبر الزمان.

واذكر عبارة جوتييه عن المحروسة «فى عالم متغير تتربع مصر فوق عرش الثبات».

ودائما هناك نبوءات تؤكد وجود كنز وقف على اسم صاحبه مثل قصة: «كنزالشمردل وجودر ثم قصة معروف الاسكافى المفعمة بخفة الدم المصرية والسخرية الدائمة من كل مظاهر الحياة».

ونجد فى مصر اهمية كبيرة للحمامات حيث تتم الصفقات بين التجار تلك الطبقة التى اكتسبت اهمية خاصة.

وفى الحمام ايضا تصل أخبار الجميلة الفاتنة الى قصر السلطان أحيانا من خلال عجوز ماكرة، ايضا هناك الخان وأسواق مصر وأزقتها المشبعة بعبق العطور وتلك الحوارى الرطبة التى تحفظ التاريخ والحكايا عبر الزمن بذاكرة من ذهب لتكون عبرة لمن اعتبر.

ولقد أصبح بين يوم وليلة الشرق مرادفا لألف ليلة وليلة، فالشرق أصبح بالنسبة للعديد من المبدعين فى الغرب هو الجنة المفقودة أرض الحلم والبراءة والمتعة.

فهى جنة بودلير فى دعوته للسفر حيث يقول هناك، الترف، المتعة والجمال واذكر هنا عبارة لفنان فرنسى سيرج لوتننى يقول «لم أعد أدرى إن كنت مستشرقا أو شرقيا بعد ثلاثين عاما فى مراكش ابتلعنى الشرق» ويقول الفنان الشهير ماتيس لقد هبط علىّ الوحى فى الشرق فالولع بالشرق موجود منذ قديم الزمان ولكنه تعملق وابتلع كل شىء بعد كلام شهر زاد المباح وغير المباح.

فكل من مسته برجاحة عقلها وخيالها وفتنتها حظى بالابدية والعملقة إن أروع ما كتب بلزاك هى قصته الفلسفية «جلد الآسى» وهى مشبعة بجو ألف ليلة ثم الرسائل الفارسية لمونتيسكيو والمجوهرات الفاضحة لديدرو واعمال موزار مثل اختطاف فى حريم السلطان واللوحات

التشكيلية العديدة لجيروم وكاريه مصورى شهرزاد وأشعار نزار قبانى المسكونة بجو الليالى «وكان فى بغداد ياحبيبتى فى سالف الزمان خليفة له ابنة جميلة، عيونها طيران أخضران، شعرها قصيدة طويلة، ولكنها كانت تحب شاعرا يلقى على شرفتها كل مساء وردة جميلة. تقول شهرزاد: وانتقم الخليفة من ضفائر الأميرة. وأعلنت بغداد ياحبيبتى الحداد. وجاعت البلاد حزنا على السنابل الصفراء كالذهب».

ترى هل بعد كل ما قيل استطعنا اكتشاف السحر الذى تتلحف به الليالى، هل استطعنا هتك غلالة الغموض التى تحيط بها وفك الطلسم اللغز الخاص والولع بهذا العشق شرقا وغربا والنهل منها والبحث عنها والحنين إليها، وربما كان فى أن لياليها لاتعرف المستحيل ولا تعترف بالعجز الوجودى المؤطر، وتقدس الأحلام ولاتقنع بالمتاح فقط وتعشق السفر للمدن الخرافية الجميلة البعيدة الحبلى بالكنوز والنعم والخير والجمال والعدل..جزيرة الآبنوس، جبل قاف، مدينة النحاس كلها مدن من وهم الخيال ولكنها مسكونة بالحب، بالأمل والبهجة معان أصبحنا نجهلها اليوم ونفتقدها.

ترى: نشتاق العدل والحق والخير فهى فى الليالى تتحقق دائما فى النهاية بالرغم من كل الصعاب والقسوة والظلم أحيانا والفراق فى البدايات أم ترى لدينا الحنين للحظة نبل واحدة أو لحظة حب واحدة لم تعد متاحة فى عصرنا الزاخر بالأنانية والمادية والبرجماتية السافرة والمصلحة والعزوف عن كل ما يقبل القسمة على اثنين؟.

أم ترى أننا نحلم فقط ببعض أو بالقليل مما كان ذات يوم فى سالف العصر والآوان؟

وهكذا فألف ليلة وليلة نص ليلى فالجميع يعانون من الأرق أو (انسومنيا) فلا أحد ينام فى الف ليلة وليلة. فشهرزاد حياتها ووجودها مرتبط باليقظة.. بالقدرة الشاهقة على التخيل فالموت.. «كامن» متربص فى كل لحظة.. فالقتل بمثابة شبح جاثم والنجاة والخلاص فى بلاغة تلك الأنثى الساحرة وحسيتها اللافحة حيث تتجلى الحكمة والشبق فى آن واحد فهى النموذج المدهش لأى امرأة

ترغب في الحفاظ على حياتها مع الرجل الذى تحب وعلى جذوة العشق بالرغم من هشاشة الوجود المضنية.

فمن خلال تلك الحكايات المخضبة بالعشق والدم ومقاومة النعاس نجحت شهر زاد فى تحقيق حلم النجاة ففى عالم الليالى الباقى من الزمن ليلة.. وربما ألف ليلة.. ففى ليال الشرق كل شىء ممكن.. كل شىء مباح أو غير مباح فالعشق مباح والقتل أيضا فى أى لحظة.. فشبح الموت الذى يحوم يجعل الحياة أشهى وأثمن ويُكثف طعم المتعة.

الفصل

3

فتنة الشرق..
تغزو الغرب!

■ الشرقيون غـزوا أسواق أوروبا بالقهوة والملبن.. والمحظيات!

■ المقاهي.. ملتقى العشاق والثوار!

وجه يبقى.. وجه يفنى..خريف يمضى..شتاء يلحق به.. صقيع الليل الموحش.. يبتلعه ضياءالفجر العاشق.. شعوب تسجد لحكامها. وشعوب تلعن حكامها. أشجار تلفظ أوراقها.. أخرى تبدل ثيابها.. كل ذلك يمكن أن يحدث وهناك من يجلس وحيدا..بعيدا فى واحدة من هذه الأماكن المثيرة التى شاهدت التاريخ يلهث من الرعب أو الفرح أمامها.

وفى هذه الأماكن المثيرة أيضا.. أفكار جامحة.. غاضبة متمردة.. هائمة.. غائمة تبحث عن مأوى يحميها من البرد والتشرد والشرطة السرية..وفيها كذلك قصائد سجينة العيون الواسعة التى تبتلع أشد الرجال سحرا.. وخطوط وألوان رسام مجنون.. يمكن أن يقطع أذنه لو طلبت منه امرأته ذلك فالإبداع هنا منقوش على الجدران والقلوب.. والتهور والاسترخاء هما جزءان من كيانه وهويته.

هو المقهى..رحم المدينة وعقلها.. وطن داخل وطن..نقطة تلاقى المثقفين والمتشردين الغرباء والبسطاء.. الثوار والمخبرين.. اللصوص والحالمين..وأيضا الفاتنات من النساء.. هو المقهى الذى يحتوى أنواعا مختلفة من البشر فى لوحة «موزييك» أو فسيفساء يصعب أن تستوعب. قطعها الصغيرة مبعثرة.. هو المقهى الذى صاغت البشرية على صفحاته حياتها وأحداثها وأحزانها.. وكتبت عليه تاريخها.

إن الدنيا كلها تحتفظ بمقاه عريقة أصبحت جزءا من عروقها.. ففى الشرق الذى نحن بقايا أحلامه وأحزانه تحولت ألف ليلة وليلة من حكايات مسموعة إلى مجلدات مطبوعة نقرأ فيها مواد وقوانين الحياة فى أهم كتاب دستورى يحكمنا حتى الآن..وعرفت أستانبول ما يسمى بالمقاهى الأدبية.. وفى القاهرة كان «كافيه ريش» أول من أحس بأنفاس ثورة ١٩١٩..الثورة الشعبية الوحيدة فى مصر.. وعلى هذا المقهى شرب شاب اسمه جمال عبدالناصر قهوته..وعليه تردد طه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ ويوسف إدريس.. وثلاثة أرباع من نقرأ لهم هذه الأيام..وغنت مطربة جاءت من حقول القطن الشهباء.. تدعى أم كلثوم.

وكانت هناك مقاه أخرى قادرة على المنافسة.. «ماتتيه».. «نوبار».. «السنترال».. «الفيشاوى».. ومقهى «كرشة» فى زقاق المدق.. الحى القديم الذى خلده نجيب محفوظ فى رواية تحمل نفس الاسم.

وفى باريس يوجد مقهى يحمل نفس اسم «ريش».. لكنه ليس فى شهرة مقاه مثل «لابيه».. أو «فوكيه» أو «دو ماجو» فى العاصمة الفرنسية.. أو مثل «الكيت كات» فى لندن.. أو «لوجريكو» فى روما.

هذه المقاهى عمرت بالمشاهير الذين عصروا التاريخ وحولوه الى زجاجة دم أو زجاجة عطر وضعوها فى جيوبهم.. نابليون بونابرت.. فلادمير إليتش لينين.. فولتير.توفيق الحكيم.. فتحى غانم.. أرنست همنجواى.. جان بول سارتر..سيمون دى بوفوار..كاتب رواية «موسم الهجرة الى الشمال».. الطيب صالح.

لكن وراء تاريخ هؤلاء ما هو أبعد وأعمق.. إن ألف ليلة وليلة هو كتاب ولد على المقاهى.. فهو أدب شعبى مجهول النسب والجنسية.. فقد جاءت جذوره من بلاد الهند وبلاد فارس.. والدليل على ذلك اسم أشهر أبطاله.. شهريار وشهرزاد.. وهناك دليل آخر هو النساء وخيانتهن ومكرهن.. كما هو فى البداية..حيث تقول أبيات الشعر:

«بحديث يوسف فاعتبر.. محذرا من كيدهن..أو ما ترى إبليس أخرج آدم من أجلهن».. إن شهريار الملك المخدوع فى زوجته بطش برعاياه..وراح يسفك دماء العذارى كل ليلة.. فأصبح قمر بلاده مخضبا بالدماء.. واختلطت دماء الصبايا بأول حبات الندى كل صباح..حتى أدركته شهرزاد بحكاياتها البعيدة فشفى الملك بالمعرفة من علته وعفى عنها وعن رعاياه.

لذلك نجد الفارسية والهندية سرعان ما اختلطت بالثقافة والأساطير العربية.. فقد راح الخيال الشرقى يزيد ويضيف على مقاهى بغداد ودمشق والقاهرة المحروسة أثناء الحكم الإسلامى الفاطمى.. وقد كان الرواة مجموعة من الرجال يشعلون خيال الصبايا والشباب بقصص العشق والهوى والعلاقات الفاحشة والليالى الآثمة للمحظيات والنساء الفاتنات الحالمات وراء المشربيات.. بالترنيمة الأبدية.. المتعة والثروة والسلطة.

وكان من الممكن ألا يزدهر الخيال فى ألف ليلة وليلة لو لم تصل إلى الشرق العربى.. خاصة بغداد فى عصر الخلافة العباسية.. حيث الحياة مترفة.. والتجارة مزدهرة.. والجدل لا يتوقف حول المرأة والفن والشعر.. وبهر رواد المقاهى بحكايات الخليفة الرشيد ووزيره الذى تنكر فى زى درويش من أجل تحقيق شفافية الحكم والعدل بين الرعية.. وفتن رواد المقاهى بعلاقات العشق الملتهبة.

لقد كانت هذه الأساطير هى التى جعلت فتيات زماننا المقهورات يتصورن أن الجن يسكن ثيابهن وفراشهن.. وراجت الخرافات حتى وصل أصحابها إلى صفحات الجرائم فى الصحف المختلفة.. ولم تنس حكايات المقاهى فى بغداد -التى خلدها كتاب ألف ليلة وليلة أن تثير أحلام الفقراء- من صيادين وحطابين وصعاليك- والتى يتحول الخبز فى بيوتهم إلى لؤلؤ ومرجان وجوارى هن فتنة للناظرين..إن الجائع يحلم دائما وبلا توقف بسوق الرغيف.

أما المقاهى فى مصر فقد أضافت إلى حكايات ألف ليلة وليلة كل الحكايات المنقوشة بالسحر.. والحسد.. وهما من ميراث لايتنازل عنه الناس فى مصر منذ عصور الفراعنة.. إن حكايات علاء الدين ومصباحه السحرى.. والأمراء الذين تحبسهم الساحرات فى آجساد جياد وأسماك هى خيال رواة المقاهى فى مصر.. فى تلك الأيام.. ومن ثم لم يكن مثيرا للدهشة أن يستلهم نجيب محفوظ روايته «ألف ليلة وليلة» من ذلك الكتاب الذى عاش وازدهر وفرض أنفسه على كل العصور. والمحور الأساسى فى رواية نجيب محفوظ هو فساد البشر.. وعلاقة الحاكم بشعبه.. وحلم تحقيق العدل والخير والجمال.. وفى المقابل ازدواجية البشر وجنوحهم إلى الشر وجنونهم به..والمكان الذى يجمع كل أنواع البشر فى رواية نجيب محفوظ هو مقهى «الأمراء».. ففيه بحارة وأمراء وحمالون.. مثل سندباد وقمر الزمان وأنيس الجليس.

والحقيقة أن علاقة نجيب محفوظ بالمقهى هى علاقة قديمة ووطيدة.. إن للمقهى عنده دورا لايمكن الاستهانة به.. فهو دور شخصى وإبداعى واجتماعى.. فنصف حياته على الاقل قضاها على المقهى.. ولم يكن نجيب محفوظ هو أول من عرف المقهى الأدبى.. فالفضل فى المقهى الأدبى يرجع إلى اثنين من التجار السوريين.. ففى عام ١٥٥٥ أفتتح أول مقهى أدبى على ضفاف البوسفور فى تركيا.. وعبر هذا المضيق البحرى تسللت المقاهى الأدبية الى أوروبا.. ولكن كيف تسللت المقاهى غير الأدبية إليها؟

كل شىء بدأ ذات يوم فى عام ١٦٦٥ عندما أرسلت الدولة العثمانية محمد على باشا سفيرا للباب العالى إلى فيينا.. عاصمة النمسا.. وخلال عام واحد قضاه محمد على هناك استمتعت الأرستقراطية الاوروبية فى قصره بكل مظاهر البذخ والفخامة والترف. وعرفت من المتع ما لم تعرفه من قبل.. لقد عرفوا لأول مرة الآيس كريم وعصائر

الفاكهة واللكوم «الملبن» والدخان المشبع بالعنبر وماء الورد.. وعرفوا لأول مرة مشروبا داكنا معطرا بسحر مدن الشرق البعيدة.. يوقظ الحواس.. ويدغدغ الأعصاب. ويفور برغوة مثيرة.. عرفوا لأول مرة القهوة السوداء.. المشهورة الآن بالقهوة التركية.

وكانت القهوة تقدم إليهم فى طقوس غريبة لم يألفوها من قبل.. فكانت تأتى مجموعة من الغلمان يتسمون بجمال طاغ وصفهم أحد الأوربيين بأنهم كانوا مثل البدر فى ليلة التمام.. يرتدون الحرير المزركش.. المرصع بالفضة والذهب.. ويغرقون أنفسهم فى العطور.. وينحنون وهم يقدمون القهوة وينتظرون حتى ينتهى الضيف على مهل من ارتشافها.. هؤلاء هم «قهوجية» تلك الأيام ولا نضيف أى شىء من باب المقارنة.

ورحل محمد باشا.. عاد إلى بلاده..لكن بقيت القهوة.. تذكره الناس هناك.. لكن نسوا صاحب الفضل فى توصيله إليهم.. واستمتاعهم به.. وبعد قرابة عشرين سنة..

وفى عام ١٦٨٣ كانت النمسا محاصرة من الأتراك.. وفى قلب هذا الحصار ظهر فجأة مغامر بولندى «قيل أنه أرمنى يعيش فى فيينا منذ بضع سنوات ويتكلم التركية و العربية يدعى «كولتشسكى» قام بأعمال بطولية ونجح فى اختراق الحصار وفتح الطريق أمام الحلفاء بعد أن تنكر فى زى واحد من الأتراك..وجاء بمعلومات خطيرة أدت إلى استرداد النمساويين لبلادهم ولحريتهم.. وعندما جاءت لحظة المكافأة طلب المغامرالبولندى مكافأة غريبة.. الأكياس المكتظة بالحبوب الغريبة التى تركها الأتراك بعد انسحابهم.. وظن الجميع أنها طعام للجمال.. وكانت هذه الحبوب هى حبوب البن.. أو القهوة التى كان المغامر البولندى قد عرفها فى مغامراته وأسفاره إلى الشرق العربى والتركى..وكان يعلم كيفية تحضيرها.. لكنه أضاف إليها التحلية بالسكر والعسل لتتوافق مع الذوق الغربى الذى لا يستسيغ أى شىء

بسهولة.

ثم قام كولتشسكى بصناعة نوع من الفطائر على شكل هلال- والهلال هو رمز وشعار الإمبراطورية الإسلامية العثمانية المهزومة - ليأكلها الناس فى أوروبا فيشعرون باللذة وهم يأكلون شعار تلك الدولة التى وصلت إلى بلادهم..وهذا النوع من الفطائر هو «الكرواسون» الذى نعرفه ونأكله.. ولكن لا نعرف أصله ولا فصله.. فهل ستأكل الكرواسون بعد أن عرفت أصله وفصله؟.

وتقديرا لذلك المغامر الذى أدخل القهوة إلى اوروبا وجعل الناس تلتهم هلال العثمانيين أقاموا له التماثيل فى أنحاءمدينة فيينا.. وحظى بمكانة رفيعة فى قلوب النمساويين.. ومن ثم قام بفتح أول مقهى «القنينة الزرقاء».

وتضاعف جنون الغرب بالشرق بعد أن أيقظ أنطوان جالان الفتنة النائمة وترجم ألف ليلة وليلة.. وكليلة ودمنة.. ثم قام بأول دراسة غربية عن أصل القهوة.. وكان شعاره فيها على طريقة أعرف عدوك حتى تهزمه وقد أدى ذلك إلى ما عرف بالولع الغربى بتركيا ومصر وبدأ ماعرف فيما بعد بالاستشراق.. فراحت أميرات آوربا يلبسن الثياب الشرقية.. ويشربن القهوة.. ويضطجعن على الآرائك.. ويدخن النرجيلة.. مثل محظيات الشرق..لكن القهوة كانت تقدم لهن بواسطة غلمان ليسوا فى لون القمر- كما فى تركيا- وإنما فى لون الأبنوس..ورحن يفرطن فى اطلاق النكات ويفرطن فى شرب القهوة والشيكولاتة والشاى وقيل إن الماركيزة دوكوبلين أنجبت طفلا أسمر من كثرة التهام الشيكولاتة والقهوة أما الملك لويس الرابع عشر فقد غير نظام حياته.. فلم يعد يفطر نبيذا.. وراح يحتسى القهوة التى كانت لاتزال غالية الثمن.. ولم تكن فى متناول الجميع.. وكانت حكرا فقط على الطبقات الحاكمة والأرستقراطية ومن ثم حامت حولها خيالات الفقراء.

وما ضاعف من هذه الخيالات أن القهوة تساعد على التنبيه.. بعكس المشروبات الأخرى المغيبة للوعى.. ولعل ذلك التنبيه كان مثيرا للقلق لدى الشيوخ.. فحرمها بعضهم.. ولدى رجال الشرطة الذين سعوا إلى تجريمها.. ولكن كل هذه المحاولات المضحكة باءت بالفشل.. فقد بقيت القهوة مثيرة للمشاعر ومنبهة للعقول والأفكار.. وهو ما ضاعف إقبال الأوربيين عليها خاصة فى فترات النهضة الصناعية والثقافية.

فقد أصبحت بالنسبة لهم مشروب العصر الملائم لهم. يقول المؤرخ الشهير جاكوب: «الشعب لايختار مشروبه الأساسى المفضل إلا إذا كان مدفوعا بقوة داخلية».. فالمشروب القومى لكل بلد يعبر عن طبيعة ومزاج الناس فيه.

فى بريطانيا- على سبيل المثال- يفضلون الشاى لأنه شعب اشتهر بالهدوء والتحفظ ورباطة الجأش.. والشاى هو شراب السكينة والصمت المستمد من الصينيين والبوذيين.. أول من عرفوه..وقد انتشرت مقاهى الشاى فى بريطانيا فى القرن السابع عشر.. ولكن سرعان ما استبدلت بصالونات الشاى والنوادى أو الكلوب.. حيث يستمتع البريطانيون بالصحبة واقتسام فاتورة الحساب على الطريقة الانجليزية..

وقد أقيمت الصالونات خصيصا لاحتساء الشاى.. ولاحظ المؤرخ ميريسيه أن بريطانيا -على عكس فرنسا تجرى الحوارات فيها بهدوء ودون صخب أو ضجيج..ويوجد فى نواديها نساء للهوى ولكن لا يعرفن الابتذال.

وفى إيطاليا تنتشر مقاهى البوتشجى ويغلب عليها طابع الزحام والصخب مثل مقاهى أمريكا اللاتينية.. وبطبيعة الحال يفضلون القهوة مثل فرنسا التى تلائم طبيعتها الرافضة الغاضبة القهوة ذات الايقاع اللاهث الهستيرى.

أما نحن فى مصر فنفضل الشاى.. فهو شراب الأغلبية الصامتة

المطحونة التى استسلمت للامبالاة وغرقت فى الحرمان والإحباط المزمن.. ووضعت همها فى هذا المشروب الذى تفضله فى لون الكهرمان أو الحبر.. غارقا فى السكر.. ومع الشاى يكون دخان «المعسل» ويكون ضياع الوقت والهم فى ضربات النرد على خشبة الطاولة دون أن يخلو الأمر من سيمفونية جماعية للسعال. لكن أهل الثقافة والصحافة يفضلون القهوة بكل أنواعها.. التركية.. النيسكافيه..الكابتشينو.. الأكسبرسو.. وكلما زاد الواحد منهم فى الهم ومرارة الحياة نزع السكر من قاع فنجانه فالقهوة فى النهاية تجعل العقل فى حالة تحفظ وتأهب وتوتر.

وربما لهذا السبب كانت القهوة هى وقود الثورات.. لقد أكد هذه النظرية المؤرخ الفرنسى الشهير ميشليه العلاقة بين القهوة والثورة الفرنسية، وأكد بما لا يدع مجالا للشك متانة هذه العلاقة.. فعلى المقاهى ولدت الأفكار والأيديولوجيات والكتابات الثورية الملتهبة.. ولم يحدث ذلك للثورة الفرنسية فقط وإنما حدث ايضا للثورة البولشوفية الروسية أيضا.. فلم يكن ذلك الرجل الغامض المهيب القابع فى ركن من مقهى «فولتير» فى زيورخ سوى الثائر الشيوعى الكبير لينين.. كان يجلس هناك فى قلب هالات من الدخان يكتب مقالات متأججة صارخة يحارب بها الإمبريالية.وينشرها فى الصحافة التى أدرك مبكرا دورها الخطير فى إثارة الغضب والتحريض على الثورة.. وقد حقق حلمه وقضى على النظام القيصرى وأقام أول دولة شيوعية على وجه الأرض فى العصر الحديث.. ولكن فيما بعد جاء رجل لا يحب القهوة وحطم هذه الدولة هو جورباتشوف.

يقول نجيب محفوظ فى «ثرثرة على النيل»: «الثورة يديرها الصفوة والدهاة وينفذها الشجعان ليستفيد منها الجبناء.. إنها تنويعة على نفس اللحن».

ولم يكن حال الثورة فى مصر بعيدا عن المقهى.. نحن الآن فى عام

١٩٠٦م.. وفى وسط القاهرة.. فى مقهى ريش.. الذى كان يملكه فرنسى يعيش فى مصر.. وقد بدأت ثورة ١٩١٩ من عليه.. بل إن الجهاز السرى لجماعة اليد السوداء التى قامت ببعض الاغتيالات كان أفراده يجتمعون على ريش.. وكان المعلن منهم يحرض على الثورة على طريقة المقاهى الفرنسية.. وهى الطريقة التى أشعلت الثورة الفرنسية وتسمى هناك «نوفلست» وبجانب هذه الطريقة عرف «القط الأسود» فى باريس لأول مرة صحيفة حائط تنتقد المجتمع الأرستقراطى الحاكم.. ويقول رجل الاقتصاد البريطانى أرثر يونج:إن مقاهى فرنسا فى عام ١٧٨٩- وخاصة فى منطقة الباليه رويال- كانت تدعو للدهشة.. فهناك جحافل من الناس.. و قطعان من الأجساد المتلاصقة.. يهتفون ويصفقون ويصيحون ويبصقون ويصرخون فى وجه الحكومة والصفوة المسيطرة.. وكان الغليان يجرى فى باقى هواء باريس منذرا بالانقلاب على الواقع الذى كان لا مفر من تغييره.

وفى عشية الثورة الفرنسية.. فى ١٢ يوليو ١٧٨٩ كان هناك صبى ترزى يخطب فى جموع بلغ عددها فى مقهى «فوى» وحده ٦ آلاف شخص..واندهش أرثر يونج: كيف تركت الحكومة كل هذا الكم من الغضب منها والسخط عليها؟..

لكنه لم يتوقف عند مقهى «لورجنيه» الذى كان يجلس فيه شاب تفوق طاقته قامته.. سوف يجتاح العالم.. هو الملازم نابليون بونابرت.. ويروى انه ذات يوم فى مقهى «لورجنيه» قال السياسى الشهير روبسبيير- وهو من اعمدة الثورة الفرنسية وفى الوقت نفسه أشهر ضحاياها- قال كلمته المعروفة الخالدة «الثورة مثل القطط دائما تأكل أولادها».. وكان روبسبيير من المولعين بلعب الشطرنج على المقاهى وذات يوم دخلت عليه إمرأة طاغية الجمال متنكرة فى زى غلام وجلست تلاعبه الشطرنج وراهنته على رأس خطيبها الذى كان محكوما عليه بالاعدام.. بالمقصلة.. وراقب تنفيذ الرهان كل مجموعة

مفكرى التنوير الذين عاصروا الثورة الفرنسية مثل مونتسيكيو مؤلف كتاب روح القوانين..وجان جاك روسو مؤلف كتاب العقد الاجتماعى.. وقد نجح هؤلاء فى أن يصدروا قانونا يحرم دخول الشرطة فى بالية رويال المسقوفة والمقامة على ألف عمود أو القبض على الناس فيها..وكانت هذه المنطقة عامرة بالمقاهى.. وملاذا للمولعين بالحرية..

وأيضا هواة مطاردة الفتيات.. وهو ما جعل المكان مسكونا بالديمقراطية.. على أنه بعد أن تحولت الثورة الى دولة تعلم الناس السكوت حفاظا على رؤوسهم وكان أن تحول دور المقاهى من السياسة إلى الثقافة والفن والرسم والسينما..وهذه قصة أخرى تستحق الانتظار.

الفصل

4

عاهر الإمبراطورية!

■ راسبوتين!
■ الجاهل.. الذى حكم روسيا القيصرية.
■ كيف استطاع أن يضع القيصر وزوجته في جيبه؟
■ لماذا عجّل بالثورة الشيوعية.. وما وجه المقارنة بينه وبين لينين؟

راسبوتين.. هذا الأسطورة الذى ترك بصمات لا تمحى فى تاريخ روسيا القيصرية يثير العديد من علامات الاستفهام الحائرة والمحيرة فى نفس الوقت.. وكذلك حياته كانت محوراً للعديد من الدراسات والكتب والأفلام السينمائية. ومن أهمها راسبوتين للمؤرخ والأديب الروسى الأشهر هنرى تروايا.

إن هذه السيرة التى سوف نعرضها تبرز ظاهرة شديدة الأهمية والندرة، فكيف لرجل مثل راسبوتين قادم من قاع الدنيا يصل إلى ذروة القمة؟ كيف لفلاح بسيط، أمى، بدائى، جاهل أو كما يطلقون عليه فى روسيا «موجيك» «MOUJIKE» قادم من جوف الريف القاتم، القارس، من رحم قرية فى سيبيريا المظلمة، كيف استطاع أن يسطع ويتوهج ويصعد كرجل دين وعراف فيتنبأ بالغيب ويصنع المعجزات ويشفى المرضى بالرغم من تعايش وتعانق الفسق والفجور والمجون بداخله مع الخشوع والورع والإيمان بالله، فكان بمثابة شيطان يعظ.

ونكتشف من خلال تلك السيرة المثيرة لحياة ذلك الرجل الأسطورة كيف استمر صعوده حتى هيمن وتحكم وحكم إمبراطورية عظمى من الناحية الدينية والسياسية وحتى القضايا العامة.

فلماذا سيطر على القيصر وزوجته وأصبح الآمر الناهى حتى هوى بالعرش وبالامبراطورية فى أحضان الثورة البولشوفية الحمراء، كيف أطاح بحكم سلالة الرومانوف وكان دون أن يدرى المحرك أو العامل الجوهرى فى صعود لينين إلى السلطة؟

● ثم ما معنى اسم راسبوتين؟

وما مدى خطورة دور النساء فى وصول راسبوتين للسلطة المطلقة؟ فهو يقول: أن النساء أهم وأخطر من الرجال، فيجب البدء بهن! هكذا أعمل، إن النساء يقعن تحت وطأة رجولتى التى لا تقاوم! فبتلك النظرة المغناطيسية، الثاقبة، النافذة، الحادة التى تخترق غياهب النفس وأغوارها وتصل إلى الروح وتعتصرها، تلك النظرة التى أخضعت النساء وأسرتهن واللاتى بالتالى يؤثرن على الرجال.. ونجد عبر التاريخ أنه بالفعل فى كثير من الأحيان كانت النساء وراء صعود تلك النماذج، فأحياناً المرأة بتكوينها الذى يميل إلى المازوكية تتأثر بالشخصية المركبة، الطاغية، القوية التى تترنح تارة بين القسوة والخشونة وبين الحنان المتدفق.

أيضاً نجيب على العديد من الأسئلة حول ظاهرة شديدة الأهمية والخطورة وهى أن ظاهرة راسبوتين تلك حدثت بالأمس وتتكرر اليوم وسوف تحدث غداً طالما هناك من يستعملون الدين ويتسترون ويحتجبون وراءه وينادون باسم الله، المنتفعين الذين يوظفون الدين من أجل الوصول لأغراضهم وتحقيق مصالحهم. سواء كانوا قساوسة، دعاة، آيات الله، أمراء جماعات، مشعوذين وكلهم فى النهاية راسبوتينيين.

ثم أتعرض لعوامل الزمان و المكان التى أدت إلى ظهور راسبوتين، أيضاً نكتشف كيف نجح اغتياله البشع بعد أن فشلت كل المؤامرات التى كانت تهدف إلى قتله من قبل.

وأخيراً نجد مقارنة مثيرة بين راسبوتين ولينين والإنهيار الذى آلت إليه تلك الإمبراطورية العظمى ثم الدولة العظمى التى كانت.

طفولة راسبوتين

نبدأ «بوكروفسكوى» وهواسم القرية التى ولد ونشأ فيه راسبوتين فى غروب القرن قبل الماضى.

صبى مثل الآخرين مشاكس، كاذب، عنيف، لص، يسرق الأشياء

الصغيرة، فعندما تختفى دجاجة أو خروف من القرية تحوم شبهات وشكوك سكان القرية من الفلاحين حول جريجوار راسبوتين بالرغم من أن والده «ايفيم» ووالدته «آنا» من الفلاحين الموسرين فلديهما المنزل الكبير والأرض الخصبة.

ولجريجوار شقيق يكبره بسنتين ميشيل وهما يتمتعان بصحة وقوة بدنية رائعة أما اسم راسبوتين فلا أحد على يقين من أصله، فراسبوتين تعنى ربما الإنحلال أو المجون وربما تعنى المواقف المعقدة. والحقيقة هى ان والد راسبوتين تنطبق عليه كل هذه الإحتمالات فهو مدمن خمر، يعشق النساء وهو لا يهتم مطلقا بتربية أولاده.

فكان ان ألقى الأب بولديه فى أحضان الدنيا الواسعة لكى يتعلما فكانت مدرسة جريجوار هى الحقول الشاسعة والهواء الطلق والغابات الغامضة، فتعلم المكر والخبث من الحيوانات المتوحشة ثم هام فى معتقدات الديانة الأرثوذوكسية بل أيضاً الخرافات والعادات التى تحفر بعمق وجدان الشعب الروسى. جريجوار لا يعرف القراءة ولا الكتابة.

ويوكروفسكوى تقع على الجانب الآخر من الأرض المسكونة، فهى قابعة فى رحم سيبيريا، وسكان القرية لديهم رؤية ضبابية لوجود مدن عملاقة فى روسيا مثل سان بطرسبرج وموسكو المكتظة بالنشاط والحركة المفعمة بالثراء والأضواء الساطعة.

وذات يوم فى نزهة من النزهات الخلوية المتلحفة بالحرية المطلقة سقط ميشيل وجريجوار فى النهر وأصيبا بإلتهاب رئوى حاد.

مات ميشيل أما جريجوار فقد صارع وقاوم المرض لعدة أسابيع ولقد صلى من أجله جميع سكان القرية، وفى ذات صباح بينما اعتقد الجميع أن جريجوار سوف يلحق بشقيقه، بعث إلى الحياة من جديد وهو يردد ويصرخ بين النوم والموت واليقظة والحلم «نعم. آه، نعم أريده، أريده».. وعندما سئل جريجوار قال: إن سيدة جميلة، ترتدى الأبيض والأزرق ظهرت له فى منامه وأمرته أن يشفى وعند سؤال قس القرية أجاب بطريقة قاطعة إنها السيدة العذراء التى زارت الطفل

ولقد اختارته ليتمتع بمستقبل عظيم.

والدين هناك هو عصب الحياة وبالرغم من تحكم الغرائز الحاد والعنيف فى النساء والرجال إلا أنهم يؤمنون بالمعجزات والتحذيرات التى تهبط من السماء، فلا تقل أهمية الجسد عن أهمية الروح بأى حال من الأحوال.

ويوما بعد يوم يشعر جريجوار بالأهمية التى اكتسبها من تلك الحادثة.

وعندما يختفى فرس من القرية كان جريجوار يخمن بالفطرة والغريزة اسم اللص فبدأ الناس يتهامسون من حوله: انه عراف بالرغم من صغر سنه.

وكلما دارت الأيام شعر جريجوار بجاذبية شديدة تجاه الطوافين والجوالين الذين يهيمون فى القرى ويتنقلون من دير إلى دير آخر، ويستقبلهم الفلاحون ومن بينهم والد جريجوار لكى يستمعوا للمعجزات التى شاهدوها.

ولقد احترق شوقاً الصغير جريجوار لكى يقلد هؤلاء الطوافين، فلا يهم جهله وأميته فهو يؤمن أنه يتمتع بقوة وعلم وبصيرة هطلت عليه من السماء أثناء اقترابه من شاطىء الموت وأصبح الصبى مراهقاً قلقاً متوتراً غزير الأحلام التى تكاد تقترب من الهلوسة والهذيان ولقد أقتنع أهله بميوله ورغبته فى الترحال لزيارة الأديرة والنساك.

ولكن فى التاسعة عشرة من عمره التقى فى حفلة الدير بفتاة تدعى براسكوفى، ذهبية الشعر، سوداء العينين تكبره بأربع سنوات ولقد أشعلت فيه كل ما يمكن إشعاله!

وتم الزواج وبعد زمن ليس بقصير رزق جريجوار بطفل توفى فى شهره السادس. هذا الحزن الذى أصابه ليس فيه من العدل شىء، ومنذ ذلك اليوم ثار وتمرد جريجوار على كل شىء، فاغترف من المتع وغرق فى حياة الملذات والإنحلال ومارس الإغتصاب وعشق الخمر والنساء وهو المخلص الزاهد القنوع المعتدل الذى كان.

وشعر جريجوار برغبة ملحة فى الرحيل من القرية لكى يطهر قلبه

وروحه سائراً على الأشواك نازفاً الدماء باحثاً عن الحقيقة.
ويذهب جريجوار لرجل يدعى ماكير زاهد متقشف يطلقون عليه لقب «ستارتيز» «staretz» وهذا اللقب لايطلق بالضرورة على القساوسة ولكن من الممكن أن يكون رجلاً بسيطاً ولكنه يتحلى بقدرات خارقة للتنبؤ والرؤى والتنجيم وإزالة آلام الناس من خلال الكلام والنصائح، وكلما كان الستارتيز بسيطاً وبائساً كانت قدرته هائلة على المخطئين. ولقد تأثر به جريجوار حيث عرفه الرجل بالتوراة والإنجيل وبالعالم الآخر وتغير جريجوار وأصبح أكثر سرحاناً، عصبياً، جمله متقطعة، دائم الذكر لقدرة الله وأصبح كثير الترحال.
وتملكت جريجوار ثقة فى نفسه ويقينا أن لديه رسالة عظمى يجب أن يوصلها للبشر، وعرف بين سكان القرية أن جريجوار معالج للروح والجسد فاكتسب بين الفلاحين شعبية لا حدود لها.

جلسات ماجنة

فاستأجر قبوا فى منزل مجاور له لكى يعقد فيه جلساته، وكان أغلبية المترددين على تلك الجلسات المتصوفة نساء، فهناك يتحدثن عن الإنجيل وعن الأحزان التى تزيلها الصلوات، وهكذا فعندما يزداد ويشتعل الحماس يبدأ المترددون من الرجال والنساء الذين يهيمون فى حب بعضهما الآخر بتبادل القبلات، أليسوا أخوة وأخوات، وتتطور الأمور إلى أن تصل إلى ممارسة الحب بل الرذيلة.
وتبدأ تلك الجلسات الماجنة تنتشر أخبارها فى القرية، فراسبوتين له أيضاً أعداء مثلما له أتباع، وسرعان ما يتهمون راسبوتين بإنتمائه لمذهب «الكليستى» وهذا اتهام خطير جداً حيث نشأ هذا المذهب فى القرن الـ١٧ والذى تبدأ طقوسه بتنشيط الدورة الدموية ثم الرقص والغناء ويتحول هذا الغليان والفوران إلى نوع من الهستيريا إنتظارا للمسيح وفى ذروة هذا الاندفاع تتلامس الأجساد مثلما تتلامس الأرواح. وتنتهى تلك الحفلات بالارتماء فى أحضان الرذيلة الجماعية.

وهم يرون أن الخطيئة يجب أن تهزم عن طريق الخطيئة، فهم يحاولون السمو والإرتقاء إلى الله عن طريق الإنغماس فى الوحل، ولقد لعنتهم الكنيسة وطاردهم البوليس ولكن دون جدوى، ونظراً لعدم وجود دليل ضد راسبوتين عند تفتيش القبو، لم يقبض عليه ولكن ملفه موجود إذا تجددت الشكوى.

وفى تلك الأثناء ظل راسبوتين يجمع حوله الأخوة والأخوات للمشاركة فى الخطيئة ثم فى العفو. أما عقيدة راسبوتين والتى استوحاها عن هذا المذهب هى: «الشر ضرورى لكى ينتصر الخير» ان الرب لا يحب سوى عباده الذين يتطهرون بعد السقوط فى الخطيئة والمعصية. هذه النظرية المتسامحة تناسب جداً تكوين راسبوتين العفى، البدائى، النهم.

فهو عاجزعن العفة والتقشف، ولقد قرر أن الملذات الأرضية حبيبة الى الله، فهى أحب إلى الله من الفضيلة الجافة اليابسة فكيف ستجىء التوبة إذن إن لم يكن هناك سقوط؟ وهكذا فراسبوتين مولع بالزنا حتى الثمالة لكى يتطهر بعد ذلك ويصبح جديراً لما يأتيه من السماء.

أما النميمة فلا تكف حول راسبوتين وجلساته الماجنة، فيقرر الرحيل ولمدة ٣ سنوات وفى ذلك الوقت تعرف راسبوتين على الأب ميشيل الذى بهرته نظرات راسبوتين النافذة المخترقة ذات الإشعاع الفسفورى وحديثه العاصف وأيضاً تنبؤات هذا الرجل الأمى والملهم فى آن واحد.

واقترح الأب ميشيل على راسبوتين ضرورة ذهابه لأكاديمية اللاهوت بسان بطرسبورج فباركه وأعطاه توصية وشهادة بأن جريجوار راسبوتين «ستارتيز» وعراف صادق. قرر راسبوتين الرحيل إلى العاصمة متزوداً بتلك المساندة من الأب ميشيل، ناسياً كل أحداث الماضى من اتهامات وغيرة من أعدائه فى القرية.

نظراته المغناطيسية

إنها بداية حياة جديدة بالنسبة لراسبوتين وبالنسبة لروسيا الهانئة، السعيدة، الورعة، يصل راسبوتين إلى سان بطرسبورج فى ربيع ١٩٠٣

وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره فلاح وسيم نحيف ذو شعر طويل وأهم من هذا عيناه تلفت الأنظار، نظرته لها بريق المعدن، صلبة، ثابتة، تشع مغناطيسية.

وبفضل التوصية التى حظى بها راسبوتين نجح فى مقابلة الأب تيوفان والذى تأثر بحماس راسبوتين البدائى، فلقد مل وسئم الأب تيوفان القساوسة الشغوفين بالإجتماعات المنتمين إلى الطبقات العليا.

فوجد فى راسبوتين صفاء الأرض الروسية ومسيحية العصور الأولى فهو ليس رجل كنيسة بل رجل قريب من الله، فهو فلاح، تلقائى مثل الأرض البكر فى نضارتها وعفويتها. فهو غير مفتعل حتى لغته الركيكة المكتظة بالأخطاء جعلته أكثر صدقاً فى عيون الأب تيوفان ولقد مضى زمن طويل ظلت الكنيسة تبحث فيه عن طريقة تهز بها ضمير الأرستقراطية الخامل.

ومن ثم عرضت الكنيسة على راسبوتين أن يكمل تعليمه لكى يصبح قساً ولكنه رفض فبالرغم من احترامه للكنيسة الأرثوذكسية إلا انه لا يستطيع الالتزام بالقواعد الصارمة، المتقشفة من صيام إلى اخره، فهى تتناقض مع طبيعته النهمة، الشرهة، ولقد فضل أن يظل «ستارتيز» بسيطاً.

ولقد عرف راسبوتين من الآن فصاعداً أن الكنيسة تحتاجه اكثر مما يحتاجها هو.

وبالرغم من الوشايات عن فضائح راسبوتين الماضية إلا أن الأب تيوفان لا يكترث فراسبوتين بشر من الممكن أن يضعف ومن الذى لا يضعف؟ فوجود راسبوتين ضرورى للقيام بدور الراعى الذى سوف يصلح من تصرفات زوجة القيصر الكسندرا فيدورفنا المتطرفة المتصوفة، الهيستيرية هى وأتباعها وحاشيتها.

تنبؤاته الخارقة

وبإيحاء من الأب تيوفان وفى ظل هذا الجو المشحون بدأت طبقة النبلاء والبورجوازية العليا فى استقبال راسبوتين، فقابل سيدة

متزوجة تدعى «أولجا لوكتينا» وهى تعانى من مرض عصبى عجز الأطباء عن شفائه، لقد اكتشف راسبوتين جذور هذا الاكتئاب وأقنع أولجا بضرورة امتلاك روحها وجسدها لكى يستطيع شفاءها ولقد نجح العلاج نجاحاً باهراً! واكتشف راسبوتين انه لايوجد فرق فى تلك العلاقات الحسية بين فلاحة ونبيلة وبين أميرة وفقيرة، ملكة وغجرية فالمرأة هى المرأة وأسرار المتعة هى هى لاتتغير.

وهكذا أصبحت أولجا عشيقة لراسبوتين وبنوع من العرفان بالجميل بدأت تعطيه دروساً فى القراءة والكتابة والسلوك ثم قدمته لصديقاتها كمعالج ونبى.

ومن ثم بدأت حلقة علاقات راسبوتين تتسع وتعرف على عدد من النبيلات والكونتيسات المبهورات به وأيضاً أزواجهن ولقد اشتهر راسبوتين بقدرته الخارقة على قراءة المستقبل بنظرة عين.

وفى يوم ١ نوفمبر وفى قصر النبلاء كان أول لقاء لراسبوتين مع القيصر نيكولاس الثانى وزوجته ولم يكن راسبوتين مندهشاً أو مرتبكاً فكل شىء يتم بإرادة الله.

فهو يعبر عن روسيا الحقيقية بكل حيويتها وبساطتها وشعبيتها ولقدتحدث راسبوتين إلى «tsar» القيصر وزوجته دون أى تكليف خالعاً أى صبغة رسمية ولقد تأثرا جداً به.

ولقد روى لهما راسبوتين عن الحياة المظلمة القاسية فى سيبيريا، روى لهما عن الفقر وبؤس البسطاء وصبرهم اللانهائى وعن وجود الله فى كل أحداث اليوم الصغيرة ثم أكد لهما راسبوتين أن أحب شىء إلى الله هو التواضع والخشوع والبساطة التى تغفر عند الله كل شىء، أن أكثر شىء يمقته الله ولا يتسامح فيه هو الغرور والغطرسة.

هو وزوجة القيصر

ومنذ الوهلة الأولى استطاع راسبوتين أن يلج إلى أعماق زوجة القيصر، فهى تتمتع بطبيعة قلقة، عصبية، متوترة، فهى بحق من النوع الذى يحتاج مساعدته.

إنهـا تمقت المظاهـر الزائفـة لهـذا المجـتمع اللا أخـلاقى، ولا تشـعـر بالسـعـادة والدفء إلا بجـوار زوجـهـا وأولادهـا والتـقـرب إلى اللـه بكل الطرق لقد أحاطت نفسـهـا بمجموعة من الدجالين والمشعوذين الذين فشلوا دائماً فى تهدئة نفسها الصاخبة.

والكسندرا هـى فى الواقع امـرأة باهـرة الجـمـال، تتـمـتع بجـمـال أرستقـراطى، جليدى، بيضاء، هيفاء، شـقـراء، تشبـه تماثيل الإغـريق الغابرة.

والحقيقة انها تتميزبشخصية قوية بالرغم من أنها خجول إلا أنها حادة وقاطعة ومن الممكن القول إن شخصية القيصـر بالنسبة لها تعتبر هزيلة وشاحبة، فهو ربما يكون مناسباً أكثـر لدور رب أسرة مثالى أو زوج مـثـالـى ولكن ليس بحـال من الأحـوال زعـيم الشـعب أو قـيـصـر إمبـراطورية عظيـمـة، وكـمـا نرى فإن تأثيـر الكسندرا على زوجـهـا كان تأثيراً طاغياً.

وكانـت الكسندرا تشعر دائما أنهـا مدانة أمـام الشعب الروسى، فلقد أنجبت ولى عهد مريضاً عجز الأطباء على شفائه، فليس لديها سوى أن تصلى وتدعـو اللـه أن يصنـع مـعـجـزة لكى تريح ضـمـيـرهـا، بدأت قدرات راسبوتين الخارقة، تداعب آمالها.

وفى الخـريف أصيب القـيـصـر الصـغـيـر «Tsarivitch» الكيس بآلام مبرحة وتطور فى مرضـه خطير وكـالعادة عجـز الأطباء فكان لابد من الاسـتـعـانة براسـبـوتـين، وجلس أمـام اليكس ينظر إليـه طويـلاً بعمق، صامتاً، متأملاً، حتى أفاق الصغير. وزالت الآلام ولقد ذاع خبر المعجزة فى كل مكان.

واكتسب راسبوتين من الآن فصـاعـدا لقب صـانع المعـجـزات.وأصبح تردده على القصر أمراً طبيعياً.

ونظراً لأصل الكسندرا الألمانى، فـقـد أرادت أن تصـبـح روسـيـة أكـثـر من كل روسى، فهى مولعة بروسيا الحقيقية، حيث البسطاء المعذبين، البائسين الغارقين فى التقاليد العقيمة البالية حيث الليالى المفعمة بالأناشد الغابرة والخرافات أنه الشغف والحنين لرؤية روسيا تلك التى

ترقص على الجليد، أنها رؤية فولكلورية، شعبية، التى تهيم بها الكسندرا أنها ليست روسيا الصالونات المتأنقة، المتعجرفة، البراقة، المتعالية، من إذن أقدر من راسبوتين على التعبير عن تلك الرؤية؟.

إن هذا الفلاح الفظ، البسيط، الملتحي ذاالنظرة النفاذة، سيجعلها لن تتصالح فحسب مع الله ومع الكنيسة ولكن أيضاً مع شعب روسيا بأكمله.

" يصلي فى الصباح ويتردد على الكباريهات وبيوت الدعارة فى المساء "

ولقد شعر راسبوتين بمدى تأثيره على زوجة القيصر وانبهارها به، فقرر أن يحميها هى وزوجها من الأشرارالمتربصين بهما. إن راسبوتين يعشق ويبجل الملكة ومرة أخرى يحاول الوشاة الإيقاع براسبوتين عند عودته لقريته واستئنافه لعلاقاته الحسية مع الفلاحات، فهو يقع دائماً تحت وطأة شيطان الجسد.

ولكن قربه من العرش يجعل الإيقاع به صعباً وكل المقربين من القيصر يسعون لإغراقه بالهدايا والأموال لإرضائه.

وراسبوتين جعل التصالح ممكناً بين التطلعات الدينية والروحية والمتع الحسية، فأصبحت له نظرية ورؤية جديدة لتزاوج ثمار الأرض بأنوار السماء، فما أحلى الندم بعد ارتكاب الذنوب فيالها من سعادة، سعادة التوبة بعد الخطيئة التى كان رجال الكنيسة يلعنونها فى كل زمان ومكان. أما عن سمعة راسبوتين فلقد عرف عنه أنه يتمتع بقدرات خارقة فى مجال الرجولة والذكورة وأنه له قلب قديس هكذا قالت معجباته والسيدات اللاتى تمتعن بهباته. ما هو إذن المطلوب أكثر من هذا فى رجل دين؟ متحضر وهمجى فى آن واحد.

وبدأ القيصر يشعر بحيرة شديدة إزاء راسبوتين فبالرغم من انه لا يشارك زوجته ميولها الصوفية إلا أنه شديد التدين ويشعر بثقة كبيرة فى نبوءات راسبوتين التى تتحقق وفى قدراته الخفية فى تحقيق المعجزات مثل شفاء ولده. فلماذا إذن لا يستغل قدرات هذا الرجل الغامض فى أبعد وأخطر من ذلك، فى شئون الحكم على سبيل المثال.

ولكن القيصر يريد أن يتأكدمن صحة تقييمه للرجل. فلجأ نيكولاس الثانى إلى قائد حرسه وجنرال كبير فى الجيش لكى يقوما بتحريات عن راسبوتين، وتلقى القيصر تقريرهما وكان الرد أن راسبوتين رجل ماكر، خبيث، أفاق، مزيف يلطخ سمعة القيصر وزوجته وانه غير قادر على كبح جماح شهواته اللانهائية، فقام بإغتصاب العديد من الفلاحات ثم السيدات النبيلات ومن بينهن كونتيسة تقدمت بشكوى إلى زوجة القيصر من أن راسبوتين أغتصبها فى القطار. أيضاً تردده على الحمامات العامة مع فتيات مشبوهات، بالإضافة إلى مربية القيصر الصغير التى قدمت شكوى بأن راسبوتين هاجمها فى حجرتها وأنه أصبح يتردد على بنات القيصر وهن فى ملابس النوم. أما عن نتيجة كل تلك التقارير والشكاوى كانت بلا جدوى لقد رفض القيصر الإستماع لكل ذلك. وقررت زوجة القيصر الإستغناءعن مربية «اليكس» واتهمت السيدات المدعيات على راسبوتين أنهن فاسقات يردن التلطيخ والنيل من سمعة هذا الرجل.

وحتى إذا كانت صدرت منه بعض التجاوزات البسيطة، فهى دليل على أنه بشر يتمتع بالضعف الإنسانى، فهو إذن قريب من الناس الذين هم فى العادة ينقصهم الكمال فيشعر بهم.وهو يسمو من خلال معرفة الخطيئة و ليس من خلال جهله بالخطيئة.

إنه يخدم فى الظلمات كما يخدم فى النور.ولكن راسبوتين تفاديا لتلك العاصفة التى هبت عليه من كل مكان قرر الرحيل حتى تذبل العاصفة.

شيطان الجسد

وفى بوكروفسكوى تلقى رسالة من زوجة القيصر «سيدى وصديقى الذى لا أنساه، منقذى ومستشارى كم يؤلمنى غيابك، أن روحى لاتجد السكينة والسلام إلا بوجودك بجوارى لكى أقبل يديك وأضع رأسى على كتفك الطاهرة، ليس لدى سوى رغبة واحدة هى أن أنام إلى الأبد بين ذراعيك، أرجع سريعاً إنى أنتظرك وأتعذب بدونك. سوف أحبك

إلى الأبد»

ولقد استعمل راسبوتين تلك الرسائل فى التباهى واستعراض أثره على عائلة القيصر حتى أمام الأب ايليودور الذى كان فى البداية يسانده ولكن الأموراختلفت فإنه الآن يشعر تجاه راسبوتين بالكراهية والإشمئزاز خاصة وانه حل مكانه بجوار زوجة القيصر.

وبدأ يعتقد الأب ايليودور أن راسبوتين إما مبعوث من السماءأو مبعوث من الشيطان وفى الحالتين يجب التخلص منه، فقرر الأب ايليودور سرقة رسالة الكسندرا فربما يحين وقت لاستعمالها.

ولقد جاء الوقت بالفعل فبعد مضى فترة من الزمن حاول القساوسة من خلال الأب ايليودور تعليم راسبوتين لكى يصبح قساً ولكنه فشل فى حفظ الإنجيل، وكان حديثه مليئاً بالأخطاء ومن ثم اخفق فى أن يصبح قساً ولم ينجح سوى فى ارتداء ملابس قس وطبيب من اجل صورة فوتوغرافية للذكرى.

إعلان الحرب على راسبوتين

أما الحادثة التى جاء فى أثرها إعلان الحرب على راسبوتين من ايليودور وأيضاً من الكنيسة هى بخصوص الأديب العظيم «ليون تولستوى» الذى لعنته الكنيسة عام ١٩٠١ نظراً لهجومه العنيف عليها وبعد وفاة تولستوى عام١٩١٠ أصرت الكنيسة على إعلان رسمى ينبذ تولستوى الملعون المسيحى المزيف، فبعث الأب ايليودور إلى القيصر بهذا الطلب.

ولكن راسبوتين تدخل وأقنع القيصر برفض الطلب قائلا: انه مثلما انتقد تولستوى ولم يفهم انتقدوك أنت أيضا أيها القيصر.

أما ايليودور فلقد ثار ثورة عارمة ولم يمتثل لأوامر القيصر ووضع لوحة تولستوى فى دير لكى يحضر الناس للبصق على الصورة حتى تتلاشى تماماً صورة الأديب العظيم، والحقيقة أن راسبوتين لم يكن دفاعه عن تولستوى بدافع المعرفة والإطلاع على أدبه العظيم، فهو لا يقرأ ولا يكتب ولكنه كان يشعر بتشابه كبير بينه وبين تولستوى مبدع

«الحرب والسلام» فالاثنان لم يكونا بحاجة «للقساوسة» أو الوسطاء لكى يتقربا من الله.

وهكذا فمرة أخرى راسبوتين المضطهد المحاصر من أعدائه يستجيب لنصيحة أصدقائه فيقرر ترك العاصمة والقيام بالحج إلى القدس، فهناك سوف يتحرر من الرقابة لبعض الوقت وأيضاً سوف يخدم سمعته كرجل ورع، تقى لهؤلاء، لسكان روسيا الجاحدة العاقة.

بل على العكس فتلك الرحلة جعلته عند عودته إلى روسيا محاطاً بهالة ذهبية من الوهج والحب والتقدير، فكل شىء أصبح للأفضل منذ عودته من قبر المسيح، فأصبح القيصر يستشير راسبوتين ليس فى المسائل الدينية فحسب بل وأيضاً فى القضايا العامة وشئون السياسة والحكم، ولكن الأب ايليودور الذى لم يعد يحتمل تفوق راسبوتين هذا الفلاح الجاهل، الفظ عليه هو الرجل المؤمن المتمتع بالعلم والبلاغة، وجاءت الفرصة الذهبية فلقد أعلن ايليودور أن لديه دليلا قاطعاً لوجود علاقة حسية تربط بين راسبوتين هذا ابن إبليس وزوجة القيصر، أنها لم تعد تستغنى عنه لاكقس ولا كمستشار ولاكعشيق، أما هذا الدليل فهى تلك الرسالة التى سرقها من راسبوتين، أيضاً أنضم إلى ايليودور عدد كبير من رجال الكنيسة تحت قيادة الأب هيرموجين فى محاولة للإطاحة بابن الشيطان ذى الروح الملعونة الذى يدنس امرأة القيصر ويلطخ النظام الملكى كله فهم يريدون إما خصيه إو نفيه إلى سيبيريا.

أما بالنسبة لعلاقة هذا الرجل المغامر الغامض ذى الشخصية التراجيكوميدية، القادم من بقايا عصور الظلام الغابرة وبين امرأة القيصر أصبح المادة المفضلة والحديث المثير الشهى داخل صالونات العاصمة.

وأصبحت رسائلهما تتداول فى كل مكان مع إضافة أحياناً بعض التوابل، أيضاً أصبحت صورته مع معجباته ومن بينهم صورته مع إحدى الدوقات من بنات القيصر تباع بثمن باهظ. واستغلت تلك الفرصة صحف حزب أكتوبر والأحزاب المعارضة وأصبحت المسألة

قضية وطنية تهدد العرش وحكم الأباطرة إلى الأبد وتقود البلاد إلى كارثة محققة.

وبالرغم من تلك الاتهامات لايزال القيصر يصم أذنيه عن كل ذلك، بل انه اتهم بالتجسس لصالح الألمان.

وهكذا فبعد كل تلك الأزمات والفضائح وبعد الذهاب إلى القدس وبعد.. لم يتغير جريجوار راسبوتين، بل على العكس إزدادت رغبته في الاستمتاع بملذات الحياة والترنح بين الخمر والنساء ويبرر هذا السلوك بأن الله لا يدين رجلا جائعا يريد إشباع ذاته بأكل قطعة خبز فلماذا إذن سوف يدين الله من يريد إشباع احتياج طبيعي آخر وهو العلاقة بين الرجل والمرأة فلماذا إذن ما يباح مثلاً للمعدة لا يباح لأي جزء آخر من أجزاء الجسد ان الله متسامح وغفور. إنهم رجال الدين والقساوسة هم الذين يفسدون كل شيء.

وبكثير من المرارة استعد راسبوتين للرحيل إلى قريته القابعة في رحم سيبيريا ولكنه قرر أنه لن يعود إلى سان بطرسبورج إلا في حالة استدعائه كمنقذ. ومرة أخرى يهاجم المرض القيصر الصغير ولكن هذه المرة الموت يداعبه ولقد فشل الأطباء تماماً في علاجه وأصبحت والدته في حالة من الحزن والهستيرية البشعة، إن ولي العهد في خطر وبالتالي روسيا كلها ولم يتبق لها سوى أملها في قدرات راسبوتين، وبالفعل بعثت له تلغرافاً في قريته موضحة له خطورة حالة القيصر الصغير.

وفي الحال قام راسبوتين بالاختلاء في حجرة في منزله كما تقول أبنته ماريا في مذكراتها ولقد قال لها سوف تشاهدين الآن أغرب الطقوس.

فلقد ركع راسبوتين أمام الصورة المقدسة متضرعاً متوسلاً «أرجو شفاء ابنك اليكسي» اعطه قوتي وصحتي، لكي يشفي، وفي تلك الأثناء كان وجه جريجوار راسبوتين غارقاً في نشوة عارمة، يتصبب عرقاً.

يبدو وكأنه فريسة لقوى خارقة، وكأنه يحتضر فلقد تأكد راسبوتين من نجاة القيصر الصغير فمن خلال ما عاناه من تقلصات في

العضلات وانتفاضات فى كل جسده حرر اليكس من مرضه فهو الذى تحمل تلك الآلام بدلاً منه.

ولقد تعلم راسبوتين من «الشامان» «chamane» تلك الطقوس فهم قساوسة بدائيون عرافون وسحرة يزيلون آلام الناس الجسدية والروحية عن طريق التفكير فى المريض فهو نوع من «transfer» نقل الآلام عن طريق التخاطر، الشفافية أو مايسمى «telepathy» ولقد أضاف راسبوتين على هذا النوع من السحر «Exorcisme» أو المس تعاليم المسيحية فهؤلاء السحرة البدائيون تعلم منهم القدرات الروحية أكثر من رجال الكنيسة الذين يعلمون فقط الصيغة الرسمية للتقرب من الله. أما هؤلاء فلقد تعلم منهم كيفية اتصال القلوب عبر المسافات وأكتسب قدرة على كلية الحضور في كل مكان مع التزامن.

ولقد تلقت زوجة القيصر رسالة راسبوتين التى أعلن فيها شفاءاليكس ونجاته، وبالفعل تحققت المعجزة وشفى الصغير وسط ذهول الاطباء، ومن ثم فلقد جاءت الدعوة الملكية لرجوع راسبوتين منقذ التاج وصانع المعجزات إلى العاصمة. وبالفعل فلقد عاد راسبوتين إلى العاصمة أقوى وأقرب إلى القيصر وزوجته.

ازدياد نفوذه وأعدائه

ان نفوذه امتد إلى حد تعيين الوزراء وخلعهم وازداد أعداؤه حتى والدة القيصر أصبحت علي يقين أن كارثة تنتظر البلاد، وأصبحت فكرة القضاء على هذا الوحش الشيطاني واغتياله هي المهمة الكبري والمشروع القومي لكل الأوساط وفي هذا الجو المشحون بالمؤامرات بدأت تتكون جمعيات هدفها هو التخلص من هذا الغول «الستارتيز» المزيف، داعر الامبراطورية أما أكثر الناس تحمساًلهذا الهدف هي كونيا جوسيقا كانت في الماضي فتاة بارعة الجمال، ذكية وفاضلة ولكن بنوع من الإحتقار لجمال الجسد صلت داعية لله أن يخلصها ويحرمها من هذا الجمال وإستجاب الله لها وأصبحت مشوهة وأصبحت فكرة قتل راسبوتين لا تفارقها.

ولقد بدأت بشائر وسحب الحرب مرة أخرى تظهر فى الأفق المثقلة بالغيوم.

فصربيا تتبع روسيا وهى من المفروض أن تكون تحت حمايتها ولقد ضمت النمسا والمانيا البوسنة وروسيا متحالفة مع فرنسا وأطماع النمسا تزداد تجاه الصرب والقيصر يريد أن يعوض ويمحو هزيمته مع اليابان. ولكن راسبوتين كفلاح بسيط يمقت الحرب وأى تهديد للحدود. فالحرب أيا كانت أهدافها هى كارثة للبسطاء فهى تسلب الريف شبابه، تسحق المحاصيل، تحصد فى كل مكان الموت والخراب وتحول أرض الله إلى بركة من الدماء، توئد الآمال فالحرب هى تراجيديا دامية من جميع النواحى، لقد ظل راسبوتين يتنقل من منزل إلى أخر حتى استقر أخيراً فى شقة مع ابنته ماريا حيث هناك حراسة للمنزل ليل نهار. لقد اتسعت من الآن فصاعداً دائرة معارف راسبوتين، هناك معجبات أصبحن فى حالة هيستيريا وعشق ومطاردة له، أيضاً رجال صرافة وأعمال أصبحوا يغدقون عليه الهدايا والأموال وهو يقبل كل شىء حتى الهدايا البسيطة جداً، فهو لا يحب إغضاب أحد. أيضاً رجال السياسة والمسئولون وحتى الذين كانوا يهزأون به ويعتبرونه مجرد سيبيرى أحمق وطائش أصبحوا يأخذونه مأخذ الجد، فهو يعتبر الطريق الوحيد للوصول إلى رضاء القيصر وزوجته، ولم يعد لراسبوتين دقيقة فراغ واحدة.

وبعد مضى بعض الوقت على تلك الحياة الصاخبة مل راسبوتين العاصمة وشعر باحتياجه لهدوء وعذوبة الريف فسافر مع ابنته إلى القرية. وفى ذات يوم وهو يخرج من مكتب البريد قابلته تلك المرأة البشعة وطلبت منه «حسنة» وأثناء بحثه عن بعض النقود طعنته فى بطنه بسيف بعنف شديد وهى تصرخ «لقد قتلت ابن الشيطان، لقد قتلت المسيخ الدجال، اتركونى». رقد راسبوتين فى بركة من الدماء ولكنه نقل إلى المستشفى حيث استطاع نظراً لقوة بنيته ومقاومته الشديدة أن يجتاز الأزمة.

وفى هذا الوقت وأثناء وجود راسبوتين فى المستشفى عام ١٩١٤ فى

سراييفو قام طالب بوسنى بقتل ولى عهد النمسا ومن ثم فلقد عجلت تلك الحادثة ببداية الحرب بين روسيا وحليفتها فرنسا وصربيا التابعة لهما وبين المانيا والنمسا.

ولقد حزن راسبوتين حزناً كبيراً وبعث للقيصر يقول: إن تلك الحرب ليست إلا بحراً من الدماء والدموع، أنها سوف تكون نهاية روسيا ونهاية الأباطرة، إنها ليست سوى مجازر ومذابح وأيام سوداء لن تنتهى ولكن لا جدوى فالكل يريد الحرب حتى الشعب لأول مرة تصالح وتحالف مع القيصر والنبلاء وحتى المعارضة. شخص واحد فقط لاجىءفى سويسرا كان يتمنى هزيمة روسيا عن إنتصار الأباطرة وهو فلاديمير ايليتشى أوليانوف المسمى لينين ولكن ما فائدة هذا الرجل وسط كل هذا الحماس الملتهب لكن الحقيقة هى أن الجيش الروسى يفتقد التدريب وأساليب الحرب الحديثة بل وأيضاً يعانى من نقص الأسلحة. ولكن الناس ترفض قبول تلك الآراء المتشائمة فهم يعتقدون أن الجيش الروسى لا يقهر. أما بعد مرور الزمن وزوال الآمال الخادعة، الزائفة فلقد أسفرت تلك الحرب المشئومة عن ١٣ مليون جندى جريح، ٢ مليون قتيل، و٤ ملايين ونصف معوق ومشوه ومخلفات فى الشوارع وبرد قاس ونقص فى التدفئة ومجتمع متحلل مسكون بشبح العذاب والفقر واليتم، بلاد غارقة فى النار والدماء.

وبينما الأمور تسير من سيىء الى أسوأ يمضى راسبوتين فى حياته الغارقة فى الفجور والعربدة والفسق والمجون، لقد أصبح يستقبل فى منزله كل يوم٤٠٠ زائر حتى وصلت الطوابير إلى نهاية الشارع الذى يسكنه، فهناك من يريد خدمة لدى المسئولين وهناك من يطمع فى بعض المساعدات المالية وهناك نساء يأتين طمعاً فى راسبوتين فى مجال الفحولة وعنفوان الرجولة الفياضة وهو فى كل الأحوال لا يرد سائلاً أو طالباً فهو لا يحرج أحداً!

وكلما شعر راسبوتين بالتحلل والتفكك وانهيار القيم من حوله زاد فى الانغماس فى إشباع شهواته الجامحة وبوهيميته وبسقوطه الدائم فى براثن الغواية وظن أن كل شىء مباح حتى وصل إلى حد فى

العربدة جعله يحتسى ٦ لترات نبيذ فى الوجبة دون أن يفقد الوعى بل ويعود الى منزله فى الفجر بعد الليالى الماجنة وكأن شيئاً لم يكن يحتسى الشاى ثم يبدأ فى استقبال الزوار لعلاجهم والنظر فى حوائجهم وهو يعتقد أن هذا الزمن هو زمن الإفراط والمبالغة فى كل شيء.

وفى تلك الأثناء لم تتوقف معجزات ونبوءات راسبوتين وكلما ازدادت ثقته بنفسه زاد ابتذاله، أنه لم يعد بحاجة إلى الكنيسة لكى يقترب من الله فالله راض عنه.

هكذا ضاعف راسبوتين من انغماسه فى المتع بشكل أسرع وكأنه يعيش حياة مزدوجة فهو فى الصباح يتصل بالسماء وفى المساء يتردد على المطاعم والكباريهات وبيوت الدعارة حيث يضيء ويشتعل المال فى سان بطرسبورج بصحبة النساء من جميع الطبقات غانية، خياطة، أميرة، غجرية، فهو لا يترك أحداً، ويغرق فى الرقص المبتذل على موسيقى الغجر التى يعشقها لأنها تعانق وتتناسب مع انفلاته وبهيميته الوقحة، ولم يكن يكترث عندما ينفق المال ببذخ فالله لن يخذله وسوف يجنبه دائماً الحاجة وهو يكرر نعم الشيطان يغريه ولكن بالتأكيد الله يباركه.

ولقد اتهموه بالسيكوباتية الجنسية وراسبوتين يردد دائماً أن تكون روسياً فهذا يعنى أن تحمل فى طيات نفسك الأبيض والأسود، فهو يعتقد أنه رمز لروسيا بكل عيوبها ومزاياها والأرض لا تحب من يتجاهل مباهجها. وبالرغم من كل تلك الفضائح الا أنه أصبح الآن ليس المستشار الدينى فحسب ولكن أيضاً المستشار السياسى والحربى لدى القيصر لقد سلب الفلاح الجاهل السلطة من القيصر.

وبناءعلى هذا تقدم الوزراء والمسئولون باستقالة جماعية للضغط على القيصر ولكن ما جدوى كل ذلك ووراء القيصر زوجة مشتعلة الحماس، مؤثرة لا يستطيع إغضابها.

أما راسبوتين فهو لا يكف عن سب الحرب فهى لعنة البسطاء وهى لا تمنع الجنرالات من الأكل والنوم ومن يدفع الثمن هم الفلاحون البسطاء، الضحايا. إن انتقام الرب سوف يكون بشعاً هكذا يؤكد

فراسبوتين وهو يختم سهرة من سهراته وهو يشعر بالراحة النفسية سواء فى دور النبى الواعظ أو دورالماجن، الفاسق ويعود لبلدته عندما يكون قد اغترف من المتع ما يزيدعن حاجته.

ان الشعب الآن بكل طبقاته ثائر ثورة عارمة والجميع يعتقدون أنه لو لم يكن هناك علاقة جسدية بين راسبوتين وزوجة القيصر فإن فى جميع الأحوال قد امتلك روحها فإنها كما يقولون «ملبوسة» وكلما استغرق هو فى الزنا والفساد قدسته أكثر تلك المرأة و قالت انه ملاكها الحارس، فتلك المرأة المهووسة التى تضحى بروسيا هى وزوجها وهذا الفلاح الأمى الغليظ يدفعون البلاد إلى ثورة محققة، لقد بدأ الحزب البولشوفى فى رسم كاريكاتيريتناول رسومات مخلة لزوجة القيصر مع راسبوتين عشيقها، الذى تردد ايضا انه جاسوس يعمل لصالح المانيا.

ولكن فى خضم كل هذا وبالرغم من كل الإستهتار والمجون إلا أن راسبوتين يشعر انه يحفر قبره وقبر من يحبهم ويحرسهم بيده ولكنه لا يستطيع العودة إلى الوراء أو التقهقهر لقدبدأ يشك فى كل من حوله، أنهم يخططون لإغتياله ويقول «لقد طردت الموت مرة ولكنه سيعود ويلتصق بى مثل مومس أو غانيه».

توجد فى قصر القيصر لوحات تصور مارى أنطوانيت وأولادها، تلك اللوحة تؤرق الكسندرا وتسأل «هل يمكن أن تعانى هى نفس مصير الملكة المسكينة ولكن لا فمارى أنطوانيت لم يكن لديها مستشار وحارس مخلص قريب من الله مثل راسبوتين الذى سوف يحميها من العواصف السياسية ومن ويلات الحرب».

رائحة الموت!

ان السخط الهائل الذى شعر به كل طبقات الشعب كان من الواجب أن يدفع راسبوتين للإعتدال والحذر ولكن يبدو انه أعتقد أن بتحوله لتلك الشخصية المكروهة سوف تزداد شهرته ويصبح أسطورة خالدة بعد أن كان مجرد فلاح بين ملايين الفلاحين، بعد أن كان هذا اللص

الصغير فى الزمن الغابر وأنه الآن ممكن أن يحل محل رئيس الوزراء.. ان الحياة مكتظة بالمفاجآت لمن يحبهم الله!

وكلما ازداد الكلام عنه سواء كان بالخير أو بالشر اقترب من الأسطورة الأبدية ليس فقط الألمان المنتفعون بوجود راسبوتين بجوار القيصر الضعيف، السلبى ولكن أيضاً لينين الكامن فى سويسرا، فهو أفضل حليف له فى مقاومة عائلة الرومانوف والقضاء على هذا المجتمع العفن، فلينين يتمنى أن يسحق الجيش الروسى لكى تقوم ثورة البروليتاريه أما زوجة القيصر المتسلطة فهى لاتكف عن مطالبة زوجها لكى يصبح مثل «بيتر العظيم» و«ايفان الرهيب»..

أن راسبوتين بدأ يتنفس من حوله رائحة الموت بالرغم من كل المظاهر، فالنبيذ فى فمه له رائحة الرماد وشفاه الغانيات والغجريات هى شفاه لمصاصات الدماء.

ويقول راسبوتين نبوءته المدهشة: «إننى أشعر أنى سوف أغادر الحياة قبل ١ يناير، لو قتلت عن طريق أخوتى الفلاحين الروس فلاتخش شيئا أيها القيصر ولا أنت ولا أولادك، سوف يحكمون قروناً، أما إذا قتلت بأيدى النبلاء فسوف تظل أيديهم ملطخة بدمائى وسوف يغادرون روسيا وبعد سنتين سوف يقتل أبناؤك بأيدى الشعب الروسى والجميع سوف يتقاتلون».

ولكن بالرغم من تلك النبوءة ونذيرالسقوط فى هاوية كئيبة إلا انه بنوع من الكبرياء والغرور القاتم التراجيدى مثل أبطال الإغريق ظل راسبوتين ماضياً إلى نهايته المأساوية المفجعة دون محاولة تفاديها..

الضربة القاضية

وهنا نصل إلى «الضربة القاضية» حيث يظهر الأمير فيليكس يوسوبوف وهو فى التاسعة والعشرين من عمره، ينتمى إلى أكثر العائلات نبلا وثراء حظى بطفولة مدللة لدرجة جعلت منه شخصا غامضا متقلباً، مرهفاً، مندفعاً، منجذباً إلى كل ما هو منحرف وشاذ وغريب ويحمل فى أعماقه عبق الموت، فهو مولع بالفن الغريب القاتم

الفارق فى كآبة غامرة وهو شاب ممشوق ذو نظرة ناعسة خاملة وسيم رقيق ونرجسى، أما انحرافه فكان دائماً مغلفاً ومتلحفا بغلالة من اللياقة والتقاليد بعكس راسبوتين الذى كان انحلاله فجا كله قحة وفجور وغلاظة.

كان الأمير يوسوبوف يمقت ويزدرى راسبوتين الذى لطخ ثوب الملكية الناصع. وبدأت فكرة اغتيال راسبوتين تغازل يوسوبوف بل وتسيطرعليه.

أنه نوع من الإغتيال الوطنى وهو يتمتع بفكرة التناقض بين صورة المولع بالفنون والجمال المتنكر فى ثياب قاتل وسفاح.

بدأ ينفذ الأمير خطته بالتقرب من راسبوتين ولقد شعر راسبوتين بزهو وإرضاء لغروره ان يتقرب إليه شاب أرستقراطى، مثقف وله زوجة هى الفتنة والجمال. وبالفعل تمت وضع خطة للجريمة التى سوف تنقذ روسيا من هذا الوحش الدنس وأتفق أربعة نبلاء مع يوسويوف فهم يغامرون بسمعتهم وحريتهم فى سبيل مصلحة الوطن. واستقروا على إستدراج راسبوتين إلى قصر الأمير عن طريق إغرائه لمقابلة زوجة الأمير واستقر الرأى على استعمال السم لأن صوت الرصاص يشكل خطورة فالقصر يقع أمام قسم البوليس.

ولكن لا شىء يقف من الآن فصاعدا فى طريق تلك الخطة، وبالفعل حضر راسبوتين إلى القصر بالرغم من تحذير بناته من الأمير، حضر الى القبو ذى الجدران الحمراء الخشبية والمدفأة المصنوعة من المرمر، وقدم له الأمير الحلوى «الجاتوه» المكتظة بسم السيانور وأيضاً النبيذ الممزوج بالسم.

ولكن بالرغم من كل الاشمئزاز والكره الذى يشعر به يوسوبوف نحو راسبوتين إلا أن حضور راسبوتين إلى منزله جعله يشعر بتأنيب الضمير والشفقة، فالرجل فى داره وهذا يتعارض مع كرم الضيافة كيف دبر تلك الجريمة المفعمة بالخسة والجبن والنذالة يا ليت كانت خطة الاغتيال فى مكان آخر ولكنه لا يستطيع الآن أن يتراجع!

والمؤسف أن راسبوتين يثق فيه ثقة مطلقة. ولقد أكل راسبوتين الجاتوه المسموم وشرب النبيذ المسموم وهو مستمتع وينظر إليه الأمير

يوسوبوف فى ذهول، انه لا يتأثر بالسم هذا الدب الذى لا يقهر، هذا الرجل القوى الفارع إن هذا السم وتلك الكمية من المفروض أن تقتله قبل أن تصل الى جوفه.

ولكن المدهش أن راسبوتين يعلن عن رغبته فى المزيد من الجاتوه والنبيذ المسموم ويبتلعه ويبدوراضياً، هانئا منتشياً، بل ويقترح أن ينهى السهرة عند الغجريات فهو يشعر ببعض الانزعاج فى معدته. ويصعد الأمير يوسوبوف إلى بقية المتآمرين معلنا هلعه وارتباكه فالسم لا مفعول له فى جسد هذا الرجل ذى المقاومة الغريبة المريبة، ويقرر أنه لا مفر من استعمال المسدس.

ويهبط الأمير مرة أخرى إلى القبو ويقول: «جريجوار من الأفضل أن تنظر إلى الصليب وتصلى»!! وبسماع هذه الكلمات يعلو وجه راسبوتين تعبير ينم عن الرقة وتقبل المصير وتنطلق الرصاصة لتصيب قلب راسبوتين..

انطلقت صرخة متوحشة شطرت الصمت وسقط راسبوتين مترنحاً فاقداً الحياة. وارتاح المتآمرون فلقد انتهت المهمة.

وبعد مرور بضع ساعات أراد يوسوبوف إلقاء نظرة أخيرة على جثة راسبوتين قبل إلقائها فى النهر المجمد فهبط إلى القبو وكشف نبضه بنفور شديد فوجده جثة هامدة ولكن عند مغادرته القبو لفت نظرة رعشة تعلو وجه راسبوتين ثم وجده يفتح عينيه وهما تشعان ببريق فسفورى فوقف وصوته يختنق داخل حنجرته قائلاً: سوف أقول كل شىء لزوجة القيصر ثم هجم على الأمير محاولاً خنقه والأمير يقاوم رجلا أقوى من الموت، شيطان ربما وينجح يوسوبوف فى الهروب من قبضة يد راسبوتين.. ويذهب لطلب النجدة من زملائه ويحاول فى هذه الأثناء راسبوتين الخروج من القصر ولكن زميل الأمير يطلق على راسبوتين عدة رصاصات بينما هاجس دينى وإختلاط مشاعر تراودهم، ربما كان هذا الرجل بالفعل رجل دين، ما هو الصح وما هو الخطأ؟

ولكن كراهية راسبوتين تغلبت عليهم ولايكتفون بالرصاص. بل يستعمل الأمير يوسوبوف آلة حادة ويضرب راسبوتين فى أماكن

متفرقة وحساسة فى جسده إلى أن سالت عينه على وجهه حتى أصبحت الجثة مشوهة تماماً. ثم ألقيت فى النهر المجمد.

بعد تلك المجزرة شعر يوسوبوف بأنه بطل قومى، فلقد ابتهج رجال الكنيسة والصحف.

قيل: إن الكلب يجب أن يموت ميتة كلب.

ولكن الموت لا يكفى سوف يخلد راسبوتين إلى الصمت

أما القيصر فهو ثائر ليس بسبب موت راسبوتين ولكن لأن أفراد العائلة المالكة أصبحت أيديهم ملطخة بالدماء فللأسف هم القتلة.

أما البسطاء من الشعب فلقد حزنوا لأن النبلاء قتلوا الفلاح الوحيد الذى أقترب من العرش. إنها مؤامرة لمنع القيصر من سماع أنين الفقراء، الذين أمضوا حياتهم فى الإنحناء والبؤس. لا يهم عربدة وبوهيمية راسبوتين لقد كان منهم.

والمؤسف حقاً هو ان القتلة نالوا بالفعل عفو القيصر نظراً لإنتمائهم إلى العائلة المالكة. إذن القيصر ليس أباً لتلك الأمة ولكنه فقط المحامى والراعى للطبقة الحاكمة فهناك عدالة للبسطاء وعدالة أخرى للنبلاء. إن وفاة راسبوتين هى نذير شؤم للنظام الملكى: تلك الكلمات يتناقلها الناس فى كل مكان.

أما الأمير يوسوبوف فلقد كتب مذكراته، ولقد استطاع الهرب من روسيا عندما قامت الثورة البولشوفية وتوفى عام ١٩٦٧.

وهكذا لقد قامت الثورة بقيادة لينين الذى أمر باغتيال القيصر وزوجته وأطفاله فى مجزرة وحشية.

وبالفعل قد تحققت نبوءة راسبوتين والرومانوف قتلوا بعد رحيله بعام ونصف، وهكذا فبينما ظن راسبوتين أنه يحميهم كان يساعد لينين على إشعال ونجاح ثورته.. انه مثل الدب الذى قتل صاحبه.

بين لينين وراسبوتين

وأخيراً نصل للخاتمة ونعقد المقارنة بين لينين وراسبوتين. هناك رباط غامض يجمع بين هذين الرجلين بالرغم من أن كل المظاهر

تجعلهم متناقضين ولكن فى الحقيقة يجمعهم التعصب والتطرف.
لينين رجل من جليد، يحسب كل شىء تسيطر عليه النظريات العلمية، لديه فكرة متسلطة، يفتقد كل شعور إنسانى وآدمى.
أما راسبوتين فهو رجل مسكون بالمتعة وبالمجون، مقتنع أن الله يفهمه ويلهمه.
لينين يعتمد على كارل ماركس وراسبوتين يعتمد على الإنجيل.
هما يقعان تحت وطأة الطموح اللانهائى.
الأول لديه منطق ثابت والثانى يهيم فى ورع وخشوع تدين بدائى ويغرق فى ملذات الدنيا.
طوال الحرب لينين يتمتع بهزيمة روسيا ويتمنى إنتصار المانيا لأن هذا يعنى سقوط النظام الملكى وكلما تعذبت روسيا وفقدت الملايين من أبنائها إرتفعت الثورة على تلك الأشلاء الدامية. فلا يهم سلامة الوطن ولكن الذى يهم الإستيلاء على السلطة بأى ثمن.
وعلى العكس فراسبوتين منذ البداية يرفض وينفر من الحرب ويتمنى إنتصار الجيش الروسى.
ولكن الاثنين كانا يحلمان بهناء الشعب، الاثنين يتحدثان باسم الشعب. راسبوتين اعتبر نفسه محامى البسطاء عند القيصر. ولينين يحلم بالقضاء على القيصر وإلغاء الملكية ويحلم بتحقيق ديكتاتورية العمال والفلاحين فى كل المجالات.
راسبوتين يحلم بروسيا متدينة، تقليدية، متصوفة. لينين يحلم بروسيا جديدة تحكم عن طريق المقهورين بالأمس، يحلم بروسيا الكافرة الملحدة.
راسبوتين يشعر بأنه روسى حتى النخاع أما لينين فهو يريد أن يصبح عالمياً ويأمل فى أن تجتاح وتبتلع الثورة أوروبا.
راسبوتين لا يدين حكم المال، أما لينين فهو يتقيأ الرأسمالية.
راسبوتين يرى أن الماضى نموذج يجب أن يحتذى به ولكن مع إصلاحه بالعدالة والتدين الورع والوداعة والرحمة وحب الآخرين.
بالنسبة للينين يجب سحق ودك كل المؤسسات البالية والعتيقة وبناء

عالم جديد بناس جدد، متجردين من المفاهيم الطبقية والثروة والدين.

إنهما لم يتقابلا أبداً ولم يناقشا مبادئهما، فراسبوتين فلاح «Muygik» بسيط، أمى والآخر مفكر ثائر متمرد.

ترى هل أيقنا مدى تشابه وتقارب اقدارهما. فالبرغم من تناقضهما إلا ان كلا بطريقته دمر الاستبداد وحكم الفرد.

راسبوتين دمره بقربه المدمر من القيصر وزوجته وبفضائحهم.

لينين دمره من خلال عمله على دك وسحق وهدم كل شىء واعداً بالسعادة والرخاء والسلام، بشرط القضاء على الأباطرة المسئولين عن كل آلام الأرض.

فهكذا ورداً على دماء راسبوتين التى لطخت وسالت فى قبو قصر الأمير يوسوبوف سالت أيضاً دماء الرومانوف على حائط آخر فى قبو آخر فى مكان آخر.

وبعد قرون من النظام الملكى كان يجب على الشعب الروسى أن يبحث عن أسياد آخرين جدد ليخدموهم ويؤلهوهم وينحنوا لهم.

إنهم لينين وستالين وخروشوف وبريجينيف لقد نشروا عقيدة ضرورة دكتاتورية البروليتاريا بالدم والحديد والنار.

ولكن راسبوتين بالرغم من مشاركته الجوهرية التى أدت إلى سقوط الأمبراطورية إلى هاوية العدم الأبدى، إلا انه لم ولن يحظى سوى باحتقار الثوريين الذين دون أن يدرى خدم أهدافهم.

وبعد الوصول إلى خاتمة تلك السيرة وبعد مرور الزمن ومرور عشرات السنوات على ثورة لينين.

أعتقد أن كلا من راسبوتين ولينين قاما بالقضاء على روسيا، كل بطريقته، فراسبوتين قضى على إمبراطورية عظمى ولينين قضى على مشروع دولة عظمى فى إشراقاتها الأولى، كان نصف سكان الأرض يستند على كتفيها وكانت تحقق بوجودها كقطب أعظم توازناً ضرورياً للنظام العالمى.

وكما رأينا من خلال الاحداث تلك أنه من النادر بل الفريد أن يعبر فرد عن غموض وسر الشخصية الروسية بكل ما فيها من تناقضات

وإفراط فى كل شىء مثلما عبر عنها راسبويتن فكان بمثابة رمز أو مفتاح لفهم روسيا حيث أن روحها كانت منقوشة ومحفورة بداخله.

فروسيا ذات الشخصية المزدوجة والطبيعة المركبة المتأرجحة بين الأبيض والأسود، بين الخشوع والتدين ثم المجون والمادة.

جاء لينين بثورة أكتوبر الحمراء فبترها وشطرها شطرين فأصبحت تحيا بنصف واحد يعتمد على المادة. فلقد سحق لينين الدين والتمسك بالغيب وهدم شاطىء الإيمان والقيم الروحية التى كانت السند والمرفأ لهذا الشعب. فأصبحت روسيا جسداً بلا روح.

وأصبح نصف الشعب من الأباطرة فغرق الشعب الروسى فى البطالة والبؤس والفودكا والصقيع واليأس والجوع وجحيم الجليد والبكاء على أطلال عظمة غابرة.

وانهارت وسقطت وتفككت وتبعثرت الدولة العظمى الشامخة المهيبة وذاب الفرد وانصهر بأحلامه وحماسة وآماله فى التميزفى ظل مجموع مجهول وسط القطيع المقاد من قبل الأباطرة الجدد.

وعانى الشعب من وهن وقهر وإنكسار الروح، فاجأته الهزيمة دائماً وأبداً من الداخل.

وأصبحت روسيا هى الدولة الوحيدة فى العالم التى احتفظت بقوتها العسكرية ولكنها هزمت اقتصاديا وروحيا.

فالقوة العسكرية تصنع بالأمر، أما الإزدهار الإقتصادى فهو عزيمة وإرادة فرد يريد أن يسطع ويتوهج ويتميز.

وأصبحت أعظم دولة تتلقى المعونات من الدول الأخرى الكبرى عملاً بـ«ارحموا عزيز قوم ذل».

وهكذا فلقد تحققت نبوءة راسبوتين مرتين، مرة بقيام الثورة الدامية التى سحقت إمبراطورية عظمى ومرة أخرى بانهيار الدولة العظمى.

وأصبحت روسيا وطناً يحمل فى طياته أفدح وأفجع أنواع التراجيديا التى عرفها التاريخ عبر الزمان.

الفصل

5

عاهرة الجمهورية!

- كريستين دوفييه جـونكور صاحبة أشهر فضيحة سياسية فى فرنسا.
- محجوب عبدالدايم فى فرنسا!
- عشيقة معالى الوزير.
- صفقة مع الشيطان!

كانت مثل شمس آخر النهار التى يلتهمها البحر.. فتذوب فيه بنورها ونارها.. وتفنى فى أعماقه راضية.. فهى امرأة عاشقة لكن..هذا العشق كان مثل نقش على سحاب.. مثل نحت على جليد.. مثل لوحة بديعة ولكن من وهم..من سراب.. لتؤكد أن حرية المرأة وآدميتها وإرادتها هى أكذوبة بكل لغات الأرض.إن أسواق النخاسة مازالت تتناسل.. تتكاثر.. هناك تباع المرأة وتشترى وكأنها قطعة لحم.. ولبيمة.. ذبيحة تنحر.. أو ثمرة تقطف.. وأقبية الحريم مازالت فاغرة أفواهها.. تبتلع السحر والأنوثة بلا توقف ففى روسيا ١٦ ألف امرأة يقتلن كل عام بيد أزواجهن.. وفى الولايات المتحدة الأمريكية أعلى نسبة نساء يتعرضن للضرب..وفى تايلاند والمكسيك أعلى نسبة دعارة.. بأرخص الأسعار.. سعر المرأة أرخص من سعر فرشة الأسنان.. وفى الإسكيمو كرم الضيافة أن يقدم الرجل زوجته مع قائمة الطعام.. أما فى مصر فالمرأة عادة ما تعامل معاملة المتاع والميراث.. ولاتجد فى بعض الأحيان مفرا للخلاص سوى على طريقة تعبئة الأزواج فى أكياس بلاستيكية سوداء..

هذه المقدمة ضرورة قبل تقديم مأساة «كريستين دوفييه جونكور» التى انفجرت فى فرنسا وتناثرت شظاياها فى أربع أنحاء العالم..إنها المرأة التى وصفت بأنها «عاهرة الجمهورية» وهو أيضا عنوان كتابها الذى لفت الأنظار والذى روت فيه سيرة ذاتية لامرأة اقتحمت مملكة الرجال حيث المال والسياسة والسلطة والمؤامرات والأضواء الفاضحة.

لقد قيل عنها إنها فاجرة.. مختلسة..مزورة.. عشيقة معالى الوزير..

وقيل عنها إنها تجر الخراب والدمار فى عطرها..وان اللعنة كامنة فى عتمة ثوبها الأبنوسى.. مع أن الذين أطلقوا عليها هذه الأوصاف هم الذين دفعوها إلى هذا المصير.. فهم لا يترددون فى مصادرته وتأميمه. وحكاية «كريستين جونكور» هى حكاية أزلية.. حكاية المرأة التى تسقط تحت وطأة سحر الترنيمة الأبدية.. المتعة والثروة والسلطة. ثم ما إن ينكشف أمرها حتى يهاجمها الذين دفعوها الى السقوط.. وينضم إليهم الفاشلون والفاشيون.

إن حكايتها هى حكاية قديمة.. جديدة..وقعت بالأمس.. وستقع غداً.. وحكايتها وقعت مثلها فى مصر.. فهى حكاية التسلق على غرائز الرجال..هى حكاية إيفيتا أو إيفا بيرون فى الأرجنتين..وحكاية كلاريتا بيتاشى.. عشيقة موسولينى.. فى إيطاليا..وهى حكاية مونيكا كلينتون من الولايات المتحدة..هى حكاية غانية دخلت التاريخ من باب السياسة السرى.. وعلى الرغم من أن هناك طرفاً آخر شريكاً فيما حدث هو الرجل السياسى المسئول والكبير فإن المرأة هى وحدها التى تدفع ثمن الفضيحة.. فالكائنات الضعيفة-مثل اللصوص الصغار والفقراء والنساء المغتصبات- هم المذنبون دائماً.

كان زوج «كريستين» الأول هو جان جاك بيرتيه الذى أصبح عمدة ثم نائبا ثم وزيرا.. وقد رزقت منه بولد.. وعانت من أنانيته وطموحه السياسى فكان لابد من الطلاق.. وكان الزوج الثانى رجل أعمال.. استخدمها فى تمرير صفقاته..وتراكم ثرواته.. وأنجبت منه ولدا أيضا ولكن رغم كل الثراء الذى يحظى به الزوج عانت كريستين من بخله وغلظته وضياع نخوته.. انه ليس سوى نسخة مكررة من محجوب عبدالدايم الانتهازى الوضيع العفن فى رواية نجيب محفوظ «القاهرة الجديدة» أو «القاهرة ٣٠» فكان الطلاق.

وعند بلوغها الأربعين -أى فى ذروة العطاء والأنوثة- حيث المستحيل وقع الانقلاب فى حياتها.. حياة هذه المرأة الحالمة التى جاءت من جوف الريف لتصبح شخصية طاغية التأثير خاصة على كبارالمسئولين والسياسيين.. حتى أصبحت توصف بأنها أخطر إمراة فى فرنسا.. فى

ذلك الوقت أصبحت عشيقة وزير الخارجية رولان دوماس الذى كان من ألمع رجال الرئيس فرانسوا ميتران.. لقد بدأت علاقتها به عندما كانت مسئولة عن العلاقات العامة فى شركة «ألف أكيتين» أكبر شركة بترول فى فرنسا .وكان عليها أن تكون همزة الوصل بين الشركة ووزارة الخارجية فنشأت صداقة بينها وبين الوزير.. ثم وجدت من رؤسائها فى الشركة تشجيعاً لهذه الصداقة كى تستفيد الشركة وتحقق المزيد من الأرباح ولكن.. ما إن وقعت الواقعة وكشفت الفضيحة حتى تنكرت الشركة لها وأنكرت حتى أنها تعرفها .. وهو ما جعلها تتهم بانتحال وظيفة وهمية وتتهم بالاختلاس والتورط فى صفقات سلاح مشبوهة واستغلال النفوذ والفساد السافر وكلها قضايا أمن دولة.

فى يوم وليلة عرفت مرارة الفضيحة.. وتوقف عطرها عن الانتشار.. ووجدت نفسها فى حريق لا ينتهى مثل حريق الغابات..ودخلت السجن وبقيت فيه خمسة أشهر.. وهى تنتظر على ذمة المحاكمة.. على أنها لا تنسى أنها عرفت الحب مع رجل فى عمر أبيها هو رولان دوماس واكتشفت معه ألف وجه للحياة وألف وجه للقمر.

إنها قصة مثيرة تستحق أن تقرأ .وهى التى اختارت بنفسها عنوانها «عاهرة الجمهورية» رغم استنكار عائلتها.. وقد بدأت القصة فى خريف عام ١٩٩٧ عندما كان الصراع السياسى على السلطة فى فرنسا قد بلغ أشده.. وكانت «كريستين دوفييه جونكور» التى تروى قصتها بكل الحرية.. والجرأة والصراحة.. وهى تقول إن هذا الكتاب هو محاولة منها لكشف الحقيقة للرأى العام الذى ظلمها ورجمها وحاكمها قبل أن تدخل باب المحكمة.. ثم تواصل الرواية على لسانها.

«أصوات أبواب حديدية تغلق.. أغوص فى جوف ممرات متتالية.. مختنقة.. كل شىء قذر.. بارد.. أسمنتى.. هم يفتحون زنزانة حبس انفرادية..فيها «دكة» خشبية وأعقاب سجائر مسحوقة.. هنا يلتحف المكان برائحة الشقاء..إنها سادس زنزانة ادخلها منذ ٤٨ ساعة.

أمس الأول اقتحموا فى الفجر شقتى أربعة رجال وامرأة من مباحث الأموال العامة.ولمدة أربع ساعات قاموا بعملية تفتيش دقيقة.. وراجعوا

حساباتى فى البنوك.. وراجعوا فواتيرى ودولاب ثيابى الداخلية.. ووضعوا الشمع الأحمر على كل شىء.. وكل شىء جرى وسط استغراق أولادى فى صمت كئيب.. وكانت هناك امرأة ترتدى الزى الرسمى تراقبنى بحرص وتحفز وأنا أرتدى ملابسى.. وفى ثوان ابتلعوا بطاقتى الشخصية..لايهم فهويتى الوحيدة هى أن أكون بين ابنائى.. وابتلعوا أيضاً مهنتى..فعملى فى شركة «ألف أكيتين» لمدة أربع سنوات كان فى رأيهم عملاً وهمياً.

صحفى من جريدة «لوموند» كان يلح منذ يومين لمقابلتى.. الكل من الان فصاعداً يتعجل الفضيحة..ويسعى إلى إطعام أفواه المطابع الساخنة بكل النميمة والإثارة..وكل محاولة من أجل التعبير عما يجيش فى صدرى هى بلاشك محاولة بلا جدوى فالمصيدة أغلقت والآلة الشيطانية قد دارت.

هل كانوا يدركون أن ما يكتبونه لم يكن يكتب على الورق وإنما كان يكتب على لحمى وكأنهم يستخدمون تلك الآلة الجهنمية الرهيبة التى اخترعها الأديب المعروف «كافكا» فى روايته «المستعمرة التكفيرية» حيث كان شغلها الشاغل هو الحفر فى لحم المحكوم عليه بالعقاب على الرغم من أنه يجهل الجريمة التى اقترفها.

فى ركن ما قمت بلملمة أشلاء نفسى المبعثرة..رجل يدمن السجائر، ركل الباب بقدميه للحصول على سيجارة.. صرخ فى وجهى «اعطنى سيجارة يا امرأة» قلت له..لم يعد عندى.. سبنى.. «قذرة» وتفاديت بصقة طارت فى الهواء..وبعد ساعات شاع فى السجن اننى شخصية خطرة.

ولست بهذه المواقف والمشاعر فى تجربة السجن القاسية أريد انتزاع شفقة القارىء بقدر ما أريد أن أكشف عن الحقائق المنسية من العالم والتى يعيشها المتهمون الأبرياء الذين لم تثبت إدانتهم فى السجون.

ليال طويلة فى السجن هجرنى النعاس..وكانت وسيلتى الوحيدة للهرب من الواقع الحزين هو استرجاع الماضى.. فلم يعد لى سواه احتمى به.

لقد نشأت فى بيئة ريفية متواضعة.. الأب والأم يعملان فى مجال التعليم.. كنت طفلة صغيرة..وكنت مصدر فخر لهما.. وكنت كنزهما الثمين.. وكانا أن قاما بكثيرمن التضحيات كى أتمتع بحياة أفضل.. إن أبى لم يستطع أن يمنحنى بيانو الاثرياء المعروف.. لكنه منحنى بيانو

الفقراء.. الأكورديون.

رويدا.. رويدا بدأت الطفولة تهجرنى..وبدأت الأنوثة تزحف على قبل موسمها.. لقد أصبحت جميلة.. الشباب يحوم حولى.. يقولون إن فى عينى لون الحياة.. زرقة البحر.. وخضرة أشجار الخريف المبللة.. ولكنى كنت أهرب منهم.. وفى السابعة عشرة من عمرى قابلته.. قابلت «بيرتييه».. كنا نهرب الى الدروب العتيقة عندما يسدل الليل ستائره فنشعر بالقمر حتى لو فى ليالى اختفائه.. وتزوجنا..ورزقت منه بطفل.. ثم انتهت قصتنا.. ولم يبق منها سوى ذهابى الى المحكمة كى أحصل على نفقة لابنى الذى كان معتل الصحة.. ولم يعد أبوه الذى صعد سلم الوزارة يراه.

أما الرجل الثانى..والد ابنى فيليب قابلته عندما كان يعمل مديرا لشركة «طومسون» الطبية.. وكان كلود جونكور..هو الذى حملت لقبه..وكان مهتما بالسياسة شأنه شأن أى رجل أعمال يحتاج إلى مساندة داخل السلطة.. لكنه كان فى الوقت نفسه نفعيا أنانيا.. لايرى من الدنيا سوى مصلحته.

سيارة.السجن تهتزبعنف تجعلنى أعود إلى الحاضر.. اسمع تعليقات مبتذلة من بعض الرجال.. أشعر أنا وزميلاتى بأننا اغتصبنا.. ترى هل أنا حقا مجرمة؟.. لماذايذيعون حلقة من برنامج «ساعة مع الحقيقة» عنى وقد هولوا وكبروا وضخموا وجهى حتى أبدو كمجرمة؟.. هم يتساءلون: ترى هل هى مجرد دمية استعملت؟ أم هى امرأة ذات عقل جبار؟.. ووصفونى بعشيقة الوزير السابق.. إن الإعلام يلوك سمعتى.. يفترسنى..يمزقنى.. الشائعات الفجة تجعلنى أشعر أن قلبى سوف يتوقف.. ترى إلى اى هوة سحيقة سأسقط.

انه نفس الشعور الذى أصابنى وأنا ألقى نفس الألم الذى شعرت به عندما طرد زوجى الثانى كلود ابنى من زوجى الأول.. وعرفت فى تلك اللحظة انه من الممكن إن تموت الروح.. ويظل الجسد هائما ضائعا مشردا.. فلم يكن لدى مورد أعيش منه.. ولم أكن أستطيع ترك ابنى الأصغر.. ولم يكن زوجى يدرك أنه ينتزع منى قطعة من لحمى.. ولم

يكن أمامى سوى الصبر.. وانتظار الطلاق الذى كان قادما لا محالة.. ومع فوز «فرانسوا ميتران» بالرئاسة فى عام ١٩٨١ فقد زوجى منصبه.. وعشنا أعواما مغموسة فى الشقاء.

هنا فى السجن لا يستطيع أحد أن يساعد الآخر.. فكل منا لديه متاعبه وأعباؤه.. وفى أعماقى فقط وجدت العون..خاصة اننى أحس اننى لم أقترف شيئا.. إن ضميرى يساعدنى أن أعيش افضل مما كنت أتوقع.

أذكر اننى قرأت يوما على لسان احد أبطال شكسبير ضميرى له ألف لسان.. وكل لسان يحكى قصة.. وكل قصة تديننى كمنحرف.. لكنى لست هذا الشخص..

لمدة خمسة أشهر كاملة خضعت لتحقيقات يومية.. لم يكن السجن أبشع ما حدث.. كان افدح من السجن جحيم الإعلام المستعر.. إنها محرقة أشعلتها الجرائد.. لقد راودتنى فكرة الانتحار كى يتوقف هذا الجحيم.. العديد من المساجين هنا يحرقون أنفسهم.. ولكن ابنى المرهف شعر بحزنى.. بأفكارى القاتمة حذرنى من أى تصرف أحمق.. فهو وأخوته لن يستطيعوا العيش بدونى.

الحياة فى السجن أقرب إلى حياة الحيوانات.. عزائى الوحيد قصائد الشعر التى كنت أقرؤها فى مكتبة السجن.. كنت أحلم أحيانا بأن يطلقوا سراحى.. فأنا لم أقترف أى ذنب..لكن كيف يمكن إن يجرى ذلك وأنا امرأة متهمة فى قضية سياسية ومالية زلزلت الإعلام وفجرت البراكين الخاملة.. وأهم من كل شىء كما تقول الصحافة اننى امرأة جذابة.. مغرية.. طاغية الحسن.. مما يوحى بالندم والحسرة لبعض الرجال الذين صادفتهم بشكل عابر.. أصبحت المرأة الغامضة التى هزت الدولة العظيمة.. المحامى قال لى إن علىّ أن أدرك خطورة وضعى.. فأنا فى قلب قضية أمن دولة..وأنا خليلة رولان دوماس.. وزير الخارجية السابق.. وهو وقت القضية الرجل الخامس فى الدولة.. ورئيس اللجنة العليا للدستور.. وعلى شاشة التليفزيون أصبحت فقرة دائمة مثل المسلسلات بجوار صورة الوزير.. الذى بدا على الشاشة مهزوما..يعانى الانكسار مثل كل ما هو شامخ.. إن الهزيمة تأتى دائما من الداخل.. إننا

إننا وهو نمر الآن بالأسوأ بعد أن عرفنا معا من قبل الأفضل.

لقدعلم «رولان دوماس» بوجودى فى الدنيا فى عام ١٩٨٧ من خلال أصدقائنا.. عائلة ديان وهم أصدقاء مقربون للرئيس ميتران.. وأثناء حملته الانتخابية زارنى فى بيت عائلتى الريفي.. هو من نفس جيل والدى.. وله نفس المعتقدات السياسية.. ونفس الجذور الريفية البسيطة.. وهو مثل أمى كان فيما مضى فى المقاومة الفرنسية ضد الاحتلال النازى.. ماضيه أكسبه قوة وقدرة على احتمال الألم..فهو لم يذهب قط الى الطبيب.. فى منزلنا الريفى كان دوماس دائما الرجل المرتبط بالأرض.. بالجذور وليس المحامى الشهير والوزير البارع.. وقد كان تذوقنا للفن هو البداية والأساس فى علاقتنا.. كنا نستمع معا إلى الموسيقى فى خشوع وتضرع.. لقد كان دوماس رجلا مولعا بالإبداع.. لم أكن أتخيل فى ذلك الوقت إن العاطفة سوف تجرفنا إلى ما هو بعيد وعميق ومجهول.. وأثناء الحملة الانتخابية كان زوجى السابق منافسا له وقد عاتبنى على حماسى لدوماس قائلا: أنا والد ابنك قلت: «هل تتذكره»؟ وبفوز دوماس توقفت مؤقتا علاقتنا.. وقال لى مودعا: سوف نتقابل قريبا.. يجب أن تستمرى فى الاهتمام بى «قلت لماذا؟ قال ضاحكا» من أجل الجمهورية.. من أجل فرنسا.

هناك ٤٤ متهما فى قضيتى هاربون.. فأنا الوحيدة السجينة.. منهم الفريد سيرفان.. وهو قد عرف من زوجى بالصداقة الوثيقة بينى وبين دوماس الذى أصبح وزيرا للشئون الخارجية فى عام ١٩٨٨ فى حكومة ميتران.. وفى عام ١٩٨٩ كانت شركة «ألف» للبترول تختار رؤساءها ومن بين الاسماء التى كانت مرشحة للرئاسة سيرفان.. وكان سيرفان يطعم زوجى بالآمال والأحلام فى أن يحصل على منصب فى شركة البترول العملاقة.. وهو ما جعل زوجى يقول لى: «اذهبى الى الوزير دوماس.. كلميه.. حاصريه» كان كلامه يحمل فى طياته تلميحا.. ولكنه سرعان ما اصبح كلامه تصريحا.. أن أذهب الى دوماس من اجل مصالحه.. ثم اننى فى الاربعين وربما يذهب عطر الأنوثة وتضيع فرصتى الأخيرة..إنها حقا فرصتى الأخيرة كى أسمع كلام زوجى وأستعيد ابنى..

وأعيش حياتى فى ظل قوة السلطة.

ودعونا سيرفان إلى العشاء وتحدث عن هوياته فى دراسة الحياة السرية للرجال الذين يهيمنون على بؤر الجاه والسلطة.. وقارن نفسه بميكيافيللى.. وكان يعرف كيف يكون جذابا وكيف يكون مدمرا.. وكان مولعا بالصراعات التى تدور فى الكواليس.. فكان يعلم بالتفاصيل الدقيقة عن الزوجات والعشيقات..فهو يستثمر ضعف الآخرين وعجزهم.. وقد اكتشفت من خلاله العالم القاسى والوحشى للسلطة والمال.. و لست ادرى لماذا كان هذا الرجل كثير الكلام؟

هل من أجل التمويه وإخفاء الحقائق؟ إن حكاياته كانت غارقة فى اللامعقول وفيما بعد اعترف سيرفان بأنه كان يتوقع أن أكون مجرد برجوازية صغيرة..حقيرة.. تافهة.. ولم يكن يتخيل اننى سوف أكون تلميذته النجيبة.. لقد أدهشته.

لقد أصبحت مهمة له.. وكيف لا أكون وقد أصبحت صديقة الوزير الخطير.. بدأ سيرفان يطلب منى إعداد ولائم فى منزلى لاصدقائى من آل ديان وللمرشح لرئاسة شركة البترول العملاقة.. وبالطبع الوزير وبدأ زوجى يتخلى عن بخله وتقتيره قليلا.. فهو ينتظر نصيبه من الكعكة التى أعدها.. وأصبح منزلناعامرا بأفخر أنواع الخمور لزوم المآدب الفاخرة.. ومن الآن فصاعدا فأن البرجوازية الصغيرة ستتفوق على نفسها وعلى غيرها.

فى زنزانتى أتطلع من خلف النافذة الى الطيور والعصافير الشاردة هى تطير فى السماء.. أحسدها.. ولا أملك فى تلك اللحظة سوى أن أحلق فى ذكراتى.. لقد خرج زوجى من المولد بلا حمص.. فقد صدمه سيرفان..وطرده من اللعبة.. وذات يوم خريفى قابلت سيرفان على مقهى الفوكييه فى الشانزليزيه وعاتبته على الصدمة التى سببها لزوجى.. لكن إجابته كانت بليغة وقاسية: «لقد وافق زوجك على أن يقدمك قربانا لطموحه.. انه قواد.. وقد قبل هذا الدور..ونحن لا نريد تلك النوعية من الرجال فى شركتنا».

لقد كنت أسعى للحصول على الطلاق.. ومن ثم عرض سيرفان علىّ العمل فى وظيفة مسئولة العلاقات العامة التى تقوم بهمزة الوصل بين

شركة البترول العملاقة ووزارة الخارجية.. وهكذا بدأت الصفقة مع الشيطان.. قال لى «ارتبطى بى..التصقى بى.. ولنتذوق قليلا من كل شىء.. اقتنصى الفرص.. طاردى ما يمتعك «أليست تلك هى نفس كلمات الشيطان للدكتور فاوست- الذى باع له روحه- عند توقيع العقد أو الصك الجهنمى بقطرات مسمومة من دمه وروحه»؟

بدأ سيرفان أو الشيطان يتدخل فى مظهرى.. فى ثيابى.. أنهى فى حياتى زمن الجينز والأحذية الكاوتش.. قال لى: المال ليس مشكلة.. فشركة «إلف» للبترول فتحت لى حساباً.. ومن ثم اخترت ملابسى من اشهر بيوت الأزياء الباريسية.. عشت فى عالم الساحرات عندما تتحول ملابس سندريلا البالية الرثة إلى أجمل الثياب وأروعها.. أو عندما تصبح الحقيقة أروع من الخيال.. ترى هل نسأل من أين؟

أصبحت لى شقة أخيراً.. استعدت أطفالى.. مرتبى ١١ ألف فرانك فى الشهر من شركة «الف» الفرنسية.. و٤٠ ألف فرنك شركة «الف» العالمية.. كلها تودع فى بنوك سويسرا.. بخلاف بطاقة ائتمان من اجل الفنادق والثياب والرحلات.

فى السجن اقتحموا زنزانتى يقلبونه رأساً على عقب فأعود وأجد فوضى عارمة.. الطعام يمتزج بالأحذية.. الحمامات هنا غير آدمية.. لا توجد خصوصية.. فى السجن لم يسأل عنى رجل واحد سواء من الأصدقاء أو الغرباء.. و جاءت الطعنات كالعادة من الأكثر قربا.. فقط بعض النساء المجهولات بعثن لى برسائل تساعدنى على المقاومة.. وان أكون قوية وجميلة من اجل ابنائى.. فى السجن لاحظت أن الشعر ينمو سريعا وأيضا الأظافر فسألت عن السبب فقالوا: إن ذلك يحدث عادة للجثث.

ذات مساء حاولت ترويض الشر الكامن فى أعماق سيرفان الواصى علىّ فحدثته عن ضعفى وعن ابنائى وعن وحدتى وللحظات اعترف لى أننى مثل ابنته وانه لن يتخلى عنى ابداً حتى بعد أن يعتزل الحياة العامة ويعيش فى منزل ريفى وسط حدائق فلورنسا وسوف يعطينى المفتاح.

لقد كان صادقاً للحظات وتلك هى الخطورة، فكما يقال خطورة الفاسد أو المنحرف إنه ليس دائماً منحرفاً.

حاولت أن أتفادى الشر لكى أحتفظ بعملى واولادى لكن هل يمكن أن يتعايش اليمام فى أحضان الذئاب، أو البجع مع الوحوش الكاسرة.

لقد علمنى سيرفان كيف نعقد الصفقات العملاقة والتعامل مع الوسطاء والسماسرة وكيف تتفق ملايين الدولارات فى البيع والشراء.

ليس لدى مكتب فى شركة «إلف» ولكن مقرى فى مكان آخر.. لقد احتفظ بى سيرفان لنفسه فانا الجسر بين شركة الفا ومقر الوزير دوما! وسافرت مع سيرفان إلى العديد من بلدان أفريقيا وقابلت رئيس الكنغو والكاميرون وكانت شركة «الف» تتعمد أن يرانى الزعماء مع الوزير.

فيما مضى لم أكن اعرف من وسائل المواصلات سوى القطاروالسيارة وأصبحت الآن أعيش حياتى بين الطائرات والزعماء والحفلات إنه دوار لذيذ يغمرنى حتى الثمالة.

سيرفان لم يعد يتركنى وانا لم اعد اترك الوزير:

لقد أصبح دورى بجوار الوزير مهماً لدرجة اننى فى اجتماع وزراء الخارجية بمقر الأمم المتحدة فى نيويورك اضطررت للحاق به من قبل شركة «الف» لكى يؤثر على الرئيس ميتران ليزور بلداً أفريقيا شديد الأهمية بالنسبة لصفقات البترول ونجحت المهمة من أجل مصلحة فرنسا.

وفى إيران ذهبت معه عام ١٩٩٢ وارتديت النقاب لكى أصبح امرأة بلا وجه مثل الأخريات.. وكان سيرفان مثل المجنون عندما دارت حوارات حول تسليح إيران بطائرات هليوكبتر عسكرية، إنها حقيقة لايستهان بها وفي فصل عنوانه «حواديت الساحرات» تحكى كريستين عن علاقة الحب المتأججة بينها وبين الوزير فتقول: رولان دوماس رجل ضخم يشبه والدي من ناحية الشكل والعمر وكان من الممكن إن يلجم فارق السن مشاعري نحوه ولكن بمرور الوقت اكتشفت ثراءه الفكري والثقافي وخياله الخصب.

كان وزيرى العاشق يشبه الطبيعة فى بلدتي بالمدن الخرافية للساحرات، حيث مغارات ملوك الجان والمتعة المتاحة لمن يتطلع اليها، لقد كان الوزير بجوارى رجلا سعيداً.. وكان الحب بيننا تارة ترتيلا سماويا وتارة قصيدة برية وأحيانا لحناً غجرياً.

وهكذا استسلمنا لعواطفنا الجارفة وليكن ما يكون لقد كان دوماس

يتعلم الروسية والصينية والفارسية وكان ينصحنى بالقراءة لعظماء الأدب باللغة الأصلية فما أحلى بوشكين مثلا بالروسية.. كم من أمسيات أمضيناها فى فيينا لزيارة منزل فرويد وبيتهوفن وفاجنر وفى نوفمبر ١٩٩٠ رافقته إلى الإسكندرية من أجل افتتاح الجامعة الفرانكو فونية وكان على رأس المدعوين الرئيس حسنى مبارك وفرانسوا ميتران.

وندمت معه على سنوات عمرى العجاف العارية من الارتواء الثقافى. والحقيقة أن للسلطة جاذبية تسحر النساء وانا امرأة كسائر النساء، ولكن فى حالة دوماس كان هناك عمقه الفكرى ورجولته الحقيقية والتى أصبحت صفة نادرة فى عالم الرجال.. فما الذى ننتظره من الحياة أكثر من شخص يرتفع بنا حتى السمو ولكن هل الحب دائماً بلا مقابل ألا يملأ فى اغلب الأوقات نقصاً ما أو يسد احتياجاً ما؟ والحقيقة هى أننى كنت مخلصة فى حبى ولكن يقع على عاتقى عبء الماضى وقلق ومسئوليات المستقبل المجهول، فإما أن أكون أو لا أكون وكنت فى بداية عملى معه أحاول اختراق القوقعة التى يختبئ فى داخلها فكان يتحتم علىّ فهمه وإثارة إعجابه من أجل التأثير عليه فى ناحية العمل وكنت أحاول جاهدة السيطرة على مشاعرى ولكن تحت وطأة اتصالاتنا المكثفة ورحلاتنا المتعددة فاجأنا كائن ثالث تحكم فى أقدارنا هوالحب وكنت أنجح فى إضحاكه ولا مانع من أن يصاب بالقلق فزعزعة ثقة الرجل فى نفسه لها مفعول وعندما كنت أذهب للقائه بالوزارة وأغوص أمامه فى الكرسى الصغير - حيث كان يتعمد أن يكون الضيف فى وضع أقل منه - كنت أتناسى عشاء الأمس الحميم.. لقد دسست على قدراتى وخيالى من اجل ألا يأكلنا الغول الذى نسميه الملل.. فكنت الحبيبة والصديقة والأخت والأم وكنت أنجح فى إضحاكه.. ولم أتردد فى أن أثير غيرته وافقده الثقة فى نفسه حتى يستمر الحب فى صدره مشتعلا.. وحتى أستمر فى السيطرة عليه.. وكان يكرر دائماً: إننى قادرة على إشعال الرغبة فى عروقه بعد كل السنوات الطويلة التى مرت فى حياته وعمره واتبعت فى علاقتى معه أسلوبا فريدا.. لا أدخل كثيرا فى التفاصيل.. لا إفراط فى المشاعر.. أن أتحكم فى انفعالاتى.. ألا أبكى ابداً.. ألا أفصح عن اى ندم.. وكانت عبارة

شكسبير الخالدة محفوظة فى عقلى.. «من اختار أن يحب سوف يجرح فؤاده» وهو ما جعلنى كلما هبطنا مطار باريس -بعد رحلة للخارج- اشعر بغصة فى قلبى عندما يذهب مع سائقه واذهب أنا مع سائق آخر.

إننى امرأة مثل أى امرأة عندما أحب أريد أن امتلك من أحب أن اشعر باهتمام الرجل الذى أحب.. أن اشعر معه بالأمان لذلك كان يقول لى دائماً أنت قوية أنت تتفتحين مثل الزهرة من خلال حريتك وتحقيق ذاتك.

ترى هل الرغبة فى الاستقلال تتناقض مع الاحتياج للحماية إن بعض الأغبياء يعتقدون أن حاجة المرأة للحماية هو اعتراف منها بالدونية واذكرهنا عبارة شهيرة تقول النجاح بالنسبة للمرأة هو المأتم الصارخ لسعادتها والرجال الآن يطالبون المرأة بان تتحمل مسئولية نفسها. إن المطلوب أن تصبح أقوى من الرجل وهى طريقة جديدة لاستغلالها لم أكن تقريبا اترك دوماس وأثناء حرب الخليج كان «جيمس بيكر» وزير خارجية أمريكا السابق يتصل بى فى منزله الريفى ووقعت شركة «الف» عقوداً باهظة على الرغم من الحصار المحكم على العراق أما المأساة الأخرى فقد بدأت خلال رحلة إلى جنيف مع سيرفان فشركة «طوسون» كانت تريد بيع فرقاطات وطائرات ميراج ٢٠٠٠ إلى تايوان، وبما أن الرئيس ديجول كان قدوقع اتفاقية مع الصين تحظر تسليح تايوان فان الصفقة كانت متعثرة ولكن الآن تايوان أصبحت فاحشة الثراء والصفقة مغرية ولكن الصين تهدد بقطع علاقاتها الدبلوماسية مع فرنسا إذا تمت الصفقة. ودوما يرفض تماما إتمام الصفقة ولكن سيرفان المسكون بالجشع وشهوة المال بدأ يلح علىّ قائلا: ما جدوى وجودك إذا لم تستطيعى التأثير على الوزير سوف تحصلين على ٤٥ مليون فرنك عمولة وسألته هل العمولة شرعية أجابنى: بالطبع نعم فإن الفائدة ستعم على الشعب المسكين حيث إنها سوف تساعد على القضاء على البطالة.

وبدأت أفكر: هل اخسر عملى وحياتى من أجل بضع فرقاطات وفى أكثر لقاءاتى سخونة مع الوزير كنت أحدثه عن صفقة السلاح.. فكان يجيبنى ضاحكا: ماذا عندك أيضا يا ماتا هارى وذلك فى إشارة الى الجاسوسية والراقصة الشهير ماتاهارى.

وعلى الرغم من رفض دوماس فإن الإليزيه قرر قبول الصفقة وبالتالى وقعت الفضيحة الثانية، قيل إن السماسرة سهلوا الصفقة مع الحكومة الفرنسية وحصلوا على ٥٠٠ مليون دولار عمولات.

لقد اشتعلت حرب العمالقة والحيتان من أجل اسكاتى ووضع مبلغ ٤٥مليون فرنك باسمى فى جنيف وهكذا أضيفت إلى تهمة الاختلاس.

وازدادت الحمى المسماة «كراهية دوماس» فعلى شاشة التليفزيون يقال الثنائى الملعون الوزير زير نساء، النساء أضاعته وكل الجمل الخاصة بى تنتهى بلفظ عاهرة.. وبدأوا يفتشون فى مقتنيات تحفى التى اشتريتها من المزادات ربما أهدانى إياها الوزير فى لحظة ضعف حتى المرات التى تقاسمناها أنا ودوماس خلال تناولنا طعام العشاء أصبحت خاضعة للتحقيق ربما يجدون له غلطة أو نقرة تم من خلالها استغلال أموال الشعب، يعرضون على أغلفة المجلات صورى معه فى بطولات التنس فى رولان جاروس، فى الصين فى كل مكان كل ذكرياتى الجميلة ومشاعرى الصادقة دنسها الإعلام حتى والدتى المعلمة البسيطة كانت فريسة للافتراءات والابتذال فقيل كانت هى أيضا فى الماضى عشيقة للوزير إذن «كريستين» هى ابنة الوزير وهو مايعنى أنه تجاوز المحرمات أما السادة الرجال المرتشون المتورطون فى تلك القضية فلم يحظوا بتلك الأوصاف فلم نسمع قط عن رجل يقال عنه عاهر الجمهورية أو «جيجولو» الجمهورية.

«سيرفان» الفاسد الهارب الذى هدد بأن يفشى أسرار وفضائح الدولة عشرات المرات من غير المناسب وصفه بعاهر ولكن المرأة وخاصة الناجحة الجميلة فهى إما سارقة أو تضاجع الرجال.

لقد أصبحت النموذج الصارخ للشخصية الانتهازية فقد فقدت أثناء فترة السجن ١٢ كيلو جراما وتعرضت عشرات المرات للتفتيش الذاتى وعندما كنت أقوم بتنظيف القمامة كنت أجد صورى على صفحات الجرائد واتهامات لا حصر لها مثل أى عمل كانت تقوم به تلك المومس فلم يكن لديها مكتب.

فقد وجد الوزير وسيلة للأنفاق على عشيقته من خلال شركات

البترول، إذن من خلال الجمهورية.. العاهرة كانت تعيش على قوت الشعب. لقد عرفت فى عالم السلطة والمال ما يسمى بضعف الأقوياء وعجزهم فهم يبيحون لأنفسهم الكثير من النزوات.. وهم دائما يركضون لا يكفون عن اللهاث ولا أحد يدرى إلى أين هم ذاهبون إلى الزوجة أم إلى الإليزيه أم إلى العشيقة. هم يتكلمون قليلا لا تستطيع الإمساك بهم. أعتادوا إلقاء المحاضرات والمواعظ والتصريحات ولكن اعتادوا أيضا عدم الوفاء بوعدهم، هو عالم العجزة، فهم لا يقدرون على الإبداع والخلق والسلطة هى التعويض بالنسبة لهم فالرجل الحقيقى يحقق ذاته من خلال الحب ودفء الأسرة.

واذكر ما قاله الثعلب فى رواية الأمير الصغير لاكزوبيرى «لاتنس انك مسئول إلى الأبد عن الشيء الذى غويته أو جعلته أليفا». أمى كانت دائما تردد على مسامعى أن الرجال لديهم أدراج لكل شيء. درج للمال ودرج للمرأة ودرج للتعاقد فهم لا يتركون شيئا ولا يضحون بشيء.

من هذه الزاوية رولان دوماس لم يكن يشبههم اليوم فى منتصف حياتى أكتشفت الرفاهية التى يحققها المال ولكن ترى ماذا عن الاحتياجات عندما يتحقق لها الإشباع؟.. الانفعالات والرغبات تنهك والحلم يذبل..

وأخيرا لقد انتهت فترة سجن كريستين جونكور والآن هى فى انتظار حكم القضاء كما أنها الآن ممنوعة من مقابلة ٢٢ شخصية من بينهم الوزير السابق «رولان دوماس».

ولكى تدفع الكفالة الخاصة بها للخروج من السجن وهى مليون فرنك كتبت «عاهرة الجمهورية» التى كان عائدها ٦٠٠ مليون فرنك، ثم اضطرت لبيع صورها مع دوماس على البلاج لمجلة «بارى ماتش» أما الملايين فمازالت أرصدة مجمدة فى بنوك سويسرا.

انه المال الممتزج بذكرياتها ولحظات الدفء التى عاشتها بين أحضان الوزير ذى الشعر الرمادى الناعم ويوميات السجن الباردة مثل قلب جفت ينابيعه ومازالت المحاكم فى فرنسا تنظر قضية كريستين جونكور وعشيقها معالى الوزير السابق رولان دوماس فهى أضخم قضية فساد وأمن دولة شهدتها فرنسا.

الفصل

6

أسرار حياة سلاطين مصر

- الملك فاروق الذى أفسدته حاشيته!
- ليالى ألف ليلة وليلة فى قصر السلطان عبدالحميد.
- محظيات القصر الملكى.

هو تراث حياة أشهر وأهم أمراء وملوك العالم الإسلامى خلال القرن التاسع عشر وحتى منتصف القرن العشرين.. فمن خلال تلك الدراسة ندخل العالم المبهر للإمبراطورية العثمانية وسلاطينها مثل السلطان عبدالحميد وعبدالمجيد ملوك الأردن ثم العراق والسعودية ثم الأسرة الحاكمة فى إيران بداية من أسرة الكاچار ووصولا إلى حكم آل بهلوى حتى نهاية الشاة رضا بهلوى، هناك أيضا أمراء أفغانستان فى بدايات القرن العشرين عندما كانت كابول تبدو وكأنها عاصمة أوربية.

ثم نصل لما يدور فى مصر فنتعرض لعروش ونعوش اشهر ملوك المحروسة وهكذا أقدم دراسة عن صعود وهبوط، ازدهار واندثار، توهج وذبول العديد من الممالك وبعيدا عن السياسة وشجونها وبعيدا عن حاضرنا الجاف المسكون بالعنف والإحباط ففخامة الملوك تجعلنا نغوص فى عالم خلاب ساحر أكثر إشعالا للخيال من حواديت ألف ليلة وليلة..

فالبلاط العثمانى فى تركيا وفى مصر كان مكتظا حافلا بالنساء الجميلات محظيات وهوانم، أميرات وجوارى، باشوات وبكوات، أغاوات والقصور عامرة بالدر والجوهر والمرمر والبلور والليل الترف والبذخ الطاغى والقمر والجمال الشركسى، سر أبدى ومتعة صاخبة لا ينالها إلا الملوك أو أبناء الطبقة الأرستقراطية فكانت القاهرة وخاصة خلال فترة الأربعينات هى بمثابة عاصمة للدنيا كانت بحق مدينة كوزمو بوليتانية عالمية تعج بكل أنواع البشر فكان من يمشى فى

شوارعها يسمع كل لغات الأرض اليونانية، الإيطالية، الفرنسية، الإنجليزية، التركية كانت مدينة الثقافة والمتعة والدهشة وأيضا «العز الفاخر» كان الكل يشتهى العيش فيها.

وفى عام ١٩٤٥ وبينما كانت أوروبا غارقة فى الحرب تعانى الدمار والخراب كانت تقام فى القاهرة أرقى وأضخم وأمتع السهرات فأقيم حفل على غرار الفيلم الأمريكى «ذهب مع الريح» المأخوذ عن رواية «مارجريت ميتشيل» حيث صفوة الأمراء والأميرات والأجانب والكل يرتدى أزياء تشبه ملابس هذا الفيلم وكانت حينذاك فاطمة طوسون خطيبة الملك فاروق السابقة تزين الحفل بجمالها ولقد تزوجت فيما بعد بأمير برازيلى ولقد روى السيرمايلز لامبسون الذى اصبح الآن لورد كيلليرن انه رآها ترتدى أضخم عقد زمرد شاهده فى حياته ونعود إلى فجر القرن العشرين فبتلاشى وزوال الإمبراطورية العثمانية وخلافتها أصبحت مصر هى أهم مملكة فى الشرق الأوسط.

وفى عام ١٩١٤ تولى الحكم فى مصر حسين كامل ولقد عرف بلقب «أبوالفلاحين» نظرا لاهتمامه الجم بالزراعة، ولقد قام السلطان حسين بالعديد من الإصلاحات وتوفى بعد مأدبة بقصر عابدين فى ١٩١٧ فكان أن انتقل الحكم إلى أخر أبناء الخديو إسماعيل الذى كان على قيد الحياة، هو أمير بدين، قصير القامة، له شارب عجيب، غريب اسمه فؤاد.

عرف فؤاد بثقافته الغربية، وتنقله الدائم بين باريس والقسطنطينية ثم إيطاليا التى التحق ذات يوم بجيشها. كان منفتحا على العالم ولكنه كان مولعا بالقمار الذى ابتلع الكثير من ثروته الفاحشة بل وثروة زوجته حينذاك شويكار.

وهكذا ذات ليلة فى نادى محمد على وأثناء إضاعته ثروة زوجته على موائد القمار أطلق شقيق شويكار النار على الأمير فؤاد والذى أصيب فى حنجرته بعاهة مستديمة وإعاقة جعلت صوته وكلامه مشوها إلى الأبد..

والأمير فؤاد نشأ محاطا بالثروة والقوة وعندما تربع على عرش مصر كان قد تخلص من الثروة وأيضا من شويكار المرأة التى عشقت حياة الليل الصاخبة وطقوس الحفلات والتى يقال إنها لم تتجرد قط من مرارة انفصالها عن فؤاد إلى درجة أنها اتهمت بكونها من أحد أسباب إفساد فاروق ملك مصر الذى كان..

أما فؤاد عندما اعتلى عرش مصر كان غارقا فى الديون بالرغم من ثرائه فى الماضى فكان يمتلك أضخم وأفضل أراضى مصر ولكنه استعاد الثروة اثناء حكمه ومات مليونيرا!!

ولكنه كان دائم الشعور بالخطر تجاه عباس حلمى، وكانت هناك عبارة تتردد كثيرا فى مصر هذه الأيام: «الله حى.. عباس جاى»!

ولكن فى عام ١٩٢٩ مر الخديوى السابق بضائقة مالية خسر أثناءها كل ما يمتلك فكان أن وقع على صك بالفرنسية والعربية عام ١٩٣١ يؤكد فيه ولاءه المطلق لفؤاد ملك مصر مقابل ثلاثين ألف جنيه مصرى كل عام!

والحقيقة هى أن الملك فؤاد كان أكثر الملوك ثقافة واطلاعا بالرغم من ضعف لغته العربية إلا أنه سعى لإنشاء جامعة مصرية عصرية بجانب جامعة الأزهر ولقد قام بتمويل عدد لا يحصى من المؤسسات الخيرية والثقافية وفى مجال الطباعة والبحث كانت له أيضا إنجازاته فكان بالرغم من ولعه بحياة اللعب إلا أنه كان أرقى ملوك هذا الزمان..

ولكن بالرغم من الرقى الثقافى الفذ إلا أنه كان مثل أغلب أجداده العثمانيين الذين حكموا البلاد يعامل المصريين بتعال وبأسلوب فظ وفج!

وفى عام ١٩٢٦ وبعد إلغاء الخلافة عام ١٩٢٤ من قبل كمال أتاتورك عقد اجتماعا مهما فى مصر فى محاولة يائسة لجعل فؤاد خليفة فلقد كان الشعور السائد يشبه شعور الكاثوليك لو أصبحوا بدون البابا ولكن الملك فؤاد فشل فى تحقيق الحلم الذى راوده كثيرا نظرا لافتقاده أى تأييد شعبى مصرى أما الزوجة الثانية للملك فؤاد فكانت فتاة فارعة القوام تتمتع بشخصية طاغية، جذابة، متمردة، عنيدة اسمها «نازلى»

كانت شديدة التمرد على التقاليد العتيقة والموروثات كانت مولعة بالحياة على الطريقة الأوروبية. فكانت تفضل قصص اليونورجلين على تقاليد وقيود الأسرة المالكة.

ولقد أنجبت لفؤاد مملكة حرف الفاء، فاروق، فتحية، فائقة، فايزة ثم فوزية أجمل نساء الأرض الأميرة الفاتنة التى ولدت والحزن والجمال رفيقاها فكانت بحق ذات الحزن والجمال والتى صارت فيما بعد إمبراطورة بزيجتها من شاه إيران والتى فشلت فيما بعد، ولقد أصر الملك فؤاد على أن يبدأ أسماء أولاده بحرف الفاء نظرا لحبه الطاغى لوالدته فريال ويقال إنه بعد وفاة الملك فؤاد تزوجت نازلى من أحمد حسنين باشا الوصى على العرش زواجا سريا، عرفيا، مما كان له عظيم الأثرعلى حالة فاروق النفسية. ولقد ألهمت تلك العلاقة الغامضة بين نازلى وأحمد حسنين الأديب الكبير ثروت أباظة رواية «أمواج بلا شاطىء».

ولقد عرف فاروق الشاب اليافع متعة حياة الليل وغوايتها من خلال حفلات شويكارالتى ابتلعت أكثر أوقاته..

وفى رواية القاهرة الجديدة للأديب الكبير نجيب محفوظ وصف دقيق لتلك الحقبة من عمر مصر حيث المجتمع المخملى الغارق فى الشهوات والذى أفرز أول بطل ثورى فى الرواية العربية على طه وهو النقيض لشخصية محجوب عبدالدايم ويقول الأستاذ واصفا حفلا من حفلات الزمن الغابر: «وتزاحموا نساء ورجالا فى أبهى الشياب وفاخر الحلل، فشاع الحسن فى كل موقع، وتطاير فى الجو شذى العطور، وذاغ بصر محجوب نحو النحور المتألقة والظهور العارية والصدور الناهدة، وجرى دمه بحيوية فائضة وعجب لهذه الدنيا الباهرة، فهذه الثياب الفاخرة والحلى النفيسة، ان واحدة منها تكفى للإنفاق على طلبة الجامعة جميعا ونظر محجوب إليها طويلا: السيدة إكرام نيروز منشئة الدار إنها عجوز ولكنها مغرمة بالشباب»!

ومن الأحداث الطريفة والغريبة والمؤلمة فى آن واحد إنه فى عهد الملك

فؤاد طرد محمد محمود باشا رئيس وزراء مصر الأسبق من نادى الجزيرة بسبب لونه الأسمر..!

وهكذا بدت القاهرة فى هذا الوقت مدينة مترفعة، عالية وكأنها ترقص على السحاب بملوكها وأميراتها وهوانمها نسل شاه، هان زاده، فاطمة طومسون، فوزية، فايزة، ثم انجى أميرة يوسف السباعى أو بطلة روايته رد قلبى الشخصية المستوحاة من أميرات مصر اللاتى يشبهن أزهار الجلاديول..صاحبات القامات الشامخة والنبل والترفع والبشرة الشهباء البديعة.

هو فتى فى السادسة عشرة له نظرة عين حالمة ناعسة تطمع فى اختراق الواقع القبيح وتحطيمه، تحلم بآفاق أرحب وأبعد.

فى البداية كان مهموما بأمرالبسطاء والفقراء، يحب شعبه هذا ما قاله لتشرشل ذات يوم ولكن أنين البسطاء بدأ يخفت ويبتعد حتى تلاشى تماما وإلى الأبد.

هو فاروق ملك مصر والسودان، والذى لم نعد نذكره إلا فى صورة رجل بدين لم تغادره وسامته تماما فظلت بقايا آثار جمال مدفون تحت طبقات من الشحم واليأس الأبدى..

هى حكاية الإفراط فى كل شىء النساء، والطعام، المال باختصار كل شهوات الأرض..

مسئوليات ومهام جسام عاتية لصبى لم يتجاوز السادسة عشرة من عمره. فاروق شخصية مركبة ومثيرة للحيرة فكيف يعشق الصيد والقنص ويكذب فى عدد العصافير التى أوقع بها!.

فاروق.. البداية والنهاية

أقدار ومصائر مماليك وعروش بدت وكأنها نحتت من المرمر الوردى الحالم ومن بريق الماس والجليد الناصع، نحتت من الثروة والسلطة والجاه، ولكنها فى النهاية ذابت وتلاشت لأنها كانت مثل النقش على السحاب تاركة نسمة قابعة فى رحم الزمن الدافق تهب علينا بين

الحين والحين لتنثر شذى عطر محمل تارة بالشجون تجاه الوطن وتارة بالحنين لما قدكان فى الزمن الغارب. هى حكاية عروش ونعوش، أمراء وسلاطين، بكوات وباشوات وأميرات ومحظيات وهوانم أهل الشرق السعيد.

ونلج لهذا العالم المخملى الذى كان يبدو من الخارج يشع وهجا وبريقا ولكنه كان يعانى الوهن والخواء من الداخل، فكان أن سقطت وهوت ممالك وأمبراطوريات مثل أوراق الخريف الذابلة، هى سقطت ليس لأن رياح التغيير التى هبت كانت فى أغلب الأحيان حركات مدروسة ونابعة من الشعب ولكنها نجحت لأن الأنظمة السائدة كانت قد أصابها العطب والشيخوخة، فكان لابد لرياح التغيير أن تهب بصرف النظر عما تحمله فى أحشائها فنجد ملوكا يعيشون فى صراع دائم، يتأرجحون بين غواية «الشهوة» ونداء العفة، بين الرهبة وبين الرحمة بين الضعف وبين القوة بين تأليه الذات والاستبداد وبين حب الشعب وبسطائه.

وهكذا نشهد بداية من القرن التاسع عشر وحتى منتصف العشرين صعودا وهبوطا، فناءوبعثا، ممالك وجمهوريات صارت بعضها أشد استبدادا من الملكية نفسها وانغماسا فى ظلمة الجهل العقيم، على سبيل المثال نجد أن أفغانستان بمدنها قندهار وكابول فى بداية القرن الماضى كانت تبدو وكأنها مدن شديدة التحضر والانفتاح على الآخر ولكن كان بالرغم من ذلك هناك بعض المظاهر التى تبدو ميراثا وتقاليد عتيقة فنجد مثلا الأمير الأفغانى حبيب الله عام ١٩١٥ فى صورة تجمع بينه وبين ١٤ من محظيات، بل فى القصر هناك ١٥ أخريات، وكان يقع الاختيار أحيانا لأسباب وأهداف سياسية.

أما فى مصر والتى تعتبرقلب الشرق، ومهد الحضارة تظل شخصية «فاروق» الملك الذى كان يثير العديد من علامات الاستفهام والفضول، فكيف تحولت صورة «الصبى الوسيم»، النبيل صاحب النظرة «الناعسة» الحالمة للصور تلك التى ترسخت فى أذهاننا لملك بدين بليد الحس مسكون بالنهم، غارق فى شهواته حتى الثمالة يبدو وكأنه مجرد ابن ذوات أو Play boy وليس ملكا له شعب ورعايا، وحتى وفاته الغريبة فى

مطعم إيطالى وهو فى الرابعة والأربعين من عمره مصابا بتخمة أودت بحياته أو هكذا قيل.

فهل قتل فاروق أم هل انتحر بطريق غير مباشر من خلال تخمة الحواس وليصبح عبر التاريخ اكثر الملوك بدانة وإفراطا فى كل شىء، ويقال إن بدانة فاروق بدأت تداهمه منذ إصابته فى حادث سيارة عام ١٩٤٣.

كيف إذن اصبح فاروق الملك الواعد، ملكا لا يحكم مجرد رمز وفيما بعد مجرد دمية فى أيدى أعدائه فالكل غدر به.

عاش فاروق منذ فجر شبابه ممزقا بين تقاليد الشرق وجاذبية الغرب، بين فؤاد الأب الشرقى ونازلى الأم المولعة بالطقوس الغربية.

عاش صراعا بين نقاء النهار وضيائه، وبين المآذن وتعاليم المراغى شيخ الأزهر حينذاك والذى قال عن فاروق «هو أول ملك يحكم مصر ويتعامل بشكل مباشر مع الشعب ومع البسطاء» ثم عاش صراع غواية الارتماء فى أحضان الليل الجهنمى، المعربد، ليعبث، ويلهو، يقامر، ويغامر فى الكلوبات والكباريهات، فى أوبرج الأهرام وسميراميس وينتقل من خلال يخت المحروسة بين شواطىء فرنسا وإيطاليا فمن الحياة صار يغترف المباهج والمفاتن ونعيم الدنيا وليكن ما يكون وليذهب الوطن إلى الجحيم. وليبتلع الفساد والخواء كل شىء.

عندما تربع فاروق على عرش مصر كان صبيا بديع الطلة، لم يتجاوز بعد السادسة عشرة من عمره كان يتقن الانجليزية والفرنسية والإيطالية وكانت له مربية بريطانية، وفى عامى ١٩٣٦ و٣٧ كان السير «مايلز لامبسون» السفير البريطانى فى مصر يقول عن فاروق هو صبى بسيط، لطيف، يافع وظل لامبسون يقول عن فاروق الصبى او الولد حتى بعد أن أصبح ملك مصر ولقد كان الاثنان يضمران العداء لبعضهما.

أما السفير البريطانى «دونالد كامبل» فى فترة الأربعينات كان يقول عن فاروق: هو شاب سريع البديهة، متقد الذكاء مفعم بكبرياء ملكى آسر، طموح».

وزعيم فرنسا «شارل ديجول» كان يبدو أيضا مفتونا بالملك الشاب

فقال عنه:هو متحفظ، حذر، مطلع وسريع البديهة. ولقد حاول على باشا ماهر أن يجعل من فاروق حاكما وملكا إسلاميا بل خليفة للمسلمين ولكن المحاولات باءت بالفشل مثلما حدث مع فؤاد فى الماضى.

ولقد صرح فاروق ذات يوم لتشرشل بأنه لن يهدأ إلاعندما يخفت أنين البسطاء والبؤساء الموجع إلى الأبد، ولكن يبدو أن هذا الأنين تلاشى فقط فيما بعد فى أذان فاروق.

فلم يعد فقر الفقراء هاجسه كما كان فى بداياته ولكن ظلت تلك الفكرة تراوده فيما ندر ربما فى بعض الليالى الشاحبة كان يأتيه هذا الأنين من بعيد، ولكن على أية حال فبعض الذين عاصروا فاروق قالوا إنه كان بحق يحب شعبه ولو لم يكن محاطا بالمرتزقة، والعملاء والأفاقين والمنافقين والقوادين والمؤامرات والدسائس وحتى من أقرب الناس لأصبح من أفضل الملوك على الإطلاق.

ولكن ماذا يجدى مع حاشية السوء، آفة الحكام فى كل زمان ومكان.وعندما تضاءلت شعبية فاروق وبدأت الأمور وأحوال البلاد تسير من سيىء إلى أسوأ كان قصر محمد على فى المنيل بحدائقه الفريدة البديعة يعد بمثابة المنافس لقصر عابدين حيث كانت تعقد فيه الاجتماعات للبحث فى شئون البلاد.

ولقد شبه وضع فاروق فى هذا الوقت بقيصر روسيا نيكولاس الثانى فقال البعض لو كانت العائلة قد احتوته ويقال إن «محمد على» عشق سيدة فرنسية وأسكنها قصره البديع فى المنيل فكانت حياته مقسمة بين اجتماعات سياسية وحبه للسيدة الفرنسية فى تلك الجنة التى صنعها على أرض حديقته الشهيرة.

وفى عام ١٩٣٨ تزوج فاروق من فتاة رقيقة لها وجه جميل دون صخب تضيئه حميمية جعلت الشعب يحبها، هى فريدة الملكة الفنانة التى أنجبت لفاروق ثلاث بنات ونعمت بحياة زوجية سعيدة هانئة فى البداية وكانت تقول عن فاروق «لم يكن رجلا سيئا أوشريرا، لكنه كان وحيدا يعيش فى شبه عزلة يفتقد الصداقة والأصدقاء، متواضعا، لم يكن يصاحب سوى خدم القصر وخاصة كهربائيا إيطاليا اسمه بوللى وهو

بالمناسبة أول مسمار فى نعش فاروق الملكى ومن أهم أسباب سقوطه.

كانت فريدة فتاة عصرية، متفتحة جمعت بين حب الشعب لها ورغبتها فى تحديث حياة البلاط الجامدة وجعلها أكثر انفتاحا وتحررا، فقامت لأول مرة فى تاريخ مصر بزيارة رسمية فى زى المرشدات مع النبيلة عائشة حسن بدون يشمك، وكانت تبدو فريدة فى الحفلات وكأنها نجمة من نجمات هوليود، وكانت البداية مجموعة من الحفلات تجمع ولأول مرة بين النساء والرجال، وبدت الأميرات الفاتنات بدون يشمك، فتجلى الجمال فى أبدع وأبهى صورة.

كانت فاطمة طوسون، نسل شاه، هان زاده، شقيقات فاروق، ويقول السير لامبسون عن ليالى القاهرة فى الأربعينات «لقد رأيت بها أجمل نساء الأرض» الأميرات يرقصن طيلة الليل، فيبتلع المكان نشوة عارمة ودوارا يتلألأ فيه وهج الماس والياقوت والزمرد ونعومة وغموض الحرير والمخمل وشعاع الثريات وضياؤها ووشوشة الفضة ورنين الكئوس الكريستال.

وفى هذا الوقت كان الفن فى مصر فى ذروة الرقى والفخامة فتجلت الثقافة فى أبدع صورها، ونعمت البلاد بمناخ ليبرالى لا مثيل له كان فى الفن صوت أنثوى صاف عذب كرنين البللور فكانت ليلى مراد بنت الأكابر والباشوات والقصور العامرة وأسمهان الأميرة الجميلة والتغنى بليالى الأنس والنعيم والعز والبهاء والجمال.

ولا أحد ينسى حفلا أقامته شقيقة فاروق مدته أسبوع فى القصر الساحر المهيب ذى الطراز العثمانى- الايطالى فى شبرا ويقال إن محمد على باشا الكبير كان يشاهد النساء من حريمه وهن يسبحن فى مياه مغطس القصر.

أما حفلات شويكار زوجة فؤاد الأولى والتى يقال إنها هى أول من ألهمت فاروق عشقه لحياة الليل والعبث والفسق ولقد حاولت شويكار أن تنسى فؤاد فتزوجت بشاب يصغرها بكثير.

ويقول لامبسون إنه ذات ليلة شاهد هو وعائلته فاروق فى أوبرج الهرم يقذف رواد المكان بكرات وفى عام ١٩٤٨ تم طلاق فريدة وفاروق وكان

رصيد الحب الذى يكنه الشعب للملك قد تضاءل بشكل كبير ومن ثم تزوج فاروق للمرة الثانية عام ١٩٥١ من فتاة من عامة الشعب ربما من اجل استعادة بعض الحب المفقود، هى ناريمان أو كما يطلق عليها أصدقاؤها نارى.

ولقد قالت عن فاروق «هو أكثر بساطة وتواضعا وطيبة من الطبيب الذى تزوجته بعد طلاقى».

فى قصر السلطان عبدالحميد

العالم الساحر لسلاطين وملوك الشرق هو حلم مهيب مازال يغازل مخيلة الغرب.

ومن ثم ستظل الأسطورة الشرقية نبعا لا ينضب ينهل منه دون ارتواء المؤرخون والمستشرقون.

والآن نلج للعالم الملكى للإمبراطورية العثمانية بداية من السلطان عبدالحميد فى تركيا والخديو إسماعيل وتوفيق والخديو عباس حلمى وحتى آخر ملوك مصر فاروق هو عالم ملتحف بالترف والبذخ والمجد والجاه، فالتاريخ هو رواية أو حكاية الأمراء والملوك.

وأحيانا يثير الحنين فينا زمن فخامة السلاطين يبعث فينا المتعة والدهشة، النشوة والنوستالجى فى آن لما قد كان من حواديت الملوك عبر الزمان.

وهناك محور شديد الجاذبية وهو غرام الملوك، كيف يعشقون بداية من السلطان عبدالحميد الثانى أكثر السلاطين فى التاريخ ولعا بالنساء وحبا للحريم. أيضا الخديو إسماعيل الذى تزوج بأربع عشرة امرأة هذا إلى جانب المئات من المحظيات، ثم علاقته المتأججة الشهيرة بالإمبراطورة أوجينى.

أما الخديو توفيق فلقد اكتفى بزوجة واحدة وأخيرا الملك فاروق آخر ملوك السلالة العثمانية والذى يشبه إلى حد كبير أجداده من ناحية عشق النساء.

وهناك حقبة من التاريخ شهدت أوج الإمبراطورية العثمانية ثم

انكسارها، وتفتتها وعزل سلاطينها الواحد تلو الآخر ثم أيضا نجد ذروة المجد والبريق الشاهق لملكة مصر ثم زوال العرش الذى اقترن بمأساة فاروق سواء على المستوى الشخصى أو العام ولكن أيضا هناك أحزان أجمل شقيقاته بل أجمل الأميرات الأميرة فوزية أخت فاروق المدللة.

رأيتها ذات صباح منذ سنوات، سوف أذكر هذا اليوم ما حييت، فلها جمال من فرط شدته يوحى بالرهبة. فى عينيها لون وشجن البنفسج، بشرتها فى نعومة وضياء الياسمين. ذكرتنى بلوحة فان جوخ الشهيرة جدا عندما جمع بين الشمس والقمر فى آن واحد.

ولقد بدأ فى مصر الإعداد لمشروع زيجة تجمع بين شاه إيران محمد رضا بهلوى وبين فوزية الأميرة الفاتنة.

ولقد حضرت إلى مصر الأميرة أشرف بنت رضا شاه وكتبت تقول «إن بلاط مصر بقصوره وحفلاته وطقوسه وعراقته يبدو تارة وكأنه صورة من حواديت ألف ليلة وليلة الخلابة الساحرة وحكايات ملوك الإنس وملوك الجان. ويبدو تارة وكأنه قطعة من فخامة وبهاء فرساى.ولم أر قط أجمل أو أنبل أو أرقى من هوانم وأميرات مصر».

والحقيقة هى أن الأميرة فوزية كان قدرها الحزن فقد فشلت الزيجة المصرية- الإيرانية فشلا ذريعا.

وعندما ذهبت الملكة نازلى إلى إيران لرؤية فوزية ذهلت على حد قولها من بدائية وهمجية البلاط والحياة حينذاك.

وعادت الإمبراطورة فوزية إلى مصر فى حالة من الهزال والسقم والمرض بعد أن أنجبت بنتا لا يعلم أحد عنها شيئا. وفوزية هى بحق ست الحسن والجمال، فبعد طلاقها من الشاه تزوجت من إسماعيل بك شيرين وأنجبت ابنة تزوجت من ممثل مصرى، ولم تكن فوزية ترغب لابنتها هذه الزيجة.

ولقد عاشت فوزية العديد من الانكسارات، فهوى عرش أسرتها الذى كان، وتبعثرت شقيقاتها فى أنحاء العالم وقتلت فتحية ومات فاروق غريبا وحيداً منفياً. وهكذا بدت حياة فاروق مثل مأساة إغريقية.

بدا وكأنه طفل لم ينضج وملك لم يحكم، سيطرت عليه شهوة عارمة

للنساء والطعام ولكنه لم يعرف قط الارتواء. لقد فشل فاروق فى أن يحكم أقرب الناس إليه نازلى الأم المتمردة التى حبسها زوجها فؤاد فى الحريم بينما كانت النساء المنتميات إلى طبقتها حينذاك يتمتعن بقدر من الحرية وهو ما تم بعد وفاة الزوج المتسلط، فخرج الماردمن قمقمه لتطعن فاروق طعنة سافرة فى قلبه وكرامته فلقد اعتنقت الكاثوليكية وأصرت على تزويج ابنتها فتحية من القبطى رياض غالى والذى قتل زوجته فيما بعد.

ولقد تبرأ منها فاروق فيما بعد إلى الأبد، فعرف الملك المهانة عن طريق أقرب الناس إليه ولم يستطع فاروق أن يحكم شعبه، فلقد فشل فى السيطرة على البلاد وفقد حب شعبه وصار دمية فى أيدى الأنجليز.

وكان مولعا بامتلاك الأشياء والمقتنيات إلى حد الهوس أو Mania ويقال إنه كان يمتلك علبا من الذهب الخالص وأسلحة ومقتنيات Fabergé لدرجة أن صالة مزادات Sothbey أنفقت أسبوعين من أجل بيع مقتنيات الملك.

وهكذا حاول فاروق تعويض فشله فى امتلاك المشاعر والسيطرة على البلاد، وتعويض ضعف شخصيته من خلال الأشياء وأيضا من خلال الصيد والقنص.

وفى رواية صبرى موسى الفذة فساد الأمكنة وجود طاغ لشخص فاروق أو الرمز الأبدى للحاكم الفاسد وفساد الأزمنة والأمكنة يقول: «ولكن أسعدها أنها تكاد تكون عارية بينما كان صاحب الجلالة يضغط بكفه السمينة على أصابعها التى مدتها مسلمة. كانوا يتوقعون جلالته فى الغد، حين يتحرك مبكرا من معسكره الذى نصبه الحرس على حافة رأس بناس الرملية، ليواصل رحلته لصيد الغزال فى وديان جبل علبة».

فساد الأمكنة وشخصية الملك الشهوانى يحملان أحيانا معنى الملوك إذا نزلوا أرضاعاثوا فيها فسادا.

أما الغريب واللافت أنه عندما وقع انقلاب ٥٢ شعر فاروق بارتياح ولقد قال للضباط الأحرار:

«لقد فعلتم ما أردت دائما أن أقوم به منذ زمن طويل».

وفى النهاية ماذا بعد أن هوى العرش، عاش فاروق وحيدا غريبا منفيا فى إيطاليا، الكل تخلى عنه باستثناء اثنين من الحراس الألبان، ولكن لم يسأل عنه أحدحتى «بوللى» أداة سقوطه الذى زار إيطاليا، وأصبح ألد أعدائه ولم يتصل به. لم يتبق للملك الذى جاءته الهزيمة دائما وأبدا من الداخل ومن أقرب الناس إليه سوى الطعام والنساء لدفن الآلام ووأد الأحزان، والهروب من الأحلام التى بترت وأجهضها الزمن فى مهدها.

أحد الذين عاصروا فاروق رجل يعيش الآن فى إنجلترا فى كيسنجتون قال:

«فاروق كان أحيانا مرعبا، وأحيانا فى منتهى اللطف.. مسكين فاروق الملك الذى كان»!

هناك حكمة قديمة تقول: «إذا أردت الثراء فلتذهب إلى الهند، وإذا أردت أن تتعلم فاذهب إلى أوروبا، ولكن إذا أردت الفخامة الملكية، والعز المهيب فلتذهب إلى الإمبراطورية العثمانية».

ومن ثم نذكر هنا السلطان عبدالحميد الثانى أعظم من تربع على عرش الإمبراطورية العثمانية منذ عام ١٨٧٦ وحتى١٩٠٩.

كانوا يطلقون عليه لقب الباديشاه «Padishah» وهو ما يعنى «طويل العمر السلطان العثمانى».

عبدالحميد آخر السلاطين العظماء شخصية تثير الجدل فهو أشهرشخصية تكاد تغرق فى الازدواجية. قيل عنه له نظرة عين حادة، جذابة، قاتمة، توحى بالقدرة على اقتراف الشر ولكن أيضا القدرة على فعل الخير بلا حدود، هكذا أراد أن يبدو الباديشاه يملك الثواب والعقاب.

من خلال نظرة عين قالوا عبدالحميد هو طاغية، حيوان مفترس متعطش للدماء هو وراء مذابح الأرمن وقمع المعارضة، ولكن المدهش أنه كان بالرغم من استبداده وقوته كان يستمع للرأى الآخر والشورى ومولعا بالاستنارة والانفتاح على الآخر وكان قصره المنيف مكانا لاجتماع الصفوة من أهل الدين مثل جمال الدين الأفغانى وأهل العلم والفن وكانت حينذاك استنبول والقسطنطينية عاصمة الدنيا بجانب

القاهرة، كانت مدينة كوزموبوليتانية تتجاور من خلالها المسيحية والإسلام فى ائتلاف تام.

ولكن كان عبدالحميد يحكم رعاياه وشعبه وإمبراطوريته الشاسعة فى أفريقيا وآسيا وأوروبا بالدم والحديد والنار، ولكن عبدالحميد كان يحكم حريمه بأسلحة مختلفة تماما فهو عاشق مفتون بالأنثى له من المحظيات ١٥٠٠ ومن الزوجات من ظللن باقيات على قيد الحياة حتى الخمسينات.

هو كان يحكم حريمه بالنفيس والحالم ببريق الماس والياقوت، بغموض ونعومة الحرير والمخمل، يهيمن على نسائه الجميلات بالمتعة، بالشهوة باللكوم والأفيون، بالفستق والزمرد بالأبواب المغلقة المرصعة باللؤلؤ والديباج، بالمرايا البديعة على الطراز الإيطالى.

تشهد ليالى العشق والهوى المبللة بماء الورد فى قصور «توبكابى» «Top capy» ويلدس ومابين «Mabeyn» وقصر دولماس حيث الفن الأوروبى الإيطالى والإسلامى، مزيج من الشرق والغرب الماضى العتيق والحاضر النضر، الطازج.

وفى قصر يلدس المبنى على طراز الشاليه السويسرى كان هناك للحريم مسرح حيث تقام المسرحيات الفرنسية الراقصة وموسيقى فيردى ويوتشينى، وشوبان وهناك متحف ومكتبة عامرة بالإبداعات الفارسية والفرنسية والألمانية، وهناك أيضا مدرسة للأميرات أما الحمامات فكانت من المرمر الإيطالى الوردى والذهب وكان لرئيس الأغاوات فى الفترة تلك سلطة طاغية فكان رئيسهم هو الذى يغلق الأبواب المرصعة باللؤلؤ عند ذبول الليل على الحريم وبعد سقوط عبدالحميد أعدم رئيس الأغاوات.

ولقد عشق عبدالحميد فتاة فرنسية تدعى إيميه لودوك خطفها القراصنة وهى صبية وبيعت لعبد الحميد ولقد أحبها حبا جما وخلدها الأديب الفرنسى ميشيل دى جريس فى رواية «ليل حريم السلطان» ومثلما اشتهر عبدالحميد بأنه نجح فى تحقيق الاستقلال السياسى والاقتصادى لإمبراطوريته وهو ما يعد أهم إنجازاته فلقد اشتهر بمغامراته النسائية ولقد ألهمت مغامراته الشاعر نزار قبانى

فيقول «ماذا أريد؟ يا وارثا عبدالحميد المتكى التركى والنرجيلة الكسلى تئن وتستعر. والشركسيات السبايا حول مضجعه الرغيد يسقطن فوق بساطه. جيدا فجيد، وخليفة الإسلام والملك السعيد يرمى.. ويأخذ ما يريد.

لا.. لم يمت عبدالحميد.. فلقد تقمص فيكم عبدالحميد هنا. حتى على السرر المقوسة الحديد. نحن النساء لكم عبيد كم مات تحت سياطكم نهد شهيد».

ولكن عبدالحميد السلطان العظيم، كان يراوده دائما هاجس أن يشاركه أحد ملكه فكان يعانى من البارانويا ومن ثم بدأ يتخبط فى قراراته حتى اتهم بأنه السبب فى قيام حرب أهلية وثورة الأتراك فتم عزله و تولى الحكم شقيقه محمد الخامس عام ١٩٠٩ والحكم فى الإمبراطورية العثمانية يكون دائما للأكبر سنا وليس من خلال حميمية صلة القرابة مع السلطان.

ولقد قام السلطان محمد بتسريح حريم عبدالحميد الألف وخمسمائة منهن شركسيات وأوروبيات عدن إلى بلادهن وقام بإهداء ألف حصان كان يملكها عبدالحميد للجيش، وبيعت مجوهرات عبدالحميد النادرة فى باريس.

والحقيقة أنه بالنسبة لعالم الحريم فى الزمن الغابر كما ذكرنا سالفا، كان حريم مصر هن الأكثر تحررا. وهناك درجات فى الحريم فتوجد odalisque «أوداليسك» ثم «الفافوريت» أى المحظية المفضلة فهى الأكثر سلطة وتأثيرا وأخيرا «الإقبال» EKbal والطريف أن كلمة Odalisque أى المحظية هى فى الأصل كلمة أودة التركية حيث كانت المحظية تمكث فترة فى الأودة أو الحجرة من أجلها تهيئتها وزينتها لتليق بالسلطان أو السيد المالك الجديد لمفاتنها.

والحقيقة أن فى تاريخ مصر يوجد منافس خطير للسلطان عبدالحميد فى عشق النساء هو الخديو إسماعيل والذى أيضا يعتبر شخصية تثير الجدل واختلاف وجهات النظر. فالبعض يراه وراء نهضة وعملية تحديث هائلة لمصر مثل محمد على باشا الكبير

وإنجازات ضخمة فى مجال التشييد والبناء والفن والثقافة الراقية والبعض الآخر يراه وراء نكبة الديون التى كبلت مصر. أما الوجه الآخر الذى لا خلاف عليه هو ولعه بالنساء وعشقه لوالدته التى كانت فاحشة الثراء والقوة وتعيش فى أضخم قصر فى مصر وكانت مشهورة بحفلاتها البديعة وطعامها الشهى فاشتهرت أكلة «متعة السلطان» هى عبارة عن مكسرات، باذنجان ولحم وقرفة وأيضا طاووك جولز عبارة عن فراخ بالسكر والمهلبية!

الفصل

7

غرام الملوك

- الحكايات السرية لزواج الجمال والسلطة.
- الوصايا الفارسية في العشق.
- شاه إيران..والحب من أول نظرة!
- أغلى طلاق في العالم!!

عالم الملوك.. السلاطين.. الأباطرة والأميرات الجميلات يبدو مثل دنيا مسحورة نحتت من المرمر الوردى والبللور، أقرب إلى الأحلام الأثيرية حيث كل شىء ممكن.. كل شىء مباح.. فالتاريخ زاخر بما يسمى بغرام الملوك.. حكايات الحب وقصص الهوى التى تحولت إلى زيجات شهيرة كانت بمثابة الزينة النفسية البهية لعروش وممالك الشرق والغرب..

فكان أن دون الزمن أقدار ومصائر ملاحم عشق تحولت إلى أساطير لا تشيخ، فواحة بشذى عطر أبدى مفعم بالفخامة، نسمة نبيلة، طرية تحمل فى طياتها مزيجا من البهجة والحزن، تلفحنا بين الحين والحين فى مواجهة عالم مثقل ببرجماتية طاحنة..

استرجاع تراث عشق الملوك نوع من البحث عن الزمن المفقود الجميل بكل رونقه الدافق.. التحليق فى حالة من الشجن اسمها الحنين أو النوستالجيا لما قد كان..

هى مجموعة من السير الذاتية والاعترافات السرية لكوكبة من أصحاب الجلالة والسمو الذين وقعوا تحت وطأة سلطان آخر غيرالمال، الجاه.. وغواية الملك.. هو الحب..

كيمياء طاغية.. تعويذة سحرية، لحظة آمرة.. ناهية لا يفلت منها امبراطور مهيب أو عبد فقير، سلطان عظيم أو صياد معدم، مسكين، قدر محتوم لا يفر منه الملوك،، الأمراء، الحطابون والبسطاء.

ملكات من ألف ليلة وليلة

فكانت ذات يوم حكاية شاه ايران محمد رضا بهلوى وزيجته الشهيرة المدوية من الأميرة فوزية سليلة الجمال العثمانى الفاتن شقيقة فاروق الملك الذى كان والتى أصبحت فيما بعد امبراطورة، ثم زواجه بثريا اصفنديارى بختيارى..

أيضاجريس كيلى النجمة السينمائية التى كانت حتى زواجها بالأمير رينيه فأصبحت جريس دى موناكو، ولقد تزوجت مؤخرا ابنتها الأميرة ستيفانى -ولكن مع الفارق- من بهلوان، لاعب سيرك برتغالى!!

وهناك قصة الحب التى جمعت بين فرنسوا جوزيف امبراطورالنمسا والجميلة اليزابيث أوسيسى osissi والتى كللت بالزواج حتى يوم مقتلها .. ثم أخيرا الأمير تشارلز وديانا سبنسر حكاية تأرجحت بين وهج بداية رائعة تعد بالسعادة ونهاية مأساوية مغلفة بالغموض تلتحم بتراث انسانى اعتادته البشرية منذ الأزل.. الحقيقة الغائبة.

هى حكاية قديمة.. جديدة، اقتران الجمال والسلطة، الفتنة، الجاه والمال.. تعويذة سحرية طالما داعبت مخيلة البشر.

فوزية، ثريا، جريس، إليزابيث وديانا..

وجوه بديعة غارقة فى الحسن، مزينة بالماس، الزمرد والديباج. تبدو كأنها بزغت من أغوار حواديت الطفولة المبللة بماء الورد وضياء الياسمين، حاكتها الساحرات الطيبات، لتذكرنا بسندريلا، الجميلة النائمة وبياض الثلج، وتارة بحكايات ألف ليلة وليلة تحمل فى طياتها عجائب وخوارق معجزات الإنس والجن، مغارات حبلى بالدر والجواهر تحكى عنها شهرزاد فى لياليها الألف..

حكايات لجميلات صرن مثل ايقونات نأنس بهن فى مواجهة واقع جاف محبط..

ومن عبق شهرزاد الفارسية الجذور، والعالم المخملى للحريم وبلاط السلاطين الخطر بكل مؤامراته ومكائده كانت ثريا ابنة الفرس والعجم

تنويعة على نفس لحن بطلة «ألف ليلة وليلة»..

الحكاية الأولى

ثريا اصفندياري بختياري تبدو مثل زهرة برية في عينيها زرقة ماء البحر وخضرة أشجار الخريف المبللة، البشرة شهباء بللورية والشعر في عتمة ليل فارس..

طفلة مثل الأخريات تلهو في حدائق وبساتين اصفهان المزهرة لم تكن تدري وهي تنظر لسماءاصفهان الرحبة المزركشة.. بالنجوم.. ان الطائرة المحلقة من بداخلها سوف يصبح زوجا لها بعد عشر سنوات هو ملك الملوك شاه ايران محمد رضا بهلوى، لم تكن أيضا تعرف أن الصورة المعلقة على حائط الفصل بالمدرسة بجانب المدفأة للشاه وزوجته الامبراطورة فوزية حينذاك هي للمرأة التي سوف تخلفها على عرش وقلب الشاه، فتقول ثريا في كتابها البديع أو سيرتها الذاتية «قصور الوحدة» كانت صديقاتي يعلقن على صورة فوزية «أنت تشبهيها».. ما أجمل فوزية كانت تصلح أن تكون زوجة لكلارك جيبل في فيلم ذهب مع الريح!!

ثريا بختياري أو الامبراطورة الحزينة التي رحلت مؤخرا عن دنيانا، هي من أعرق عائلات وقبائل ايران قاطبة، فمدينة بختيار تقع في قلب ايران، هي أقرب لدولة داخل دولة، جد ثريا من ناحية الأب ساردار أسعد كان لديه جيش خاص به، خدم، أراض في جوفها الذهب الأسود أو البترول، له ضياع وبساتين، له حريم ومن الزوجات والمحظيات سبع، كان يعدل بينهن ويغدق عليهن وكما يقال في ايران «لن يموت أبدا من كان قلبه بالرغبة مفعما»، كان مولعا بالبذخ والرفاهية، لم يذهب قط إلى أوروبا ولكن كان يبعث بخادمه الأمين إلى موسكو وسان بطرسبورج لشراء الأطلسي، الحرير والمخمل واقتناء كريستال بوهيميا، وأطباق من الذهب والفضة.

نشأت ثريا في دار فخمة، فسيحة ذات أعمدة شاهقة كانت ملكا لعائلة الكاجار الحاكمة لايران قبل عائلة بهلوى، وكانت الحديقة مكتظة

بأشجار اللوز، الكرز، الياسمين والبنفسج.

افراح وأحزان ملكية

تُرى فى قلب تلك الجنة الصغيرة الهانئة كانت ثريا تتخيل أنها ذات يوم ستصبح امبراطورة بلاد الفرس وأنها سوف تقع تحت وطأة سحر ملك الملوك، الذى سيصبح متيما بها لسبع سنوات ولكن ملك الملوك «الشاهنشاه» لا يقبل أن تكون زوجته عاقرا فلابد من وريث ذكر للعرش ومن ثم كان الانفصال ضرورة مؤلمة محتومة.. فثريا الألمانية الأم تجرى فى دمائها تجليات نيتشه، فاجنر، جوتة، ثقافة، كبرياء، صلابة، زهو بالذات، ومن تراث فارس حلمت بعمرالخيام، الشيرازى، ألف ليلة وليلة.

رحلات الصيد والقنص مع آل بختيار، ومن ثم الجلد والقدرة على ترويض الذات، ثم تأتى الثقافة الفرنسية التى نهلت منها لترتوى فكان بودلير، فلوبير، هوجو، فيرلين، وستندال.. فلم يكن من الممكن أن تقبل بحل وسط أى أن يتزوج الشاه من امرأة أخرى حتى ولو مجرد زيجة عابرة من أجل ذرية يفرضها الملك، فثريا الآرية من ناحية الأب والأم لا تقبل بامرأة أخرى فى حياة الرجل الذى تحب..

والطريف أن الشاه رضا بهلوى والد محمد بهلوى هو الذى غير اسم بلاد فارس وجعله ايران نسبة للجذور الآرية للفرس، مماجعل الألمان يقتربون أكثر لشعب فارس، تغيير تجده الامبراطورة ثريا فى غير محله بالرغم من أن زوجها كان فخورا به وكان يكرر أن والده صنع نهضة شاملة فى ايران من تحديث وبناء وتشييد خلال عشر سنوات -مدة حكمه- فاقت ما أنجزه حكم الكاجار خلال ١٢٠ عاما ومن المعروف أن والد الشاه كان ضابطا فى جيش الكوزاك وقام بانقلاب واستولى على عرش الكاجار.

تقول ثريا عن والدتها الألمانية كانت شقراء، هادئة من عائلة بروتستانية متحفظة، فى موسكو ولدت حيث كان والدها صانع أسلحة دعاه قيصر روسيا حينذاك ألكسندر الثانى.. ثم عادت إلى المانيا..

وفى برلين فى الثلاثينيات أى ما يسمى بالسنوات المجنونة، كانوا يرقصون هناك الفالس، فكان الحب بين أبى وأمى على أنغام شتراوس

ولقد فعل أبى الكثير من أجل اقناع عائلته المتشددة بأنه أثناء دوار الفالس اللذيذ سبته شقراء فى السادسة عشرة من عمرها..

كانت ثريا الابنة لثقافتين وحضارتين مولعة باقتراب الأعياد، تعشق الكريسماس، الطقوس تلك التى تشع حميمية ودفئا، أشجار عيد الميلاد المنقوشة بالألوان المبهجة، المزركشة بالجيرلاند الفضى مطرزة ومرصعة بالنجوم المضيئة حمراء وذهبية وبابا نويل.. عاشقة هى للأناشيد والتراتيل المقدسة، هدايا وحلوى عيد الميلاد، ترنيمة الفجر، كرات الجليد الناصعة، الشهباء فى هذه اللحظات..كانت تشعر أنها مسيحية..وفى نفس الوقت كان هناك تأثير الأب المسلم، الايرانى، فها هى رحلات الفروسية والصيد فى الهواء الطلق..صحراء شاهقة.. ذهبية يبتلعها صوت الصمت وفحيح الرياح والعواصف حيث الجوع وقسوة العطش، كان والد ثريا يدفع بها رويد، رويدا إلى عالم بختيار حيث ترويض النفس، رباطة الجأش، الصبر، القوة، الانتصار على الذات و سحق شهواتها فكانت الصغيرة ثريا تتألم من رؤية الغزال الجميل الغارق فى الدماء ولكن كان لابد من التحمل، هناك كانت تشعر ثريا أنها مسلمة..

وهكذا عاشت الامبراطورة الجميلة طيلة حياتها فى صراع مزمن، ممزقة بين حضارتين مختلفتين، فوسط أطفال ايران بتلك البشرة المرمرية، الناعمة والعيون الباستيل الصافية كانت تبدو غريبة، أيضا وسط أهل الغرب كانت تبدو باطلالتها النبيلة والقامة تلك الملكية ميراث أهل فارس، كانت مختلفة ومن ثم عاشت حياتها فريسة عزلة ذاتية، سجينة محارة نفيسة اسمها التميز والاختلاف.

الوصايا الفارسية فى الحب

ذكريات طفولة هانئة، معطرة برحيق الشهد والزهر، ملونة بظلال فراشات هائمة، مبهجة ولكن فى هشاشة مثل سعادة سوف تداهم الجميلة ثريا فى اشراقة الصبا وسريعا ما تذبل عندما ينفرط عقد الأيام لتصبح مالحة، جرداء، موحشة..

تتذكر ثريا.. قيظ القيلولة وأحيانا صقيعها والمربيات فى حديقة

اصفهان، الحلوى المصنوعة من العسل، العصائر، وحواديت عن الخليفة والحمال، وخان التجار، ست الحسن والجمال، حواديت الجارية المليحة التى تتلون حسب الأحداث التى مرت بها المربية أثناء النهار فتارة تكون الحدوتة مبهجة وتارة كئيبة. وكان هناك نوع من التمهيد لمشاريع الزواج.

فكانت مربيتى تقول لى ما رأيك فى أحمد.. على سبيل المثال والحقيقة اننى كنت بعيدة كل البعد عن عالم الأنوثة والذكورة فكنت أفضل اللعب بفرع شجرة أو اكتشاف عش عصافير التسلق أو اللعب فى الماء مع الدمى أو كل ما تعشقه الصبايا، كنت بريئة وبدائية فى آن واحد..

كانت الحكايات عن طقوس الزواج الايرانية لا تنضب فعلى سبيل المثال يوم عقد القران كان يجب أن يكون هناك مرآة شاهقة ينظر فيها العريس والعروس وكلما كانت أضخم كانت السعادة مضمونة والوصال أعمق ومن ثم كانت العروسة هى التى تأتى بها! فالنساء هن اللاتى يجلبن كل ما هو جميل، مقدس وفخم وأذكر يوم زواجى بالشاه جاء هو بأكثر المرايا عملقة!

يقولون فى ايران ان قيمة المرأة تقاس بكم الغموض والرغبة التى تثيرهما ومن بين الوصايا التى لم أكترث بها لحظة زواجى بالشاه عندما سئلت: «تقبلينه زوجا لك» كان من المفروض أن أجعل السؤال يتكرر لكى لا أظهر لهفتى ولكنى لم أستطع، فملك الملوك يجب ألا ينتظر طويلا.. كنت أعشق احتفالات رأس السنة الايرانية عبارة عن مأدبة، مفرش ناصع البياض، غابة من الورود تزينه و٧ أطباق بحرف السين تجلب الحظ، فأل خير، على سبيل المثال سمك، سمسم..

وعندما بلغت ثريا من السنين سبعا كانت تحلم أن تصبح شرطية مثل شارلوك هولمز، أرسين لوبين أو هرقل بوارو، وأن تعيش فى المدن الكبيرة باريس، لندن حيث الجريمة مروعة وجاك السفاح يعربد فى أزقتها المعتمة، وفيما بعد أثناء الدراسة فى مونترو بسويسرا أصبح التمثيل رغبة ملحة تراود مخيلة الصبية الفارسية الجميلة.

نسيم هذا الزمن محمل بأطياف وعبير ريتاهيوارث فى جيلدا، أفلام زيجفيلد، الأنشودة الريفية، جودى جارلاند، ميشيل مورجن، مسرحيات

موليير، راسين كورينى.. الحياة فى مونترو، لوزان، بحيرة لوجانو، رياضة التـزحلق، الثـرثرة مع الزميـلات من كل الأجناس والأعـراق فى الفن، السياسة، السفر، فن الطبخ، التردد على المقاهى، أحمر الشفاه، الكعب العالى، فتحات الصدر السخية، استجداء أنوثة قبل أوانها، الضحك، اللامبالاة، غلالة من الخدر والبهجة تتلفح بها الحياة حينذاك..

وكلمات أبى رنينها فى أذنى: أنت فتاة نجيبة «Nagip» كلمة فارسية تعنى «فاضلة»..

لا اكترث بتهافت الشباب من حولى ٣ من أسرة الكاجار تقدموا لخطبتى والطريف أن من بين الأسئلة التى تحسم قيمة العروس «هل قرأت مدام بوفارى لفلوبير»؟..

وبالرغم من تأثيرى الانثوى الطاغى على الرجال إلا أننى لم أستطع أن أدلف إلى عالم الرجال والنساء والعلاقات العاطفية المتأججة.. كان هاجسى التمثيل، وازاء إلحاحى الذى لا يخمد قال لى أبى أنت تتقنى الآن الفرنسية ولكن يجب أن تتقنى أيضا الانجليزية لغة شكسبير، فكان ان ذهبت إلى لندن لأقيم لدى خالتى شوكت بجوار سان جيمس بارك. ولداها جودار وملك شاش كانا يقومان بمراقبتى وحراستى.. ولكن لا أنسى الليلة تلك فى لوزان.. الرعد.. البرق.. أمطار تهطل وكأنها حبلى بنبوءة ما.. مصير وقدر فريد ينتظرنى قابعاً فى رحم الأيام المقبلة.

وهكذا ذات نهار لندنى خريفى طلب جودار ابن خالى أن يصورنى لأن صورى كلها عتيقة وأبدو فيها كأنى قطعة جبن بيضاء وأن خالتى فروج سفر تريد بعضاً من صورى فى طهران.. فاستسلمت لآلة التصوير وأنا لا أدرى السبب الحقيقى..

وفى المساء كان حفل استقبال فى السفارة الايرانية على شرف الأميرة شمس شقيقة الشاه والحقيقة هى أنى أشعر بالنفور من عائلة بهلوى فلقد شنوا حربا شعواء على القبائل والعشائر الايرانية من أجل فرض الهيمنة خاصة على آل بختيار من أجل اخضاعهم والاستيلاء على أراضيهم المكتظة بالنفط ولكن كان فى أعماقى رغبة أن أرى الأميرة

شمس، وأستعيد من خلال ذاكرتى فيلم زواج الشاه بفوزية والعربات المحملة بالهدايا الثمينة التى أحضرتها فوزية أجمل نساء الأرض من مصر.

ملك الملوك والحب من أول نظرة

وفى حفل السفارة كانت الشمبانيا، الكافيار، اللآلىء، عبق الشرق، عطر فواح ميراث ألف ليلة وليلة.. ووجدت الأميرة شمس انثى شديدة الجاذبية، ذكية ومن الآن فصاعدا صارت لا تفارقنى فى لندن مثل ظلى وبعدها فى باريس وروما، كانت تحدثنى عن شقيقها وكيف انه يعيش وحيدا فى قصر الأحزان بعد أن تركته فوزية ورحلت منذ ثلاث سنوات، فلم يكن يدرى فى البداية أنها هجرته وإلى الأبد، فلقد شعرت هى بالسأم والضجر من الحياة فى قصور ايران، ومن تلك العيشة البدائية فى بلاط فارس مقارنة بالعالم الملكى، المخملى فى مصر، ولقد حاول الشاه النسيان من خلال السفر إلى أمريكا وأوروبا، والمغامرات مع عدد هائل من النساء، فمتعة الجسد شىء عادى فى ايران بالنسبة للرجال فقط بطبيعة الحال.. ان الشاه أصبح يشتهى حياة عائلة مفعمة بالدفء ولقد قالت لى شمس انه رأى صورتى عند والدته الملكة الأم تاج الملوك وانه بحبى صار متيما، هو يحدثها كل يوم فى الهاتف ويبعث برسائل يتكلم عن ملامحى الطاغية الفتنة.. فترى هل أقبل أن أكون زوجة بالرغم من فارق العمر بيننا، فأنا فى السادسة عشرة من عمرى وهو فى الثلاثين، هو خجول، لايعرف الضحك أو السخرية هكذا كانت توحى إلى شمس أنه تكتيك مسكون بالدهاء، المكر والمكيافيللية، هى تقلل من شأنه كى لا أصاب بخيبة أمل عند رؤيته..

هل تصبحين ملكة على ايران.. كلمات تداعب مخيلتى ولكن لا أعد بشىء فأنا لم أقابله بعد، ولكن صورة الأميرة الساحرة تلازمنى، حكايات تبزغ من جدائل الطفولة المسحورة والأيام تسكب شهدها هو يبدو تارة مثل شهريار هذا الملك الحزين، البائس، يعيش فى قصر من المرمر والأحزان وربما أكون أنا مثل شهرزاد ابنة الوزير، الحكيمة، الذكية التى

استطاعت أن تهب الملك الترياق الشافى وتخرجه من دنيا الأحزان القاسية ليلج إلى عالم أكثر بهجة ومتعة..

وهكذا ذهبت مع الأميرة شمس إلى باريس..فندق الكريون ميدان «الكونكورد» كوبرى بون نوف، صالونات الشاى، هواء باريس مشحون بعطر أمسيات خريفية، بيوت الازياء ديور، بالمان، جاك فات، المقاهى، المسارح أقتنى أزياء تناسب مرحلة النضج، أدلف الى مواسم الأنوثة المزهرة، حديقة التويلرى، جو سينمائى، كلمات من أبيض وأسود «سوف تصبحين ملكة» تلونها مخيلة وشاعرية فتاة حالمة أضحك وأقرر الفرار من الاجابات..تردد شمس: الشاه يتحرق لرؤيتك.. هورياضى، يجب أن تمارسي الرياضة.. شمس: هى بمثابة بيجماليون، تريد نحتى كتمثال من رخام ولؤلؤ..

ترى هل كانت تدرى ثريا فى يوم من الأيام أنها سوف تتزين بماسة تزن ١٧٠ قيراطا.. ترى أكانت تتخيل انها تعيش جذوة الحب لسنوات سبع، ذروة المجد والسعادة ثم فيما بعد مرارة الانفصال، الهجر، النفى والوحدة وهل كانت تعرف عبارة شكسبير الشهيرة: «من اختار أن يحب سوف يجرح فى فؤاده»..

بدت قصة حبها وزواجها من ملك الملوك او الشاهنشاه اقرب لحكايات ألف ليلة وليلة..فواحة بشذى عطر الشرق الآثر، حيث يتلاشى المستحيل ويعربد الخيال حتى الثمالة.. فالبداية تبدو مشرقة، متوهجة حاكتها ساحرات الحواديت الطيبات.. فكأن مصباح علاء الدين يلبى.. يحول الأحلام إلى حقائق وردية، ولكن النهاية بدت فى الاحزان غارقة تكاد تطابق المآسى الاغريقية..

ثريا من اعرق عائلات وقبائل ايران قاطبة..

لم تكن تدرى انها هى أيضا سوف تقع فى حب الشاهنشاه ومن اول نظرة ولم تكن تعرف انها سوف تقع ايضا فريسة لمؤامرات ومكائد البلاط والقصر.. وان القدر سيضربها فى مقتل ويضن على الامبراطورة الجميلة بما يمنحه لأفقر وابسط نساءالارض.. الذرية ومن ثم الوريث لملك الملوك..

فخامة السلاطين

تقول ثريا: فى باريس وروما لم تعد الاميرة «شمس» شقيقة الشاه تفارقنى استعدادا للقاء الاول الذى سوف يجمع بيننا..

روما.. الازقة العتيقة حبلى برائحة الزمن مازالت مقيمة فى الذاكرة.. آثار «كاراكالا»، «الكوليزيه»، «بياتزادى اسبانيا».. الدرجات المزهرة المرصعة بالورود، «فياكوندوتى».. اقتنى انا والاميرة شمس الملابس والاحذية.. هى الآن بمثابة بجماليون او الساحرة صانعة المعجزات تعيد صياغتى لأكون زوجة لشقيقها..

بوتيكات «جوتشى»، «بوتشى»، ميدان «نافاونا».. تلعق الايس كريم.. طزاجة الحياة وبكارتها.. رذاذ الماء من نافورة «فونتانا دى تريفى».. كل شىء ملتحف بغلالة من الدانتيل.. الخدر.. اللاوعى.. بهجة الحياة.. صورتى فى الجرائد الإيطالية.. ثريا خطيبة الشاه وكل هذه الدعاية ولم أكن قد قابلته بعد..

مازالت امبراطورة الغد مجرد عابرة سبيل.. عصفور يتأهب للتحليق بعيدا..

١٨ أكتوبر.. العاشرة صباحا.. عبق الخريف المحمل بالوعود.. سوف اذكر هذا اليوم ما حييت لحظة وصولى فى مطار طهران ابى هنا ينتظرنى.. اتذكر كلمات شهر زاد لوالدها «اريد أن ابوح» لقد وعدنى والدى لا احد يرغمنى على الاقتران بالشاه واننى استطيع دراسة التمثيل الذى اعشقه فى هوليوود لو اردت.. فحتى اللحظة تلك لم اكن قد رأيت الشاه..

وفى نفس اليوم اتصلت تاج الملوك والدة الشاه لدعوتنا على مأدبة عشاء شديدة الحميمة، ومنذ اللحظة تلك كان هناك سباق مع الزمن وعناء السفر، فتحولت الاميرة شمس إلى الساحرة الطيبة فى حدوتة سندريلا، تختار لى الثوب المناسب، العطر.. قليلا من احمر الشفاه.

ثم كان اللقاء الاول.. ظهر الشاه فى زيه العسكرى هو مهيب.. بل رائع.. يشع مغناطيسية.. انا مسحورة، مخطئة كانت شمس فهو وسيم..

يعرف الابتسام.. والاربعة عشر عاما التى تفصل بيننا تجعله فى عمر المسئولية.. الرجولة الغامرة.. هو خجول بالرغم من تجاربه ومغامراته النسائية التى اشتهر بها.. نظرته تبدو تارة حالمة رومانسية، وتارة قاتمة تلوح بقسوة ما..

ثم كان العشاء وسط ضياء وبريق الكريستال.. صدى ووشوشة فضة وذهب الملاعق والاطباق، فحيح الانفاس وحرج الارتعاشات الاولى.. نيران الشمعدانات..

بعد العشاء بدأت العاب ثقافية تستهدف اكتشاف مدى ثقافتى ومعرفتى بأسئلة تتلاحق فى التاريخ، الجغرافيا.. لعبة الشاه مولع بها فكم من مرة ينصب لى فخا مثل: من هو أول حاكم من سلالة «الكاچار» فأجيب اغا محمد والامير مظفر الدين الأخير..

من هى زوجة «لويس الخامس عشر».. «مارى لينسكا».

ماالاسم الحقيقى لراسبوتين.. «جريجورى ايعتموفيتش نوفيك».. كان الشاه مولعا بقراءة التاريخ.. الجرائد.. السياسة.. وكل ما له علاقة بالاقتصاد، فالتاريخ هو حكاية الملوك.. اما الادب فهو حكاية الشعوب..

وحدد موعد الخطبة ثم الزفاف فى السابع عشر من ديسمبر.. اما حفل الخطبة فكان يفتقد كل مظاهر البذخ نظرا لما كانت تمر به البلاد من ازمات طاحنة وصراعات على النفط من قبل القوى الاجنبية ثم الصراعات الداخلية من شيوعيين وإسلاميين وحكومة.

وكانت المشكلة الكبرى.. فالثوب الذى احضرته من باريس كان بدون اكمام وكان من غير المسموح به وهذا ما اكتشفته فى اللحظات الاخيرة قبل الحفل.. فاضطررنا لتركيب اكمام.. وفى قصر الرخام والمرايا الشاهقة كان الحب بينى وبين الشاه على انغام التانجو والفالس دوارا لذيذا، ثمالة السعادة وسكرة العشق.. الايدى فى الايدى ووعد بالحب الابدى..

من الآن فصاعدا بدت الامسيات رائعة.. العشاء دائما مع الشاه وعائلته، ثم بعد احتساء القهوة الرجال يلعبون البلياردو أو يشاهدون فيلما، والنساء يثرثرن.

كنا نختلى انا وهو بعض لحظات لنستأنس بوحدتنا.

كان الشاه يعشق الرياضة وذات نهار خريفى طلب منى أن ارتدى المايوه لنذهب مع شقيقه على رضا إلى قصر المرمر، وكانت نزهة لا أنساها.. وسط اشجار البرتقال، رائحة الزهر تداهمنا.. وشمس آخر النهار تلتهمها الجبال، كل شىء يذوب من حولنا وكأن الحياة اختزلت فى لحظات مكثفة.. متأججة..

محمد رضا رجل منغلق على ذاته، لا يظهر مشاعره بسهولة.. تربيته العسكرية، هيمنة الاب، صلابة الام تاج الملوك صدمته عندما هجرته فوزية، الاخطار التى تحاصر ايران.. جعلت لغة العيون ابلغ رسول غرام بيننا فالشاه له نظرة تتأرجح بين الرقة والحزن المقيم..

وذهبت لأتفقد القصر الذى سأقيم فيه بعد الزواج وجدته شديد التقشف، الاثاث بال يفتقد الرونق.. لا يليق بملك فأردت ان استعين بأشهر ديكوراتور وهو «چانس» ولكن حالة البلاد كانت تقتضى التقشف.. فلم يكن الوضع يتحمل البذخ والفخامة والابهار الذى كان متاحا وقت الامبراطورة فوزية.. وهكذا بينما تسكب الايام شهدها فى انتظار الزفاف مرضت مرضا شديدا فأصبت بسلمونيلا والتهاب رئوى وصار وزنى ٤٠ كيلو جراما..

انفقت امسيات وليالى أصارع شبح الموت الجاثم.. تبتلعنى الحمى.. الهذيان فأرى غزالا يفترس، ومخالب دامية تغوص فى اردافى، كان الشاه بجوارى ليلا ونهارا، يجوب الغرفة ذهابا وايابا، يحضر لى كل يوم هدية، بروش مرصعا بالزمرد والياقوت، ساعات على شكل عصفور، باقة ورد، فاكهة مسكرة، واطباء من كل انحاء الأرض، وبطبيعة الحال طبيبه الخاص الدكتور «كريم ايادى»..

طلب الشاه حينذاك من آيات الله والملالى الصلاة من اجلى فى كل جوامع إيران.. وكان محمد رضا قد نجا من الموت ثلاث مرات، كانت محاولات اغتيال باءت بالفشل بالرغم من اصابته بالرصاص من قبل المتطرفين عام ١٩٤٩..

كانت فى أعماقه مسحة من التصوف، فلقد روى لى انه وهو فى

السابعة من عمره مرض مرضا شديدا فحلم بسيدنا على ومن ثم كان الشفاء..واثناء مرضى بدأت تنتشر شائعات كثيرة منها ان الاميرة أشرف شقيقة الشاه وضعت لى السم للقضاء علىّ نظرا لغيرتها من الاميرة شمس القريبة منى..

اللهفة علىّ تكاد تعتصر الشاه.. هو يريد اتمام الزفاف فى اسرع وقت..

وكان الشفاء.. وتابعه الزواج..

سندريلا الفارسية

طهران تغوص فى غلالة من الجليد الناصع..كرات الثلج متناثرة.. تهيم فى سماء المدينة التى صارت بألوان المعدن واحجار اللابيس لازولى وكأنها لوحة لماجريت..

دانتيلا من الضباب، سديم يغلف نافذتى، اليوم زفافى كيف تشعر الصبية عشية تحولها إلى امرأة لتصبح ملكا للرجل الذى تحب؟

ارتعد تحت وطأة صقيع رهيب.. الثانى عشر من فبراير وانا ارتدى فستان الزفاف الذى صممه كريستيان ديور.. تلال من التل والبروكار الابيض الناصع، مرصع بكم هائل من الاحجار، ولكن الدكتور ايادى اصر ان ارتدى جوارب من الصوف الابيض، وانا اخفى فى طيات ثوبى اللانهائية كيسا من الملح وقنينة من الكورامين.. نظرا لحالة الهزال الشديد التى تلازمنى، حتى الثمالة..

ولكن لا شىء يهم، السعادة تلفحنى اشعر وكأنى اطفو وسط كرات الثلج فى قلب حقول القطن الشهباء..

ارتدى شلالا من الزمرد.. اقراطا تبدو وكأنها اشجار عيد الميلاد، التاج بالجواهر مرصع تم اقتراضها من الحكومة..

الثانى عشر من فبراير، ليلة الثالث عشر ولعبة الزمن الأزلية الجهنمية..

نفس تاريخ مغادرتى طهران بعد سنوات سبع مطلقة.. عاقرا.. بصحبتى مجرد احلام مبتسرة، مجهضة، مبتورة فى اوان تفتحها..

زفاف من ألف ليلة وليلة

زفافى ليلة من ألف ليلة.. قصر الرخام.. صالة المرايا.. الاعمدة.. صبايا يحملن اطراف ثوبى الثقيل البالغ من الوزن ٢٠ كيلو جراما اى نصف وزنى، اسير وسط غابة من البنفسج والاوركيديه، والشاه أمر باشعال كم هائل من المدافىء، اقاوم الهزال انا من الباختيار اتحلى بالشجاعة.. كيف لى أن اشعر بالصقيع ازاء ما هو سرمدى.. البيجوم اغاخان بجوارى..

ثم تأتى لحظة ممارسة الطقوس الفارسية للزفاف كأس كريستال مكتظة بالسكر الناعم تنثره تاج الملوك على رأسى: لتكن الحياة ناصعة.. ناعمة هانئة مثل هذا الشلال المسكوب من السكر، ولكنه ربما فأل شؤم.. فالمفروض من تقوم بهذه المهمة امرأة سعيدة فى زواجها، ولم يكن هذا قط حال تاج الملوك!!

ونظرا للارهاق الجم الذى اشعر به اتفق الشاه مع الدكتور ايادى على نزع طبقات من ثوب الزفاف كحل عملى يناسب طبيعة الشاه..

فأصبحت مثل زهرة مارجريت بيضاء ينزعون اوراقها، واقبلت سيدة من البلاط تنثر تلالا من العملات الذهبية..

اشعر انى فى قلب كل هذا الضجيج والاضواء الغامرة الساطعة مثل كائن اثيرى.. أليس فى بلاد العجائب ولكن على الطريقة الفارسية..

فى الثانية صباحا اصبحت ملكة لها من الرعايا ٢٠ مليونا..سأذهب الى حجرة الشاه لن يمنعنى الارهاق او الهزال او رداء النوم القبيح الذى فرضه الطبيب.. لاشىء يئد الرغبة، اصبحنا كائنا واحدا، نكاد نغرق فى مروج العشق..

لم نستطع القيام بشهر عسل والسفر إلى الخارج، ولكنه استدعى انغام الجيتار واغانى الغواية الايطالية،، نسمات كابرى وفارس تداعب خصلات شعرى..روايات دى كوبرا المبللة بماء الورد تغازل مخيلتى ذات السادسة عشرة ربيعا..

قصر جولد ستان حيث اقيم مع الشاه ليس بحال من الاحوال

باكنجهام.. فهو مكون من ١٢ حجرة.. طعام الشاه شديد التقشف فلا كافيار هناك ولابذخ، اضطررت ان اذهب إلى القبو لاستعين ببعض التحف هدايا الزواج لتجميل المكان.

رياح الثورة

بالرغم من اعوامى الـ ١٦ كان هناك واقع جاثم لابد من مواجهته.. فهناك ثلاث قوى تتصارع فى ايران.. مصدق او الاسد العجوز ثم الشيوعيون والمتطرفون آية الله كاستانى وفدائيو الاسلام.. ثم مسألة تأميم بترول ايران.. فالولايات المتحدة وانجلترا وكل قوى الغرب تطمع فى نفط ايران.. اصبح الشاه يعانى من بارانويا سافرة فيعتقد ان طعامه ممتلىء بالسم، ينام والمسدس تحت الوسادة، صار قرينه، احاول التخفيف عنه..ذات ليلة فرش فراشى فى قلب الخضرة، ووضعت ناموسية يتسلل من خلالها فقط ضياء القمر الفضى، ولكن هناك هاجسا يراودنى من الممكن ان يصبح قمر بلادى مخضبا بالدماء، تلك الليلة الحارة غارقة فى لهيب اغسطس..

وبالفعل صدق حدثى واصبح هروب الشاه فى الوقت الراهن ضرورة محتومة، وبالفعل كان الفرار على متن طائرة صغيرة انا والشاه الطيار وكلبى المحبوب تونى إلى العراق ومنها إلى ايطاليا.. هى منفى مؤقت لم يدم اكثر من ثلاث ليال.. كأنها دهر وعمر بأكمله..

وبينما احوال الوطن من سيىء إلى اسوأ ماضية فى اشتعالها إلا ان علاقتى بالشاه صارت اعمق واشد حميمية..

فأصبحنا نحتسى شاى الخامسة بفندق الاكسليسور، اشد من ازره، احضه على استعادة جسارته وقوته.. قوة ملك الملوك..

كنا نذهب من الابواب الخلفية هربا لشراء ملابس حيث غادرنا طهران بلا حقائب، اقتنيت ثوبا احمر قانيا له نقط بيضاءوالشاه بدلة رمادية.. رجل اعمال ايرانى ترك لنا الجناح الخاص به لم ينسه الشاه قط عندما عاد الى وطنه منتصرا.

ترى هل سيكون مصير شاه ايران مثل فاروق ملك مصر الذى كان؟..

اثناء الليل اندلعت تظاهرات مروعة فى شوارع طهران وأزقتها يحرقون صور الشاه.. يحطمون تماثيله.. جنون جامح اجتاح المدن وعصف بكل شىء..

نزداد التحاما واقترابا كوسيلة للتثبت بأهداب الحياة.. ينفق الشاه الليل فى التفكير ازاء المصير الذى ينتظره هووعائلته الكبيرة.. فالكلام عن الثروة الشاهقة التى يملكها آل بهلوى غير صحيح، هناك اراضى رضا شاه والايراد حوالى خمسة وسبعين ألف دولار.. مبلغ لا يكفى لاعالة ٢٠ فردا هم مسئولية الشاه، ومن المؤكد ان مصدق سوف يأخذ الارض..

وبالرغم من كل تلك القتامة إلا ان الحب بيننا كان ينمو ويتعملق.. فها هى لغة الصمت تارة.. لغة العيون والمناجاة.. لحظات انتظار مصيرية ولكن كنت مطمئنة وكنت اؤكد للشاه انها مسألة ايام..فكان مندهشا لدور العرافة المحملة بالنبوءات الذى اقوم به، ولكن الحقيقة ان النساء اكثر شجاعة وتحملا فى مواجهة كروب الوجود..

وهكذا وبين عشية وضحاها وبينما كنا نتناول الطعام فى الريستوران بفندق الاكسليسور كان النبأ العظيم الاطاحة بمصدق.. القوات الملكية تسيطر وزهيدى رئيسا للوزراء..

عشرة ملايين دولار من CIA للقضاء على البطالة والتسول.. مصدق حاول الهروب مرتديا بيجامة فى حدائق طهران المظلمة..

قال لى الشاه حتى هذا اليوم كنت مجرد حاكم.. ملك او امبراطور بالوراثة، ولكن اليوم هناك برهان على ان الشعب يحبنى ويريدنى فلا ملايين امريكا ولازهيدى ولا احد كان يستطيع إعادتى للملكى.. وفى الحال بدأت لهجة الشاه تتغير صارت آمرة.. ناهية مفعمة بذهو الذات وكبرياء ملكية.. لقد شاركته لحظات الشقاء و الخوف والخطر والآن لا اشعر سوى بتلك الغصة التى تجتاح الروح وتعتصرها.. وفى قلب قيظ تلك الليلة الساخنة تسللت إلى اذنى اغنية إيطالية عتيقة «روما لا تكون بلهاء فى تلك الامسية»..

انا اليوم ثريا امبراطورة ايران المحبوبة.. السيدة الاولى.. وهكذا صدر

الحكم باعدام دكتور مصدق بتهمة عدم الولاء و الخيانة ولكن الشاه رفض تنفيذ الحكم مرددا انه لولا مصدق لظل بترول ايران فى ايدى الغرباء..

كلمة «امبراطورة» تبدو مثل تعويذة سحرية.. تحض على الانغماس فى احلام وردية مرصعة بالماس.. الدر الجوهر.. فالكل يتخيل خدما على الطريقة الفرنسية يمسكون المصابيح، القناديل والشمعدانات.. الحفلات الصاخبة.. والاثواب المخملية.. المتموجة تداعب الباركية الاصهب، والجمال مبهر تحت وطأة انغام فالس ڤيينا، والجواهر تتلألأ لتبرز ملاحة جيد شمعى اقرب إلى البللور والمرمر..

وضحكات لها بهاءالورود الابدية فى ضياء القمر المعطر بالياسمين والامير الساحر وملك الملوك يغدق بالغرام الدافق.. كلا فلم تكن حياتى كامبراطورة تطابق الاحلام تلك.. كان على المستوى العام الكثير من العمل ينتظرنى فوضع المرأة مروع.. والفقر مدقع.. والامراض متفشية.. اما على المستوى الخاص.. فالعام الاول من زواجى لم استطع الانجاب لاننى كنت مريضة والعام الثانى لاننى كنت صغيرة وفيما بعد لان المأساة كانت تغزل خيوطها المحكمة مثل كابوس جاثم..

روما.. مدينة للعشق

مسكينة ثريا اصفنديارى بختيارى فكلما داهمتها وراودتها السعادة وبدأت ترتوى من اسخى منابعها، عرفت الظمأ والانكسار فيما بعد فترى ماذا يخفى القدر فى جعبته للامبراطورة الجميلة من ايام قاسية فى طهران.

ثم فيما بعد حب صادق، متأجج عاشته فى روما بعد الطلاق مع فرانكو فنان ملهم يعمل بالسينما الايطالية.. هو بوهيمى.. فنان.. مندفع بدائى بعكس الشاه ولكنه رقيق حالم رجل منغلق على ذاته.. كل شىء محسوب فى حياته فرانكو مفعم بنهم تجاه الحياة.. يعيش زمنه.. زمن «تشى جيفارا» الواقعية الإيطالية.. الهيبيز.. طبيعة صقلية الوحشية.. الاسباجيتى الالدنتى.. الفوران اللاتينى..

فهـا هـى رومـا مـدينة للعـشـق.. تبـعث من جـديـد ثريا، بل لقـد مـثلت الامبراطورة الحزينة حينذاك فيلما سينمائيا «ثلاث وجوه لامرأة»..

مـايـو.. الربيع فى رومـا الشـرفـات تغـوص فى عـبـاءة من الورود.. الجيـرانيوم مثل ومـضـات نارية.. الفوشـيـا.. السـلالم مفـروشـة بالزهور واللوحات..رائحـة الـريحـان تغـمـر اسـواق رومـا العـتيـقـة.. رائحـة البخـور والخـدر مـدينة مـسـحـورة.. حـيث كل شـىء ممكن، وكل شـىء غـيـر ممكن..صـيـحـات الاطـفـال فـى الازقـة يلعـبـون.. والعـجـائز.. فى صـمت تماثيل نحتت من الرخام.. قيظ القيلولة وطرواتها.. الغـزل على الطريقة الايطالية الشباب يلاحقون الصبايا وهن يرتدين الاثواب الموردة المشجرة «كم انت جميلة» تغبير ذكورة تتفتح.. مزيج من الخجل والصخب..

ولكن لاشىء دائم لثريا فبعد سنوات خمس من الحب مع فرانكو مات فى حادث طائرة..

ثريا الامبراطورة الحزينة.. الجميلة. والفؤاد ممزق بين القاهرة حيث دفن الشاه وصقلية حيث يرقد فرانكو..

لامكان سوى لكلمات عمر الخيام:

«على قـبـور الملوك تـركض الغـزلان.. على قـبـور الشـعـراء تنبت زهـرة المارجريت..»

وأخيرا أجمل زوجات شاه إيران

الأمـيـرة فوزية.. هـى سليلة الجمال العثمـانى الفـاتن فى أبهى صـوره.. زين حسنها الملكى زمنا بأسره.. هـى أجمل شقـيقـات فاروق ملك مصـر الذى كـان، ومن ثم صـارت طلتـهـا الخـلابة بمثـابة أيقـونة ابديـة السـحـر وزينة نفيسة لعالم الملوك والسـلاطين المخملى، ولقد هزت حكاية زواجها وطلاقها من شاه ايران محمد رضا بهلوى عروشا، فكاد انفصالها عن ملك الملوك ان يفجر أزمة عاتية بين مصر وايران..

فبعد ان اصبح اقتـران الأميـرة «فوزية» بشاه ايران بمثابة زيجـة القرن العشـرين، وتحـولت الأمـيـرة الجـمـيلة الى امـبـراطورة فى بلاد الفـرس،

وكانت الاحتفالات أقرب إلى ليالى ألف ليلة وليلة.. حيث التحمت بعبق الأساطير إلى أن تدخل فاروق لينهى تلك الزيجة التى تلحفت نهايتها المريبة بغموض مثير..إلى أن قام كريم ثابت بإصدار كتاب «طلاق امبراطورة» حول طلاق شاه ايران من زوجته الأولى الامبراطورة «فوزية» محاولا عرض القصة الكاملة والأسرار الخفية بحكم صلته الحميمة فى تلك الحقبة بملك مصر الذى كان.

فترة الثلاثينات والأربعينات حيث بلغت الامبراطورة «فوزية» اوج جمالها وذروة الأنوثة الدافقة كان البلاط العثمانى فى تركيا وفى مصر مكتظا حافلا بالنساء الجميلات، اميرات وهوانم، امراء، باشوات وبكوات.

حيث القصور نحتت من المرمر والرخام الوردى..فكان الليل.. القمر الفضى.. البذخ الشاهق، والجمال التركى سر أبدى مرصود فى رحم ليال يناله النبلاء وابناء الطبقات الارستقراطية الرفيعة كانت القاهرة بحق عاصمة الدنيا، بوتقة الحضارات والثقافات، وكانت تقام فى القصور حفلات اسطورية على غرارالفيلم الامريكى ذهب مع الريح المأخوذ عن رواية الأديبة مارجريت ميتشيل، وتجلى الجمال العثمانى فى أبهى اشكاله، فاطمة طوسون، نسل شاه، هان زاده، الاميرة «فايزة» ثم الأميرة فوزية..

ويقول السير مايلز لامبسون السفير البريطانى فى مصر عن ليالى القاهرة فى الثلاثينات والأربعينات: «لقد رأيت بها أجمل نساء الأرض» الأميرات يرقصن طيلة الليل، فيغوص المكان فى نشوة عارمة، دوار يبتلع الحواس.. يدغدغها، وهج الماس، الياقوت، اللالىء، نعومة وغموض الحرير والمخمل، شعاع الثريات وضياؤها، ارتعاشات الأنوثة المبللة بعطورتنشد الخدر، وشوشة وهدير الاثواب، رنين الفضة والكريستال.. القاهرة.. المحروسة.. قطعة من الفردوس المفقود..

وفى قلب هذا الجو المشبع بعبق الأساطير نبتت زهرة بنفسج.. الحزن والجمال رفيقاها.. فوزية شقيقة فاروق المدللة، لها وجه اشرق من اغوار حواديت الطفولة المبللة بماء الورد، وجه غارق فى غلالة من العذوبة الصافية، يقول عنها كريم ثابت فى كتابه: «فوزية هى حقيقة جميلة.».

وأكرر ما ذكرته سالفا رأيتها ذات صباح خريفى ربما منذ ٢٠ عاما، سوف اذكر هذا اليوم ماحييت، فلها جمال من فرط شدته يوحى بالرهبة، فى عينيها لون وشجن البنفسج، بشرتها شهباء لها ضياءالياسمين. ذكرتنى بلوحة «فان جوخ» الشهيرة عندما جمع بين «الشمس والقمر فى آن واحد»..

والحقيقة أن الأميرة او الامبراطورة فوزية كان الحزن دائما وابدا هو قرينها وقدرها المحتوم.. فلقد فشلت الزيجة المصرية الايرانية فشلا ذريعا بالرغم منها ومن الشاه الذى كان مولعا بها..

فلقد تعمد فاروق القضاء على تلك الزيجة لاسباب تخدم اغراضه هو ونزواته المزمنة..

وعندما ذهبت الملكة نازلى والدة فوزية الى ايران لرؤية ابنتها وكانت قد رزقت من الشاه بابنة هى شاهناز، ذهلت الملكة الأم على حد قولها من بدائية وهمجية البلاط والحياة حينذاك وايران، وعادت الامبراطورة فوزية الى مصر فى حالة من الهزال والسقم والمرض.. ليسيطر ويهيمن فاروق من الآن فصاعدا على مصير شقيقته المحبوبة..

الأميرة الحالمة

يقول كريم ثابت ان فوزية لها طبيعة خاصة.. فهى إلى الحزن اقرب، منذ طفولتها اختارت مدن الصمت والأحلام.. فهامت منذ نعومة أظافرها فى عالم اثيرى، منغلقة على ذاتها، تلتهم القصص والروايات، مفتونة بجمالها الفتاك وحسنها الطاغى.. حتى قيل ان وصيفتها كانت تشاهدها وهى تتأمل نفسها فى المرآة وتردد «كم انت جميلة فوزية» لتذكرنا بالعبارة الأشهر فى حدوتة «بياض الثلج والأقزام السبعة».. «يامرآتى هل هناك من تفوقنى فى الحسن والجمال؟!»..

وهكذا كانت فوزية بعد عودتها من ايران عندما استدرجها فاروق.. تزين الحفلات الملكية بجمالها الشامخ المهيب، ولكن كانت بمثابة دمية فاتنة او لوحة بديعة تعتنق الصمت الدائم..

فيقول كريم ثابت انها لا تتكلم قط فقط تدخن، تعتصم بالسكون

مولعة بالسهر تفرط فى استعمال المساحيق، من يراها يقر أنها تنفق الساعات ليلا ونهارا فى التزين، مولعة باقتناء كم هائل من الملابس.. حتى انها فى بضعة شهور اشترت اثوابا بعشرين الف جنيه مما يعد ثروة شاهقة فى هذا الوقت، وهو ما أثار فاروق بشكل عنيف.. فكان ان صب عليها نيران غضبه محذرا انها إذا استمرت فى هذا التبذير والسفه فسوف يكون مصيرها الافلاس، وبطبيعة الحال لم يعلن ويبح فاروق عن سخطه تجاهها إلاعندما تم بالفعل طلاقها رسميا من الشاه فصارت من الآن فصاعدا فوزية عجينة لينة فى يد فاروق.

ويقول كريم ثابت ان فوزية ظلت لشهور بل اعوام لا تبادله سوى بضعة كلمات محسوبة.. أما الابتسامة فلقد كلفته شهورا من الجهد والملاطفة.

الإمبراطورة والملك

ويؤكد كريم ثابت ان من بين الأسباب الاساسية التى جعلت فاروق يحيك مؤامرة انهاء زواج فوزية هى انه فى هذا الوقت بالتحديد كان زواجه هو من الملكة فريدة يكاد يلفظ انفاسه الأخيرة، ولم يكن يريد ان يكون الحاكم او الملك المسلم الوحيد حينذاك الذى يقدم على الطلاق!!

فأراد أن يكون شاه ايران ايضا وهو ملك مسلم فى نفس الوضع يشاركه المصير ذاته، ايضا رغب فى ان تكون فوزية بجواره بعد طلاقه من فريدة لتقوم بمهام الملكة وسيدة القصر.. فمن ناحية كى لا يخل بأحوال البروتوكول ومن ناحية أخرى لا يغضب شعبه بشكل سافر.. فهو ليس الملك الوحيد الذى يطلق زوجة جميلة وشريكة عمر..

وهكذا يكون فاروق الغارق فى انانيته حتى الثمالة، الواقع تحت تأثير جارف لشخصيتين مختلفتين بداخله تتنازعان السيطرة على إرادته ومشاعره، ومن ثم تبدو القصة الحقيقية لطلاق الشاه من اولى زوجاته اقرب الى القصص الخيالية منها الى القصص الواقعية.. حتى ان الشاه نفسه لم يعرف الأسباب الحقيقية وفوزية ايضا لم تعرفها كذلك!!

هى قصة أقرب لمسرحية «عبثية» من صنع فاروق الملك الذى كان، ومن ثم يميط كتاب كريم ثابت ولأول مرة اللثام عن هذه الحكاية الفريدة من

نوعها.. والحقيقة أنه يصبح من المستحيل إدراك ابعاد القصة العبثية تلك دون اختراق وفهم شخصية فاروق المركبة..

وكما قلنا سالفا عاش فاروق منذ فجر شبابه ممزقا بين تقاليد الشرق وجاذبية الغرب.. بين فؤاد الأب الشرقى الصارم ونازلى الأم المتمردة على الطقوس والتقاليد الشرقية العتيقة..

عاش فاروق الصبى الذى كان وفيما بعد الشاب والملك الذى اصبح لايحكم بل مجرد رمز، وفيما بعد دمية فى ايدى اعدائه.. فالكل غدر به.. عاش صراعا بين نقاء النهار وضيائه، بين المآذن وتعاليم المراغى شيخ الأزهر حينذاك والذى قال عن فاروق:

«هو أول ملك يحكم مصر ويتعامل بشكل مباشر مع الشعب ومع البسطاء» ولكن كان هذا فى بداية حكمه، ثم عاش صراع غواية الارتماء فى احضان الليل الجهنمى، المعربد ليعبث، يلهو، يقامر ويغامر فى الكلوبات والكباريهات، اوبرج الاهرام، سميراميس..وينتقل من خلال يخت المحروسة بين شواطىء فرنسا وايطاليا فمن الحياة صار يغرف المباهج والمفاتن وليكن ما يكون، ولتذهب شقيقته المحبوبة الى جحيم هاوية كئيبة.. بل وطن برمته وليبتلع الفساد والنزوات الاخضر واليابس..

عندما تربع فاروق على عرش مصر كان صبيا بديع الطلة، لم يتجاوز بعد السادسة عشرة من عمره، له نظرة عين ناعسة، تحلم بتغيير الواقع الجاثم على مقدرات البلاد، ويقول عنه السير «مايلز لامبسون»:

«فاروق هو صبى بسيط، لطيف، يافع» وظل لامبسون يقول عن فاروق الصبى «The boy» أو الولد بعد ان اصبح ملك مصر، ولقد كان الاثنان يضمران العداء لبعضهما.

وهكذا تحول فاروق من الصبى الوسيم، النبيل، الحالم الى صورة الملك البدين، المتبلد الحس التى ترسخت فى اذهاننا، هو مسكون بالنهم، غارق فى شهواته حتى الثمالة، هو اقرب لبلاى بوى play Boy وليس ملكا..

فنالت منه تخمة الحواس وشراهة الاقتناء وكانت الواقعة المريبة المذهلة عندما حضرت الإمبراطورة فوزية من ايران محملة بحقائب لا

حصر لها، ثياب باريسية، معاطف فراء، والنفيس من الجواهر..ذهب فاروق بشكل سرى الى الجناح الخاص بشقيقته وقام بكسر الاقفال وسرقة كل ماهو ثمين واهداه لعشيقاته، وهى حادثة ذكرها كريم ثابت، ولقد اكتشفت فوزية السرقة تلك مما اصابها بعظيم الحزن والأسى، وكانت تشاهد مجوهراتها الفارسية التى اهداها اياها الشاه ووالده تتزين بها خليلات فاروق فى الحفلات العامة..

فكان فاروق مصابا بداء «الكليبتومينيا».. ففاروق الذى لم يستطع وهو الملك السيطرة على أمه نازلى التى انطلقت من القمقم الحديدى الذى سجنها وقمعها بداخله زوجها الملك فؤاد لتطعن فاروق طعنة غائرة فى فؤاده.. عندما ارتبطت بأحمد حسين باشا بزواج سرى عرفى، تلك القصة التى ألهمت الأديب الكبير ثروت اباظة «أمواج بلا شاطىء» ولم تكتف بهذا فقط بل اعتنقت الكاثوليكية وأصرت على تزويج ابنتها فتحية من رياض غالى والذى قتل زوجته فيما بعد..

وهكذا فشل ايضا فاروق فى السيطرة على شعبه وفقد حبه واحترامه، كما فشل ايضا فى الاحتفاظ بالنساء وامتاعهن.. فكان الهروب تارة من خلال الولع بامتلاك الأشياء والمقتنيات الثمينة الى حد الهوس.. حتى قيل ان صالة sothebys للمزادات انفقت اسبوعين من اجل بيع مقتنيات الملك.. فيبدو ان السرقة كانت نوعا من التعويض للحصول على شىء ما لكى يمتلىء هذا الجفاء المفزع..

وفى رواية صبرى موسى «فساد الأمكنة» وجود طاغ لشخصية فاروق بشكل رحب رمز للحاكم الطاغية، الشهوانى، بورتريه عبقرى للحكام الذين يعبثون بمقدرات الشعوب..

ويستهل كريم ثابت كتابه بفصل «التقارير السرية من طهران» قائلا: «كان للجناح الخاص بفاروق فى قصر المنتزه بالإسكندرية شرفة تطل على جانب من الحديقة والبحر معا، ولا أعرف مناظر طبيعية كثيرة تضارع بجمالها ورونقها المنظر البديع، وسرحت الطرف فى ارجاء تلك البقعة الساحرة، وكانت الليالى القمرية تعزز فتنتها وروعتها وتزيدها سناء وبهاء، فيخيل الىّ ان قطعة مختارة من خليج «نابولى» قد انتقلت

اليها وارتمت فى احضانها، واقبل فاروق على بالروب دى شامبر ورجوت ان يكون قد عدل عن الخروج من القصر فنتمتع بسهرة هادئة وخصوصا ان القمر كان بدرا فى تلك الليلة، فزاد ما حولنا فتنة وضياء..

المؤامرة

ولكن فاروق كان مكتئبا يتأوه بصوت مسموع كالمكلوم وهو صامت كئيب وخرج من صمته ليقول بالفرنسية..

«ان شقيقتى فوزية تعيسة جدا، انت لا تعرف مقدار جمالها.. انها ملاك بأخلاقها وطبائعها ولم تغتر يوما بجمالها ومركزها، هى مثال البساطة، والهدوء، هى ليست مثل فايزة قوية، عصبية، فائرة، فوزية لم تكن لها أدنى تجربة قبل زواجها من الشاه»..

لقد احكم فاروق خيوط المؤامرة، والمكيدة «التى» عصفت بزيجة القرن.. ولقد اختلق قصصا كلها وهمية لتفجير الوضع بين فوزية والشاه.. مثل أن حياة شقيقته هناك فى خطر وأنه من الممكن قتلها فى ايران لانها مولعة بشاب وبطبيعة الحال مهددة بفضيحة مدوية، كلها افتراءات واقاصيص ملفقة «لا تمت للواقع بأدنى صلة»..

وعندما وصلت فوزية الى مصر بعد موافقة الشاه على سفرها دون أن يكون قد علم بنية فاروق وانه لن يرى مرة أخرى زوجته الحبيبة وعندما حضرت فوزية مع افراد الحاشية الايرانية قام فاروق باختطافها من قصر «انطونيادس» لتنفيذ خطته الجهنمية من اجل التفريق بين فوزية ومحمد رضا بهلوى..

أما الغريب جدا فهو ايضا استسلام فوزية لرغبات، وأوامر ونزوات شقيقها، وعندما جاء توقيت كتابة الرسالة التى تطلب فيها فوزية الطلاق من الشاه قال فاروق: «يجب ان تكتبى الرسالة بالصيغة التى يجدر بامبراطورة ان تكتب بها الى زوجها الامبراطور» ومن المعروف ان فى الفرنسية مؤلفات ضخمة تعالج جميع شئون البروتوكول، وعلى ضوء النماذج التاريخية التى كانت امامها كان يتعين على فوزية ان تختتم رسالتها الى زوجها بقولها: «زوجتك وخادمتك فلانة» ولكنهم تساءلوا هل

سيمتن فاروق من هذه الخاتمة أم سيحذفها لتكون اكثر مناسبة للظروف؟!

وقالوا إنه لا يعقل ان يقبل ان تقول الامبراطورة زوجتك وخادمتك لرجل تطلب الطلاق منه وتوقعوا ان يحذف كلمة خادمتك على الأقل..

واذا فاروق يدهشهم جميعا بقوله:

«الواجب واجب»!

وأمر بأن تبقى «الخاتمة على ماهى عليه «زوجتك وخادمتك» ثم قال:

أنا أحب دائما ان اعمل الأصول»!

واتصل فاروق بفوزية تليفونيا وقال لها بالفرنسية،: «اعذرينى ياشيرى» اذا كنت ازعجك.. يجب ان تمضى الجواب وقد تجدين بعض عباراته موضة قديمة، ولكن الاصول تقضى بذلك، ونحن نريد ان نحافظ على الاصول حتى النهاية..

هكذا كان فاروق، الذى قالت عنه زوجته الثانية الملكة ناريمان انه اكثر تواضعا وبساطة من الطبيب الذى تزوجته!..

ولقد تم طلاق الامبراطورة الجميلة وكان لابد من البحث عن عريس يليق بها.. فكان اسماعيل بك شيرين، ولقد انجبت منه ابنة تزوجت من ممثل مصرى، ولم تكن فوزية ترغب لابنتها هذه الزيجة..

وهكذا عاشت فوزية العديد من الانكسارات.. فهوى عرش اسرتها الذى كان وتبعثرت شقيقاتها فى انحاء العالم، وقتلت فتحية ومات فاروق غريبا، وحيدا، منسيا.. وعانقت حياتهم مصير المآسى الاغريقية زوال الحكم، الجاه والمال والسعادة..

وانتهت حقبة من الزمن بعطرها الشجى، كانت فيها القاهرة مدينة مترفعة شامخة، مفتوحة وكأنها ترقص على السحاب بملوكها واميراتها وهوانمها، بضجيجها وهدوئها، بارستقراريتها ومازالت رائحة هذا الزمن تفجر وتنثر فى اعماقنا نوستالجيا.

حقبة من زمن يزداد ابتعادا، زمن الابيض والأسود.. نسمة كامنة، مقيمة فى رحم الايام الخوالى حيث عطر ثقافة رفيعة، رومانسية مدبرة وحكايات حدثت بالفعل وتحولت الى اساطير..

شخصيات صارت اقرب إلى الايقونات، وقصص حب وغرام التحمت بتراث انسانى نفيس..

وأحدث ما كتب فى مجال استرجاع هذا الزمن المفقود مذكرات الامبراطورة فرح ديبا بهلوى ثالث وآخر زوجات شاه إيران والتى صدرت مؤخراً فى فرنسا.

ومن خلال سيرتها تبوح فرح بحياتها وقدرها الفريد الذى جعلها تتأرجح دائما وابدا بين السعادة والحزن.. المباهج والاحزان.. القمة والقاع.. المآسى والافراح، الوفاء ثم الغدر..ذروة الجاه والسلطة ثم مرارة النفى بعد اندلاع ثورة الخومينى..

ومنذ اللحظة التى غادرت فيها فرح ايران بصحبة الشاه بدأت فى كتابة خواطرها وما تجيش به النفس ويجود به الوقت اثناء تلك المحنة العاتية..فتروى قصة حبها مع الشاه فى الخمسينات عندما كانت فى العشرين من عمرها وقد درست الهندسة فى فرنسا.. فتسترجع الزمن ومعه أول قبلة تبادلتها مع الشاه بعد اسابيع من اللقاء الاول فى منزل شاهيناز خالة الشاه، ثم تذكر ان الشاه لم يكن يتخيل يوما انه سوف يصبح ملكا مخلوعا.. مطرودا..منفيا..

وبعد فاجعة وفاة ليلى ابنة فرح ديبا كان مشروع المذكرات قد نضج، وشعرت الامبراطورة انه ليس بالدموع فقط يكون رثاء من نحب ولكن ايضا الكلمات هى بحق ترياق ابدى لعذابات النفس وانكساراتها واحزانها..

الأغاخان..وأغلى طلاق فى العالم!!

السلاطين يهيمون فى حياة مفعمة بالفخامة، البذخ والجمال فى أبهى صوره.. انه العالم الذى ينتمى اليه الاغاخان وكل زعماء وامراء الطائفة الاسماعيلية..

فتراث العائلة مكتظ بحكايات مثيرة ومدهشة عن قصص الحب، الغرام والفراق، الطلاق والزواج.. أما الحكاية الاحدث فهى اليوم تدور حول أغلى طلاق فى العالم، الذى وقع بين «كريم اغاخان» وزوجته

الشقراء الفاتنة البيجوم «انارة» والذى سوف يدفع كريم خان ثمنا باهظا له حوالى ٧٢ مليون اورو..

تبدو حياة الاغاخان اقرب الى الملاحم الاسطورية المهيبة حيث يمتزج الولع بالفن والثقافة والانشطة المتعددة فى مجال الاعمال الخيرية ورعاية العديد من المؤسسات ذات الطابع الحضارى والانسانى فى العالم الثالث مع الشغف المتأصل بالجمال الراقى، الذى تجلى من خلال كوكبة من الجميلات اللاتى اصبحن زوجات لسلالة امراء الطائفة الاسماعيلية، واللاتى حظين بلقب البيجوم وهو ما يعنى باللغة الاردية او الهندية العتيقة «اميرة».

●●●

لقد نقشت قصص العشق والهوى الخاصة بتلك العائلة بمر الزمن بأحرف من ماس ياقوت وزمرد صنعها بروعة مذهلة «كارتييه» ولكن يبدو دائما فى تراث تلك السلالة الملكية الطلاق أغلى من الزواج!!

فلقد دفع «كريم خان» ثمانين مليون دولار ثمنا لطلاقه من زوجته الاولى البيجوم «سليمة»، بعد زيجة دامت ٢٦ عاما، ولقد كانت فى الستينيات من اشهر عارضات الازياء فى العالم، ومن ثم تزوجت لبضع سنوات من اللورد «جيمس ستيوارت»، وفى عام ١٩٦٨ اشهرت اسلامها وتزوجت من الاغاخان، وكانت ثمرة هذه الزيجة ثلاثة أبناء هم: زهرة، ورحيم وحسين، وفى عام ١٩٩٥ كانت زهوة الحب قد اصابها الفتور فكان الطلاق ضرورة محتومة، ولكنه تم بتحفظ شديد، ومنذ ذلك الوقت تنفق البيجوم سليمة وقتها وثروتها لمساعدة الاطفال الايتام والمعدمين..

لقد تميزت «سليمة» بجمال ملكى مكلل بقامة فارعة واطلالة ارستقراطية، كانت وراء تتويجها اميرة على مجتمع لندن المخملى، ولقد حصلت البيجوم «سليمة» بعد الطلاق على ٣٢ مليون دولار من الاموال السائلة، و٤٨ مليون دولار مجوهرات وخلال عام ١٩٩٥ قررت الاميرة التخلص من مجموعة من المجوهرات عن طريق عرضها فى صالة «كريستيز» للمزادات، اماالمفاجأة حينذاك فكانت محاولة تدخل الاغاخان لمنع زوجته السابقة من بيع على حد قوله: «مجوهرات العائلة»

ولقد اصدرت المحاكم السويسرية قرارا بمنح الاغاخان حق شراء هذه المجوهرات بالثمن الذى يقيم به وقد كان.

ولقد نجحت الصفقة وبلغ ثمن البيع ذروته حيث حصلت سليمة على ٢٨ مليون دولار، فطقم الزمرد والماس فقط بلغ سعره حوالى ٣ ملايين دولار، اما «البيجوم الزرقاء» فهى ماسة ضخمة على شكل قلب فقد بلغت قيمتها ٨ ملايين دولار..

و«كريم خان» لايقل شهرة عن والده «على خان» الذى تزوج ذات يوم من فاتنة هوليوود النجمة «ريتا هيواردز»، ولقد لقى حتفه فى حادث سيارة، بينما كان فى الاربعينيات والخمسينيات البلاى بوى الاشهر حيث تعددت زيجاته ومغامراته، وايضا ولعه بالخيول والمقامرة، وبلغت خسائره الشاهقة مليارات من الدولارات!

ولقد قرر والده حينذاك اختيار حفيده كريم وريثا له وزعيما للطائفة الاسماعيلية، حيث كان منذ فجر شبابه مولعا بالثقافة، والعلم والفن، فكان طالبا بارعا، نموذجيا ومثاليا «بهارفارد» متعمقا فى الدراسات الاسلامية، رجل اعمال من الطراز الاول ومحبا للخير، وقد اراد ان يكون مختلفا عن والده وعن جده من خلال رغبة عارمة فى البعد عن نيران الاضواء والفضائح المدوية.. فلقد اشتهر جده بولعه بالنساء الفاتنات وتحويل المستحيل الى ممكن، فكانت حكايات حب وزواج اقرب الى قصص سندريلا والجميلة النائمة، او حواديت الف ليلة وليلة المبللة بماء الورد وعطر الياسمين، حيث يقع الامراء والسلاطين فى حب الصبايا الفقيرات، المعدمات، فكان ان وقع الجد مرة فى غرام راقصة باليه، ومرة اخرى كانت بائعة شوكولاتة هى الفائزة بلقب البيجوم،ثم اخيرا ابنة سائق ترام فى «مارسيليا»، وهى «ايفيت لابروس» والتى اشتهرت بلقب البيجوم «ام حبيبة» وكان زوجها يلقبها «بماتا سلامات» اى «ام السلام» التى اشتهرت بولعها بمصر وقد اقامت ضريحا لها فى اسوان بجزء من ثروتها حيث كانت عاشقة متيمة بالمكان، ولم ترزق قط بأطفال من الاغاخان، ومن ثم وهبت جزءا من ثروتها لذريته وللاعمال الخيرية ولقد ولدت أم حبيبة عام ١٩٠٦ وتوفيت عام ٢٠٠٠، ولقدتزوجت جد «كريم

خان» عام ١٩٤٤، وحتى وفاته عام ١٩٥٧ وكانت دائما ترتدى السارى الخلاب وتزينه بالجواهر العملاقة، التى اهداها اياه زوجها، ولقد عرضت صالة «سوزبى» جزءا منها عام ٢٠٠٠ بعد رحيلها، من بينها الماسة الاسطورية التى بلغ حجمها ٥١ قيراطا أى حوالى ثلاثة ملايين دولار، ولقد تربعت «أم حبيبة» على قمة المجتمع الباريسى وصفوة المدينة قرابة نصف قرن من الزمان..

●●●

اما حكاية الحب التى جمعت بين «كريم خان» وزوجته الثانية الالمانية «جابرييل هومى تيسين» فهى شديدة الاثارة ولقد اصابت اصدقاء الامير كريم بالدهشة العارمة، ففى عام ١٩٨٨ ظهرت فجأة جابرييل فى حياة كريم خان فكانت بمثابة شمس ساطعة متوهجة ومن ثم اطلق عليها اسم «انارة» نظرا لبشرتها الشهباء الناصعة وشعرها الاشقر المشتعل.. ولقد دلفت جابرييل الى حياة كريم وهى فى الخامسة والثلاثين من عمرها، وخلال ٦٠ يوما اصبح الامير مسبيا ومتيما بحب الدكتورة جابرييل المتخصصة فى القانون الدولى، والمستشارة باليونسكو فهى ليست بحال من الاحوال راعية اغنام بسيطة او بائعة شوكولاتة متواضعة او حائكة فى مشغل ولكنها امرأة حصدت ارقى الدرجات العلمية فاستطاعت فى سرعة فائقة الاستحواذ على قلب الاغاخان الذى اشتهر بالتحفظ والحذر، ولكنه لم يستطع مقاومة فتنة الشقراء المثقفة، ومن ثم وقع الامير تحت وطأة سحرها حيث تميزت بالثقة فى النفس مما منحها هالة من الجاذبية جعلتها تقترن بالامير «زولينينجين» صاحب الثروة الشاهقة، ولقد دامت الزيجة بضع سنوات كانت عائلة الامير فى حالة غضب ورفض سافر لجابرييل، وكلل الزواج بطفلة هى «تيريزا» وبعد الطلاق بشهرين كانت جابرييل قد اشهرت اسلامها لتدلف الى العالم الاسطورى للاغاخان، حيث القصور المهيبة فى جميع انحاء العالم، والحياة الناعمة، المرفهة، ولكن يبدو ان سنوات السعادة الغامرة والبهجة المرصعة بالدر والجوهر قد انتهت، فلقد اشتعل الحنين فى قلب الاغاخان لحياته السابقة الحافلة بالمغامرات، فلقد شوهد فى «بورتو

فينو» بصحبة فاتنة وايضا فى قصره بكينيا، ومن ثم ذهبت انارة الى انجلترا حيث اعتكفت وطلبت الطلاق، فهى تنتمى الى طراز من النساء لا يقبل هذا السلوك الذكورى، ويقال ان البيجوم تتمتع بشخصية تقدس المادة ومن ثم لجأت الى المحامية البارعة «ماجى ريه» والتى حصلت على ٢٥ مليون يورو لصالح الاميرة «ديانا» اثناء طلاقها من الامير «تشارلز» وعلى اية حال لن تقبل «انارة» بأى حال من الاحوال مؤخرا اقل من الذى حصدته البيجوم «سليمة».

وهكذا فالبعض يتهم «انارة» بأنها تتخلى عن عقيدتها بسهولة فائقة من اجل المال والمصلحة فتارة تعتنق الارثوذوكسية وتارة تعتنق الاسلام والبعض الآخر يتهم الاغاخان بأن فؤاده سريع التحول يشتعل بجذوة الحب بسرعة، ومن ثم لا يطيق فراق معشوقته لثوان، يغدق عليها اموالا طائلة والنفيس من الجواهر، فلاشىء يكفى، ولكن عندما يتحول فؤاده وتخمد الجذوة يصبح فؤاده فى صلابة وصقيع المرمر!!

ولا حصر للمؤسسات الخيرية والانشطة الانسانية والثقافية للاغاخان، فهو يخصص مائة مليون يورو كل عام لصالح تلك الجهود، لديه عشرات القصور فى انحاء العالم، ثلاثمائة فرس فى قصره بمدينة «شانتيه»، هذا ما جاء ذكره فى كتاب «الحياة الضخمة للاغاخان ووريثه كريم» ولقد ربطت صداقات وطيدة بينه وبين «انديرا غاندى»، «جيسكار ديستان»، شاه ايران، الملكة «اليزابيث» اما تعداد الطائفة الاسماعيلية فيبلغ حوالى ٢٠ مليون نسمة، يخصصون حوالى عشرة او عشرين فى المائة من ايراداتهم لصالح امير الطائفة، ومن المعروف انهم يقومون بوزن سبائك من الذهب، البلاتين والماس مقابل وزنه.

وهكذا سوف يسدل الستار الملكى قريبا على أشهر وأغلى طلاق فى العالم!!

الفصل

8

النساء..
والجاسوسية

- ماتا هاري.. كريستين كيلر.. هبة سليم.. أشهر الجاسوسات في التاريخ!
- رقصة الغلائل السبع.. وستربتيز الجاسوسية!

فى عتمة الليل السحيق، فى لحظة غواية جهنمية امتزج فيها العشق الوثنى بالضعف البشرى بكل ألوانه وهوانه، فكان دائما وأبدا منذ قديم الأزل الثمن باهظا.

فعرفنا عبر التاريخ نماذج ضالة من البشر باعوا أوطانهم وأجسادهم وعقيدتهم من أجل لحظة متعة لقيطة زائلة، وأحيانا من أجل ثروة فانية ثمنها أن هان الوطن فكان القبح فى أبشع صوره. وفى بعض الأحيان تسلل نوع من النساء إلى تلك اللحظات التى تلفحت بالضعف الإنسانى تارة طمعا فى اقتناء الثروة، وتارة جريا وراء شهوة السلطة والشهرة، وأحيانا نوعا من استمتاع الأنثى لمدى تأثير الفتنة والمكر على قدر رجال ومصائرهم.

فكان أن أصبح لسادية الأنثى التى طالما ذاقت القمع والقهر من قبل الرجل ضحايا ممن يملكون الجاه والسلطة والمال شرقا وغربا، فعرفنا عبر الزمن ملوكا وأمراء ورجال سياسة وزعماء بل وأنبياء كانوا ضحايا لخيانة امرأة.

والتاريخ حافل بالنساء الخائنات المتلحفات بالغدر، هن على سبيل المثال استر ولولا مونتيز والجميلة اوتيرو ودليلة وسالومى الغانية صاحبة أول رقصة ستربيتز فى التاريخ، رقصة الغلائل السبع الحريرية أمام الملك هيرود والتى كان ثمنها رأس النبى يوحنا المعمدان..وقد كان.

هذا فى الزمن الغابر، أما فى القرن العشرين وبالتحديد فى بداياته ظهرت أشهر جاسوسة فى التاريخ وهى ماتا هارى.

ويبدو أن لسالومى أخوات وحفيدات ووريثات بالرغم من مئات السنين التى تفصل بينهن، فعبق تلك الرقصة الملعونة لم يذبل وجاءت ماتا هارى لكى تبعث روح وجسد سالومى من جديد، ومن ثم ولدت الأسطورة. وتوالت بعد ذلك قصص الجاسوسات والفضائح التى هزت دولا وكادت أن تنال من عروش.

فكانت على سبيل المثال فضيحة كريستين كيللر فى الستينيات مع وزير الحربية البريطانى بروفومو.

وأيضا الجاسوسة بينفيذا بيريز الشهيرة بليدى «ب» مع السير «Sir» بيترهاردينج رئيس أركان حرب الملكة اليزابيث والتى كادت أن تعصف بحكومة جون ميجور ثم أيضا قصة ملكة جمال الهند وفضائحها مع مسئولين من أنحاء العالم، والمؤسف أننا عرفنا أيضا فى مصر هذا النوع من النساء، فكانت على سبيل المثال «هـ» «س» بطلة فيلم الصعود إلى الهاوية وأيضا الجاسوسة «ن» تلك الراقصة المغمورة التى لم تدمر نفسها فحسب بل وأيضا أفراد عائلتها.

وسوف أبدأ بأحدث كتاب صدر فى فرنسا وهو «شيطانة كالوير» لبيير بيان وهو عبارة عن سيرة حياة أشهر جاسوسة عرفتها فرنسا أثناء الاحتلال الألمانى هى ليدى باستيان، والتى يطلقون عليها ماتا هارى المقاومة.

ويروى هذا الكتاب المثير المأساة أو التراجيديا الدامية التى شهدتها فرنسا يوم ٢١ يونيو عام ١٩٤٣ والمعروفة بدراما كالوير، والتى راح ضحيتها جان مولا مؤسس الجيش السرى للمقاومة الفرنسية ضد الاحتلال الألمانى وعدد من أفراد شبكة المقاومة، حيث كان فى هذا اليوم يعقد اجتماع بالغ الأهمية لأعضاء المقاومة وزعمائها.

أما المؤامرة أو الخيانة فقد تمت من خلال رينيه هاردى أحد أفراد المقاومة الذى كان مسئولا عن عمليات التخريب والنسف لقطارات السكك الحديدية ومن ثم أطلق عليه لقب «Rene Fer» ولقد تمت الوشاية عن طريقه حيث قام بإبلاغ الجستابو بموعد ومكان الاجتماع بمدينة ليون، بل إنه قام بوضع صليب على باب المنزل لتسهيل مهمة

الجستابو فى عملية الاقتحام والتى تمت تحت رئاسة كلاوس باربى، هذا الرجل الذى اشتهر بالدموية والقسوة والذى قدم للمحاكمة مؤخراً وهو فى الثمانين من عمره بتهمة النازية والتعذيب الوحشى والقتل لرجال المقاومة، والذى كان من بينهم جان مولان.

امرأة خطرة

أما كيف تحول رينيه هاردى هذا الشاب المتحمس، الثائر، الشجاع أو بطل المقاومة والعضو النشط إلى خائن، إلى جاسوس فتلك هى قصتنا؟

ترى عندما تخترق امرأة بالغة الحسن - هى الفتنة والجمال - حياة رجل.. ترى أيكون هذا من حسن طالعه أم من سوء الطالع ونذير شؤم؟.

أما بالنسبة لحكايتنا تلك فهو من سوء حظه. لقد كان رينيه هاردى شابا فى الواحدة والثلاثين من عمره يفتقد النضج العاطفى.. وتجربته الإنسانية مازالت إلى حد كبير هشة حتى إنه كان يخاف النساء.. إن مشكلته تشبه مشكلة فولتير وشمفور حيث إنهما يقولان: «لا نعرف الفرق بين المرأة الفاضلة أو الليدى وبين العاهرة ولكن فى النهاية كلهن يملن إلى الخفة»

أما بداية التحول فى حياة هاردى، فبالتحديد يوم ٢٣ يناير ١٩٤٣.. كان الجو شديد البرودة وتلك اللسعة الباريسية الشهيرة التى تنذر بمزيد من الصقيع واحتياج لمزيد من الدفء فلا مفر من استجدائه فى الأماكن المغلقة.

فكان أن وقع اللقاء الأول للبطل الذى كان والفرنسية ذات العشرين ربيعا ليدى باتسيان فى مقهى صغير بمدينة ليون، جدران الحانة الصغيرة خشبية تعطى شعورا بالحميمية وكأنها تحتضن روادها، وحول المدفأة العامرة بألسنة لهب صهباء، ذهبية وقانية تتعانق وتتلوى فى رقصة وثنية تشع سخونة ووهجاً وتشعل المشاعر الخاملة.

وجد هاردى نفسه فجأة أمام عينين سوداوين فى سواد الظلم،

عميقتين فى عمق الزمان.. تلوحان بالخطيئة.. تعدان بالمتعة المجهولة، فى عينى تلك المرأة نظرة مغناطيسية حادة تكاد تسلب الروح وتعتصرها، أما الوجه فمسحوب ربما من الاستسلام لأحلام عارمة مضرمة وبشرة عاجية لها ضياء الفضة، يناقضها سيل من الشعر الحالك فى طول ليالى العشق، شلال فاحم يبدو كأنه القاتل والمقتول. وهكذا وجد هاردى أمامه جمالا خطرا من نوع فريد غجرى، بوهيمى، وأرستقراطى فى آن واحد، أنثى.. الليل والنهار فيها مجتمعان.

ومنذ تلك اللحظة أصبحت ليدى عشيقة لهاردى، فلقد أشعلت فيه كل ما يمكن إشعاله، فلقد أصبح مجنونا بحبها إلى درجة أنه أصبح يصطحبها فى كل مكان حتى فى الاجتماعات السرية لشبكة المقاومة، مما أثار ضده أعضاء الجيش السرى ولكن هاردى كان مولعا بالفتاة لدرجة الثمالة، لدرجة البوح وإفشاء كل الأسرار، والاجتماعات والخطط والسلاح. أما سلاح ليدى الوحيد فيما يبدو فكان سلاح الوسادة.. فكانت مناجاة ووشوشة العشاق تتخللها اعترافات خطيرة يهتز لها كيان دول عظمى.

ومن هنا سيطرت ليدى على هاردى سيطرة مطلقة وأصبح من الآن فصاعدا عميلا للألمان، فلقد وضعوا هاردى أمام خيارين.. مدعين أنه إما أن يتعاون معهم ضد أفراد المقاومة وإما يعتقلوا حبيبته ليدى.. بل وأيضا عائلتها. وهكذا فلقد اختار هاردى العاشق المسكون بعاطفة متأججة سلامة الحبيبة الغامضة على سلامة الوطن.. فلقد هان الوطن وهانت الأرض والسماء أمام هذا الوجه الناصع الغارق فى شلال الخصلات الثائرة، المتمردة، الفاحمة، فحان وقت السقوط فى مستنقع الخيانة.

أما شخصية ليدى فهى للمرة المائة تنويعة أخرى لنفس اللحن. شخصية الجاسوسة، الميكيافيللية، تتمتع بذكاء متقد، عزيمة قوية، عنيدة، جريئة استفزازية.

ولدت ليدى فى يوم ٢٢ أغسطس عام ١٩٢٢ برج الأسد أى هى امرأة من برج النار. درست فى مدارس الراهبات وكن يقلن عنها منذ

طفولتها تلك الصبية هى الشيطان «إنها ممسوسة».

عشقت ليدى والدها، فأحبته حبا جما وكرهت والدتها. وليدى لم تكتف بفتنة الوجه والجسد والذكاء الفطرى الذى يهبه الله من يشاء.. ولكنها كانت مسكونة بنهم للمعرفة والثقافة وقدرة فائقة على التحصيل، فالتهمت كتب الفلاسفة وخاصة نيتشة والأدباء، ثم بدأت تنمى الميل الذى شعرت به منذ صباها تجاه كل ما له علاقة بالروحانيات والغيبيات والخوارق، فنهلت من الكتب التى تدور حول «ما وراء الطبيعة» Parasychologie. وكل ما له علاقة بتوارد الخواطر والشفافية والتنويم المغناطيسى.. وكيف للإنسان أن يتخطى حدود الزمان والمكان. وأن حياة الإنسان ما هى إلا وسيلة لنزع الغلالة التى تستر حقيقة الكون، فانكبت على الدراسة وأصبحت مولعة بالتنجيم والنبوءات والسحر وتنمية قدراتها التى اكتشفت رويدا رويدا أنها غير عادية فهى ترى نفسها فى دور العرافة ولم لا!

فليدى اكتشفت أن امتلاك الجسد لا يكفى، فهى تريد سيطرة مطلقة على الرجال لتحقيق طموحاتها ومصالحها، فيجب السيطرة إذن على ما هو أعمق وأبعد وأصعب.. الروح والعقل.. ففى عالم ليدى الحب وحده لا يكفى. الجمال الصارخ، الذكاء الخارق، ولكن مع خواء فى الروح والنفس وجوع لا يعرف نعمة الشبع وظمأ لمظاهر الحياة لا يعرف الارتواء، فتلك نقمة.. فالجمال يحتاج لحماية، والفضيلة تحميه وتصونه وهو الإطار الذى يحتاجه.. والذكاء يجب أن يمتزج بالحكمة وبالفكر وبرقى النفس وتعففها.. فالجاسوسة مثل دمية ولكنها ذكية وهنا أذكر عبارة لدولا كروا «المادة دائما يتبعها الحزن أو السقوط فيه» هى دمية مفرغة من الداخل خاوية الأحشاء والأعماق منزوعة القيم.

أستطيع تنويم من أريد

لقد اشتهرت إذن ليدى بقدرتها الفائقة على التنويم المغناطيسى. وعندما قدم رينيه هاردى للمحاكمة بتهمة الخيانة، كان لابد أن تشهد

ليدى فى المحكمة فانهال عليها المصورون والصحفيون فكانت مجموعة من الأغلفة والموضوعات لفرانس سوار وبوان دى فوى وبارى ماتش تحت عنوان «أستطيع تنويم من أريد» وبالفعل روت ليدى مجموعة من تجاربها فى مجال التنويم المغناطيسى والإيحاء.. وكيف أنها استطاعت أن تكون وسيطا روحانيا.. وكيف أنها سيطرت على بعض الناس وجعلتهم يطيعونها وأحيانا يخبرونها عن المستقبل والأحداث المختبئة فى رحم الزمن بل وشفاء المرضى. أما نظرة عينيها فقيل عنها «ترى فيها العالم الآخر». فنظرتها لها بريق حاد غريب وغامض.

وهكذا فلقد أصبحت ليدى فى منطقة شائكة من الممكن أن تقع فى مجال الشعوذة والدجل ومن الممكن أن تحتوى على شىء من الصدق.

أما أثناء محاكمة هاردى والتى حاولت ليدى تبرئته بشتى الطرق. لأنها ببساطة تبرئ نفسها. طالبت بمنتهى القسوة والبرود الرجل الذى ضحى بحياته وبشرفه من أجلها بثمن الرسائل والطرود التى كانت تبعث بها إليه أثناء سجنه، ولم تكتف بذلك بل إنها دعت بعض رجال الصحافة لتصويرها شبه عارية فى حمامها، مستعرضة جسدها على صفحات الجرائد ثم ادعت بعد ذلك أنها لم تكن تعلم وأن ذلك لم يتم بموافقتها.

ذاكرة الحواس

هذه إذن حقيقة ليدى باستيان شخصية انتهازية تجهل ما يسمى بعالم الخير وعالم الشر، فلا شىء يهم ولا ذاكرة أو قيمة هناك لوطن أو عقيدة أو مبدأ أو بشر، فقط ذاكرة الحواس، وذاكرة الأنا.

أما بعد محاكمة هاردى فلقد سافرت ليدى إلى الهند حيث قامت بتعميق وترسيخ قدراتها على الخوارق والغيبيات واليوجا.. بل إنها قامت بافتتاح مركز فى بومباى للبحث فى طبيعة الإنسان وتطوره وارتقائه.. ولقد حضر الافتتاح وزير العمل الهندى، وقرينة رامشوارى نهرو وهذا فى عام ١٩٥٦ وفى عام ١٩٥٧ أنشأت أيضا مؤسسة عالمية فى الهند لكل ما له علاقة بما وراء الطبيعة.

ثم تركت الهند وذهبت إلى نيويورك حيث أسست المركز الثقافى الهندى وكانت ضيفة الشرف قرينة الرئيس روزفلت. والتى بعد سماع الخطاب الذى ألقته ليدى فى الافتتاح. تساءلت فى ذهول وكأنها فاقدة الوعى منومة: ماذا افعل هنا؟

ثم بعد ذلك عادت ليدى إلى باريس وقامت أيضا بإنشاء مركز للروحانيات حضر افتتاحه الأديب الشهير اندريه موروا. أما ليدى فلم تكن تكف عن ترديد أنها تجسيد لكليوباترا فهى تؤمن بتناسخ الأرواح، فالملكة المصرية بعثت مرة أخرى من خلال ليدى باتسيان.

● ● ●

شيطانة، ساحرة، مصاصة دماء، أجيرة وأخيرا جاسوسة، تلك هى الأوصاف التى نعتت بها ليدى باستيان أو كما أطلق عليها ماتا هارى المقاومة الفرنسية، وعلاقتها المثيرة بالسلطة.. وكيف أنها استطاعت التأثير على رينيه هاردى البطل الذى كان وتحويله لمجرد خائن وعميل للعدو الألمانى.

ومن أجل السيطرة المطلقة على مقدرات الرجال ومصائرهم لم تكتف بفتنة الوجه والجسد فحسب بل إنها سعت إلى تنمية قدرات الروح والتعمق فى مجال التنويم المغناطيسى والتنجيم وكل ما له علاقة بما وراء الطبيعة.

القرين الأنثوى لراسبوتين

والحقيقة هى أنى أعتقد أن ليدى باستيان هى أيضا القرين الأنثوى لراسبوتين، فمثلما وصل راسبوتين إلى السلطة والحكم من خلال قدراته الخارقة فى عالم الغيبيات وقراءة الطالع بنظرة عين والتنويم المغناطيسى وأيضا قدراته الذكورية واستعماله لكل ما هو حسى وجنسى وأذكر هنا عبارته الشهيرة:

«إن النساء أهم وأخطر من الرجال» فيجب البدء بهن! هكذا أعمل.. إن النساء يقعن تحت وطأة رجولتى التى لا تقاوم ونظراتى المغناطيسية».

هكذا فلقد عرف راسبوتين أسرار اللعبة وأسرار المتعة بين الرجال والنساء، فهى لا تتغير فى كل زمان ومكان فلم تنج ومن تأثيره أميرة أو نبيلة.. غجرية أو عاهرة.. فلقد ابتلع الإمبراطورية بأسرها بما فيها زوجة القيصر.. وقيل أيضا عن راسبوتين إنه جاسوس لصالح العدو الألمانى.

هى الحقيقة.. التاريخ دائما يعيد نفسه ولكن تلك المرة مع اختلاف فى الجنس.

أما الغريب حقا فى حكاية ليدى باستيان فهو مدى تأثيرها على كل أنواع الرجال واتصالاتها المتشعبة فكيف لفتاة فى العشرين من عمرها أن يستقبلها الجنرال بيير لافال رئيس وزراء فرنسا فى هذا الوقت أى أثناء حكومة فيشى.. وكيف لرجل مثل شارل ديجول أن يمنحها شهادة بأنها تعتبر من المقاومة الفرنسية بالرغم من كل ما قيل عنها.. كل شىء ممكن وكل شىء مباح فى عالم ليدى باستيان.. أو بيا تريس وهو اسمها الحركى لدى الجياستوبو.

أما ثمن خيانة ليدى لوطنها ولحبيبها فلقد كان عن مجموعة نادرة من مجوهرات اليهود التى استولى عليها الألمان وحصلت هى على جزء منها.. قدرها الجواهرجى الشهير فان كليف واربيل بعشرات الملايين من الفرنكات.

أما كيف كانت ليدى تعامل خطيبها الوسيم المتيم فى حبها.. فتلك هى قصة أخرى. فلقد كانت ليدى تتفنن فى تعذيبه وتعامله ببرود وصل إلى حد الخيانة. واذكر هنا بيتا للشاعر أبو فراس الحمدانى: «قتيلك: قالت أيهم فهم كثر».

وبينما ينفق هاردى الليالى والسنين فى السجن كانت ليدى غارقة فى حياة المغامرة. وأصبح عدد عشاقها يفوق عدد لآلىء العقد الذى تلبسه.

فهذا ماها شوهان زعيم طائفة ومذهب كما يقول إنه من نسل جنكيز خان، فى الظاهر رجل تقوى وزهد وفى الباطن يعشق النبيذ الفرنسى والدجاج المحمر وسيجار هافانا الكوبى والأمسيات والليالى

الدافئة بجوار الفاتنة الخطرة أبنوسية الشعر والعينين ليدى باستيان، والتى فيما يبدو أن تلك الليالى لم تكن من أجل إنقاذ الانسانية أو ممارسة التعاليم الهندوسية ثم.. يأتى توم سليك رجل بترول فاحش الثراء.. ثم يهودى روسى رجل مال وبنوك وتاجر فراء له قرابة براسبوتين هو صمويل أوجوسى.. وقد انتحر فى ظروف غامضة.

أيضا لم ينج من تأثيرها وسحرها الطاغى القس والأديب أرنست دى جيجباخ الذى أحبها بجنون وأصبحت ملهمته ولكن كإلهة للشر وأعطاها اسم فلورى، وهو قريب من زهور الشر لبودلير.. وعندما ذهبت ليدى إلى الهند سمت نفسها Aranda Devi وهو اسم أحد جنود بوذا ولكن Devi أيضا تعنى الشر.. ولقد شاركت أيضا الأديب العاشق الكتابة والإبداع بعد وفاة يونج زميل فرويد كتبت عنه مقالا تمجد فيه قربه من هتلر والتعاليم الهندوكية.. وأيضا ارتبطت بالأديب البريطانى هاكسلى الذى مجد استعمال مادة الميسكالين لإنعاش وتنبيه ضمير الإنسان. ولقد كانت تقول دائما إنها تمقت اليهود والشيوعيين ولكن لا بأس من التعاون معهم من أجل المصلحة، فهى مستعدة لعقد صفقات حتى مع الشيطان.

فى الليل.. كل شىء مباح

وأخيرا استقرت ليدى فى باريس وفتحت حانة فى حى موبارناس تدعى البوكاينيه.. وكانت باريس فى هذا الوقت يسرى فى هوائها عطر الثقافة والفكر، فكان زمن جان بول سارتر، وكامى وبيرنانوس ودى بوفوار وبوريس فيان، فسماء باريس منقوشة بالفن والجمال والإبداع. ومجموعة السرياليين والأجواء حبلى بثراء الفكر والثقافة وانتعاش الحركات الفنية.

وفى تلك الحانة تعزف موسيقى شوبان الخالدة التى تعشقها ليدى وترتعد تحت وطأة أنغامها.. وكل شىء مباح فى هذا المكان.. الخمر، المخدر، السحر، الطقوس الغريبة.. الدعارة.. العشق.. الأحلام المسكونة بالعهر.. السفر إلى مدن الشرق البعيدة ووشوشة أوراق المال

من كل لون، بريق الذهب والياقوت والماس، العنف، تجارة السلاح.. عالم خفى وسفلى مسكون بالصفقات المشبوهة، الجاسوسية كل شىء حتى إطلالة الفجر العاشقة المحملة والحبلى بشروق جديد آتى بآماله وأقداره وأيضا أخطاره.

فعلاقات ليدى باستيان غريبة.. والمترددون على الحانة والمطعم من كل لون وكل جنس.. رجال من KGB يقال إنها أيضا عملت من أجلهم.. ورجال من CIA يقال إنهم قاموا بحمايتها فى زمن المقاومة.. ويهود وتجار سلاح ومرتزقة. ولقد قامت ليدى بتأسيس شركة استثمارات وإنشاءات فى أفريقيا فى نيجيريا وغينيا من خلال علاقاتها الخطرة.

الاعتراف

أصبحت على علاقة وطيدة بابن أخ رئيس غينيا لانسانا كونتيه.. وهو فيكتور كونتيه الذى أودعت فيه كل ثقتها فى آخر أيامها.. بل حتى وصيتها تركتها معه.. أما المثير والمدهش حقا فهو الاعتراف.. فلقد اعترفت ليدى لفيكتور بأن رينيه هاردى لم يكن أول تجربة عاطفية فى حياتها كما ادعت أو أوحت له.. وإنما كانت على علاقة بالضابط الألمانى سمينجرايت.. وأن لقاءها بهاردى فى المقهى لم يكن وليد صدفة وإنما كان مدبرا من قبل الألمان وإنها بالفعل جاسوسة للعدو.

فارقت الحياة ليدى باستيان عام ١٩٩٤ محاطة بهالة من الألغاز القاتمة والغموض والرهبة. أين ذهبت الملايين. ما الحقيقة.. لا أحد إلى الآن على يقين من شىء.. والله اعلم. وربما كان هذا الكتاب هو مجرد بداية إضاءة لتلك الحياة أو الشخصية المفعمة بالغموض والأسرار.. أما أكثر الأبيات التى أجدها معبرة عن تلك الشخصية والشخصيات التى سأتناولها فيما بعد، فهى من قصيدة «إلى أجيرة» للشاعر نزار قبانى..

بدرا همى!

لا بالحديث الناعم حطمت عزتك المنيعة كلها بدرا همى
وبما حملت النفائس والحرير الحالم فاطعتنى وتبعتنى

فــإذا بصـــدرك . ذلك المغـــرور . ضـــمن غنائمى
أنـت أطـوع فـى يـدى مـن خـــــــــــــــاتمى

أمنت بالحـــسن الأجـــيـــــر.. وطأته بدراهـمى
وركلتـــه وذللتـــه وأنا أصب نارى ونار شـــتـائمى

ذهب وديبـــاج وأحـــجـــار تشع فـــقـــاومى
خـــيـــرات صـــدرك كلهـــا من بعض مـــواســـمى
لم يبق شىء منك.. منذ استعبدتك بدراهمى!!

●●●

وهنا أود أن يعود بنا الزمان إلى الوراء قليلا، لنبعث الحياة لتلك الأسطورة التى عبرت التاريخ تاركة عطر فضيحة لم يذبل بمرور الزمن، فهى نموذج آخر لتلك النوعية من الأجيرات أو الحريم اللائى تلحفن بالكيد والغدر واحترفن الاتجار بما ملكن من فتنة فالجمال مرصود لمن يدفع الثمن فكانت قصة حياة وأيضا قصة موت.

هى ماتا هارى

اشتعل جسدها الفاتن، الفائز بلهيب وحرارة أسطورة الشرق السحرية. فبدت تارة كجنية بحرية شقت اللؤلؤ والمحار فاختلطت بهدير البحر ورائحة الملح وصخب الأمواج المتساحقة وتارة بدت كإنسية محظية من عالم ألف ليلة وليلة بقيت بعد انقضاء ليالى الملك السعيد وإسدال الستار على كلام شهر زاد المباح وغيره. فهى أشهر وأخطر جاسوسة وراقصة فى القرن العشرين. فلقد اهتزت وتمايلت على أنغام وإيقاعات السياسة والسلطة وتسلقت على غرائز الرجال.
وأعادت إلى الحياة رقصة سالومى المميتة التى كان ثمنها رأس النبى

يوحنا المعمدان. أما بالنسبة لماتا هارى فالثمن كان رؤوس وزراء وسفراء وعروش ودول وفى النهاية رأسها.. والحقيقة هى أنه لم توجد نجمة لم تحلم بتجسيد دور تلك الجاسوسة الشهيرة على الشاشة، فقامت بدورها جريتا جاربو ومارلين ديتريش ثم جان مورو وسيلفيا كريستال. أيضا ألهمت شخصيتها العديد من الكتاب والمبدعين.. فهناك ٣٠ كتابا كلها أعمال تدور حول حياتها.. وأخيرا صدر كتاب عن تلك المغامرة الحسناء لليون شيرمان «قضية ماتا هارى».

ولدت مارجريتا زيلى فى نيوزيلندا فى أواخر القرن الماضى تزوجت وهى لاتزال فى مرحلة الصبا ببحار سكير أثناء وجودها فى الهند.

وبطبيعة الحال فشلت الزيجة.. ورحلت هى إلى باريس وهى تعانى من ظروفها الصعبة، فهناك مرارة الصدمة وأيضا الفقر المدقع، فلم تكن تملك مليما واحدا. وفى هذا الوقت كان يجتاح أوروبا الولع بالشرق.. فالخيال الأوروبى مسكون بقصائد بودلير عن الحلم الشرقى أرض المتعة والمال والفخامة، والسماء منقوشة بإبداعات نيرفال ولوتى وهوجو عن دموع الصبايا والمحظيات الشرقيات. وأعمال الفنانين المستشرقين تغازل مخيلة كل أوربى، فحمى الاستشراق تسرى فى الماء والهواء. ومن ثم أدركت مارجريتا بذكاء ودهاء الأنثى الفطرى أن تلك هى التعويذة المضمونة فى هذا الزمن، فالحنين او Nostalgie لبلاد الشرق البعيدة الصعبة المنال سوف يفتح لها الأبواب المغلقة فاختارت اسم «ماتا هارى» والذى يعنى بالماليزية «عين الفجر» واختلقت لنفسها شخصية محاطة بالغموض.. فالموضة لكل ما هو exsoti que أو غريب أو غير مألوف ومن الآن فصاعدا أصبحت ماتا هارى مما يقال عنهن تعبير Femme Fatale أى امرأة خطرة.

ولقد كانت ماتا بحق بارعة فى غزل الأكاذيب والحكايات المثيرة فلقد كانت مصابة بـ Mythomanie أى اختلاق القصص والعيش فى الأوهام. عرفت الراقصة الشهيرة كيفية استثمار تلك الجاذبية أو الجمال الشرقى الذى أتاح لها دخول الطبقة الراقية فى أوروبا وصفوة المجتمع.

وهكذا احترفت عين الفجر أو ماتا هارى الرقص وبالتحديد على طريقة سالومى الفانية.. ودائما.. دائما رقصة الغلائل السبع الحريرية.. فانكشف جسد الجميلة الذى اغتسل تارة بلهيب الشمس وتارة بضوء القمر.. وبدت تلك البشرة المعجونة بالبهار والعنبر والريحان فتنة للناظرين اشتهرت بالثغر الذى لا تفارقه الابتسامة والشفاه هما جمرتان فى انتظار النار المضطرمة. ولمدة عشر سنوات اصبحت الجميلة، المدللة لصفوة المجتمع فى باريس وبرلين وموناكو ومدريد.. فعرفت أخيرا حياة البذخ والفخامة والقصور.. وكيف لا وهى الزهرة المتوحشة البرية، بركانية الأعماق وسط صقيع أوروبا، ورتابتها، ولكن السعادة لا تدوم طويلا.. وهى حكمة الله فى كل زمان ومكان، فالسماء بدت ملبدة بغيوم الحرب وبالفعل كان القتال قد بدأ فى عام ١٩١٤ ووجدت ماتا هارى نفسها بلا مورد.. أقامتها محدودة فى برلين وعقدها كراقصة فى ملهى ليلى شهير قد انتهى. ووضعت حراسة على أموالها وهى التى لم تعد تطيق حياة البؤس والشقاء بعد أن ذاقت رغد العيش ومتع الدنيا ونعيمها. لم يعد هناك مجال للتردد، هذا الشعر الغزير تنثره ليلا فيبدو كغابات استوائية تحرق من يقترب وتبتلع كل شىء، الأسرار الخطرة.. المعلومات الثمينة فأصبحت ماتا تتعاون مع جهاز المخابرات الألمانى وأصبحت على علم بالعديد من الأسرارالحربية وتحركات القوات البحرية وأسرار أخرى ديبلوماسية خطيرة، فباتت متورطة فى عدة عمليات مشبوهة.

الموت عشقا

ولحظها العاثر وقعت ماتا هارى فى حب ضابط شاب روسى، عشقته بجنون فلقد لحفها لهيب الهوى وقررت أن تتزوجه، ولكن يجب أن توفر مبلغا من المال، ولسوء حظها أنها امرأة لها قلب، فلقد خمل عقلها وتسلل الخدر إلى كل مسامها وردود أفعالها.

وهكذا بمنتهى اللامبالاة وعدم الإدراك اتصلت أيضا بالمخابرات الفرنسية وأصبحت عميلا مزدوجا. وبدأت سلسلة من التصرفات

المـزوجـة بالحمـاقـة.. والتى سـرعـان مـا أدت إلى إعـدامـهـا فـى يوم ١٥ اكتوبر عام ١٩١٧..

مسكينة مـاتا هـارى فلقد دفـعت الثمن لكل النسـاء الـلاتى عـملن فى مجال الجاسوسية بعدها.

فـفـى زمـن مـاتا لم يكن كل شـىء مـبـاحـا على حـد تعـبـيـر إيفـان كارامازوف فى روايـة ديستويفسكى الشهيرة. أما فى زمـاننـا هـذا فهو يسـتـبيح كل شىء.. ففى الغـرب ومنذ منتصف القـرن لم يعـد مصـيـر المرأة اللعوب محترفـة الخيانة والموت، فـالجاسوسية لم تعـد هنـاك من جرائم الحرب ومن ثم يتبعها الموت.

كريستين كيلر.. التى أسقطت حكومة الإنجليز!

● وخلق الله المرأة هذا المخلوق الجميل.

فكانت دائمـا وأبدا هـى المرفـأ والشـاطىء والسكن.. وايضـا الدافع للرجل.. بل رحم الحياة بأسرها.

ولكن فى بـعض الأحـيـان ولسـوء طالع بعض الرجـال، وخـاصـة هؤلاء الذين يـهـيـمـون فى بؤرة الضـوء، فـهم قـابعـون فى حـصـون من زجـاج شفاف.. بللور، أى شائبة تعكر صفاءه، ومن ثم أصبح من السهل تلويثه وتحطيمـه، فـالسلطة هـى فى الواقع قـمـة القـوة ولكن أيضـا قـمـة الضعف.. فما البال إذن بالفضائح التى تهتز لها عروش ودول.

والتجربة الإنسانيـة عـامرة ببعض النمـاذج الضـالة للنسـاء الأجيرات اللاتى احترفن وأدمن الإيقاع بتلك النوعية من الرجال.. فوجدت المرأة من أصـحـاب الجاه والسلطة المتلحـفـة بالغـدر التى برعت فـى إشـعـال الحـرائق وزلزلة العـروش، فـأتقنت لعبة الرجل والمرأة.. أخضـعت أقـوى الرجـال لـرغـبتهـا. هى قـصـة لن نعـرف لهـا نهـاية، مـادام هـنـاك الطمع والجشع والنفوس الضعيفة وخواء الـروح بل إن الأمور تسير من سيىء الى أسـوأ مـادام التكالب على الماديات فى ازدياد، أصـبـحنا بحق فى زمن حضارة الأشياء وليس حضارة الإنسان.

ومن ثم يكون من الطبـيـعى وجـود من يبـيع انتـمـاءه سـواء لـلأرض أو

للسماء، الوطن والعقيدة لمن يدفع الثمن.

وحكايتنا تلك تبدو تنويعة أخرى لنفس اللحن العتيق.. الزمان.. الستينيات والمكان بريطانيا.

هى بدت طفلة فاجأتها الأنوثة قبل موعدها أو ربما هى أنثى لم تغادرها طفولتها قط.. فاحتفظ الوجه الناعم الرقيق ببراءته، يناقضه جسد مفعم بالأنوثة الجامحة، فكأن الوجه البرىء لا يدرى شيئا عن تأثير الجسد المثير، هذا الطراز من النساء يطلق عليه الفرنسيون تعبير «Femme enfant» امرأة طفلة هى «كريستين كيلر» الجاسوسة ذات العشرين ربيعا، صاحبة أشهر فضيحة هزت أرجاء بريطانيا.

فكانت أن تسببت فى استقالة عشيقها بطل الفضيحة وزير الحربية حينذاك «جون بروفومو» بل وأسقطت الغانية الصغيرة أو كما يقولون «call girl» حكومة ماكميلان.

كانت كريستين فتاة ربيعية الجمال، لها شعر يبدو كأنه مستمد من ألوان الشفق لحظة استسلام الشمس للغروب، ونظرة عين ناعسة مبللة بلون الشهد، فالوجه البرىء غارق فى الحلم بحواديت الأطفال وكنوز ملوك الجان والأزمنة الخرافية. ولكن الروح والأعماق لعجوز شمطاء، ماكرة أقدم من عمر الرذيلة.

المتعة والفضيحة

أما كيف تم اللقاء الأول بين بروفومو الوزير ذى المنصب الخطير وبين كريستين، فللمرة الألف التاريخ يعيد نفسه والأحداث تتكرر. فلقد كان اللقاء مدبرا دون أن يدرى بروفومو.

فالموعد دبر من قبل طبيب يدعى «ستيفن وارد» الذى بهره جمال كريستين عندما اكتشفها فى ناد بقلب لندن، فقدمها أو بالأصح أهداها للوزير.

أما بروفومو فهو رجل يهوى الجمال ويعشقه فقد كان متزوجا من نجمة سينمائية مشهورة بفتنتها. وعندما رأى كريستين كيلر لم يقاوم الرغبة العارمة فى استعادة الزمن المفقود واسترجاع الشباب الذى

ولى، فمن خلال تلك الصبية ربيعية الجمال نارية الشعر، الصهباء.. يمكن استرجاع كل شىء.. كل شىء.
نضارة العاطفة وطزاجتها، الرغبة المضطرمة التى كانت والدهشة التى شاخت مع تتابع الفصول والمواسم حتى جاء الخريف برماده ورماديته ورتابته وأوراقه الذابلة واستكانته، فلا شىء إذن يساوى استرجاع هذا الزمن الضائع وليكن ما يكون.
وعمرت قصور ضواحى إنجلترا بلقاء الربيع والخريف، السلطة والجمال والمقامرة والمغامرة بأى شىء فى سبيل استيقاظ الحواس من جديد.
فالنفس زهدت خشونة المناصب وجفافها فحان إذن وقت المتعة. وفى أثناء الحرب الباردة أقامت كريستين علاقة مع ضابط روسى يدعى «ايفانوف» ملحق بالسفارة الروسية بلندن ولكنه فى الواقع ضابط مخابرات.. وفى نفس الوقت كانت ماضية فى علاقتها المشتعلة مع بروفومو.
لم يعد هناك إذن مفر من الفضيحة والسقوط، أما الطبيب الذى كان السبب فى تلك العلاقة الآثمة فلقد انتحر، لم يتحمل الضغط الأخلاقى والإعلامى.
وأما كريستين فلقد دخلت السجن لمدة قصيرة وبعدها قامت بعمل أغنية حققت أرقام مبيعات مذهلة فى أنحاء العالم.. وتروى كلمات الأغنية قصتها مع الوزير الخطير على أنغام البيانو على شكل حوار.. ولكن من طرف واحد «تقول كريستين اسمى كريستين ما هو اسمك: غير ممكن.. هل هى مداعبة أم أنك بالفعل.. فلان ثم صمت وضحكة لها رنين آت من الجحيم ونفس سيجارة وتنهيدة حارة من القلب ولكنى فتاة مهذبة» ثم أخيرا «سرك فى بير» أما هذا «البير» البئر فهو الروسى وأجهزة المخابرات والحكومة والإعلام والصحافة والملكة والعالم بأسره.
أما مصير جون بروفومو الآن ومنذ أن استقال كان تكريس حياته للأعمال الخيرية. وكريستين تعيش الآن فى منطقة بالمساكن الشعبية

فى حى بلندن بعد زيجتين فاشلتين وحفنة من الأطفال. فبعد أن ولى الجمال والجاه بقى عطر الفضيحة!

ويبدو أن بريطانيا موعودة بهذا النوع من النساء الخطرات.. ولقد تم مؤخرا اكتشاف جاسوسة بريطانية متقاعدة تبلغ من العمر سبعة وثمانين عاما.. ونظرا لتقدمها فى السن أسقطت عنها العقوبة ولقد قيل إنها أدت خدمات جليلة لروسيا.

ولقد كادت فضيحة الجنرال بيتر هارنج رئيس أركان حرب المملكة اليزابيث مع عشيقته الشقراء الجاسوسة «بينفيذا بريز بلانكو» أن تطيح بحكومة جون ميجور.

ذات صباح، كانت المفاجأة أو الصدمة التى خيمت على أرجاء المملكة بأسرها. سواء طبقة البسطاء من الشعب أو صفوة المجتمع، الجميع أصابه الذهول عند مطالعة جرائد الصباح، فالأغلفة كانت عبارة عن صورة للجنرال بيتر هاردنج وهو يقبل حبيبته الشقراء المفعمة بالحيوية والنضارة عند مدخل الدور تشيستر وهو من أرقى وأضخم فنادق لندن.

والمعروف أن صحافة بريطانيا الشعبية والصفراء مولعة بالفضائح التى يمتزج بها الجنس والمال والسياسة والجاسوسية.. فتلك هى المادة الشهية التى يلتهمها القراء، ولم تكف يوما صحافة المملكة عن الجرى وراء هذا النوع من القصص. أما كيف تم معرفة موعد لقاء العاشقين والحصول على هذه الصور الفريدة.. فها هى الحقيقة.

جنرال للبيع

بينفيذا الشهيرة بليدى «ب» هى فتاة أسبانية الأصل ورثت من كارمن الغجرية فتنتها وجراءتها وخطورتها وأيضا الاسطورة. ليدى «ب» مسكونة بنهم وولع جارف بالمال والحياة والترف وكل شىء يهون فى سبيل اقتناء الثروة ودخول طبقة غير طبقتها البسيطة.

ففى عالم بينفيذا الحياة لاتساوى شيئا إذا كانت عارية من الجاه والسلطة. فمخيلة الأسبانية الجميلة عامرة بالحرير الناعم الحالم

والياقوت النفيس والقصور الفخمة والأقدار الشامخة وأخيرا الألقاب الرنانة.

فكان أن قررت ليدى «ب» أن تبيع عشيقها السابق سير بيتر للصحافة، وقد قامت بإبلاغ المصورين صائدى اللقطات الساخنة Pa-par Azzi بموعد اللقاء مقابل مليون ونصف المليون من الجنيهات.

وهكذا فلقد نزل الجنرال سوق الرجال وأصبح بضاعة فى سوق النخاسة دون أن يدرى. ولم يتردد الرجل المهم لحظة فى الذهاب إلى الموعد المتفق عليه.. ولم يسأل نفسه ما الذى غير الحبيبة السابقة بعد أن تركته منذ زمن. فالهرولة ليست مقصورة على السياسة ولكنها أيضا فى مجال العشق والهوى. والحقيقة هى أن بينفيذا تعتبر محترفة ومتمرسة فى الإيقاع بالرجال أصحاب المناصب الخطيرة فى عالم السياسة والسلطة.

فلقد أحدثت ضجة منذ سنوات عندما تزوجت من سير «أنتونى بوك» وكان يشغل منصبا حساسا فى البحرية ويكبرها بثلاثين عاما.

النشوة والسقوط

ولكنه سرعان ما اكتشف أن زوجته الفاتنة التى أعادت له البهجة التى غابت.. والرغبة التى فترت على علاقة متأججة وملتهبة بالجنرال بيتر هاردينج، وعلى الطريقة الإنجليزية وبمنتهى الهدوء والتحفظ لم يجد الزوج المخدوع مفرا من طلب الطلاق وقد كان.

ومرت الأيام وعلاقتها مع هاردينج منسابة ومتدفقة حتى اليوم الذى قابلت فيه تاجر تحف روسى الجنسية.. أحبته.. حتى الثمالة ولم يعد هناك بديل عن القطيعة مع الجنرال.. ولكن هناك مشكلة.. فالحبيب الروسى مفلس.. وهى تعشق حياة الترف.. وحيث إن بطلتنا تلك تتمتع بشخصية ميكافيللية انتهازية، فلايوجد اسهل من تدبير مكيدة للعشيق السابق المتيم، والهائم فى حب امرأة هى الخديعة والغدر.. وبالفعل كان اللقاء الذى ذهب اليه مهرولا ولكن بينفيذا لم تكتف بإبلاغ

الصحافة عن الموعد ولكنها باعت أيضا خطابات بيتر هاردينج الساخنة لجريدة News of the world والتى عبر من خلالها عن مدى تعلقه بها، ذاكرا تفاصيل حميمة جدا عن علاقتهما، لدرجة أن قيل إنها تعتبر قطعة نادرة من الأدب الحسى.

هذا فى الوقت الذى كان من المفترض أن يكون بيتر هاردينج يمارس مهامه العسكرية الجسيمة، وبعد فلم يكن هناك مفر من الفضيحة والسقوط ومن ثم اضطر الرجل البالغ من العمر ستين عاما، المتزوج بل والأب لأربعة أبناء أن يقدم استقالته «لمللكوم ريفكند» وزير الدفاع.

أما المثير حقا للسخرية أن هاردينج كان هو أول مسئول يقوم بتوقيع القانون الجديد الخاص بمعاقبة كل من يقترف الزنا فى الجيش البريطانى!

وبالإضافة للسخط الشعبى الجارف تجاه الفضيحة - أيضا - سكوتلانديارد اكتشف أن المخابرات وجهاز مكافحة الجاسوسية كانا على علم بعلاقة هاردينج بالشقراء الخائنة والتى يبدو أن لها ماضيا غامضا.

قيل إنها فى الثامنة عشرة من عمرها قابلت رجلا عراقيا تولى إعدادها وتدريبها على كيفية السيطرة على الرجال الذين يتحكمون فى مصائر الشعوب. فعلمها كيفية جعلهم يقعون تحت وطأة سحرها الذى برهنت الأحداث وأثبت الزمن أنه حقا لا يقاوم!

الجمال الخائن

الجمال مرصود لمن يدفع الثمن هذا ما حدث مع ملكة جمال الهند والتى جعلت بريطانيا تعيش كابوسا آخر للمرة المائة بعد الألف.

جاءت «ناميلابوردز» من أرض الحكمة والمتعة. من أرض تقديس الرجل وتتويجه ملكا على دنيا المرأة.. بل أقول هنا إن أقدم وأعرق كتاب عن فنون وتعاليم الحب الهندى وهو Kama Soutra وهى كلمة تعنى إلهة الحب.

وهكذا فلقد تلحفت باميلا بإغراء الأسطورة الشرقية فكانت البشرة

من العقيق والكهرمان.. والعيون مسكونة بسحر كلمات طاغور والخيام.. وكنوز سليمان.. وأسرار المتعة فى كل زمان ومكان. ولم تكتف باميلا بتاج الجمال فحسب. ولكنها أيضا كانت تعمل موظفة بمجلس العموم. وبطبيعة الحال كانت مغرمة بالمال، ومن ثم بدأت تثير الشكوك حول مستوى معيشتها المرتفع جدا، حتى إنها على علاقة بوزير الرياضة البريطانية. وفى نفس الوقت بأحد أفراد عائلة رئيس دولة عربى وله منصب خطير فى الجيش. ومن ثم صارت فضيحة شهيرة كادت مرة أخرى أن تعصف بالحكومة فى بريطانيا.

الصعود إلى الهاوية

وللأسف أن مصر أيضا لم تسلم من هذه النوعية من البشر، فطبيعة الإنسان هى هى فى كل زمان ومكان.

ولقد سألت اللواء حسن صادق الذى ظل لفترة طويلة رئيسا للمحكمة العسكرية العليا ومن ثم أصدر العديد من الأحكام فى مجال الجاسوسية بحكم منصبه. قال: لقد أمضيت فترة من حياتى أتولى تلك النوعية من القضايا وأذكر على سبيل المثال راقصة مغمورة «ن» كانت تعمل فى ملهى درجة ثالثة، وكانت من العريش والمؤلم فى تلك القضية أنها لم تكتف بالانحراف واقتراف أبشع جريمة فى حق النفس وفى حق الوطن، بل إنها قامت بتجنيد كل أفراد عائلتها وزوجها، وشقيقتها وأيضا أولادها. ولقد حكمت عليها هى وزوجها بالإعدام.. ولكن الرئيس السادات عفى عنها من أجل أبنائها.. ونفذ الإعدام فى زوجها.

أما الجاسوسة «هـ. س» والتى قامت بتجسيد شخصيتها على الشاشة النجمة الراحلة مديحة كامل فى فيلم «الصعود إلى الهاوية» من إخراج كمال الشيخ فلقد عرفت بأدائها خدمات جليلة لإسرائيل ومن ثم حاولت القيادة الإسرائيلية الحصول على عفو عنها بأى ثمن من الرئيس السادات ولكنه تغلب على كل المحاولات والضغوط، وبالفعل

من أجل حسم القضية.. قال إن الحكم بالإعدام قد نفذ بالفعل فى «هـ» والحقيقة أنه لم يكن بعد قد تم. ويقول اللواء حسن صادق معلقا على تلك الجاسوسة: لقد جاءتنى فى النقض والحقيقة هى أنها اتسمت بالوقاحة والجرأة والاستفزازية المنفرة.. ولقد لمست أنها شخصية تشعر بالكراهية تجاه كل شىء. ولقد نجحت بذكائها فى تجنيد حبيبها المهندس المتخصص فى الصواريخ. وأذكر أن آخر جملة تلفظ بها لحظة إعدامها بالرصاص: أنا استحق الموت! وأخيرا من الصعب تقبل فكرة أن هناك مصريا أو مصرية من الممكن أن يخون هذا الوطن.

هذا الوطن العامر بالنهر ذى الفضة السائلة كيف السبيل إلى خيانة هذا الوادى النضر، البكر الذى احتوى طفولتنا وصبانا وذاكرتنا الحبلى بالأمسيات الجميلة والمفعمة بأذان العشاء فى رمضان وأذان المغرب بصوت له رنين من الجنة للشيخ رفعت، وبأجراس الكنائس أيام الاحاد المسكونة بالرهبة الشامخة التى تشطر الصمت والضجر.. بأيام الجمعة والجميع يعتصم بالسكون الموحى بالطقوس المصرية فى كل بيت «اللمة» بحكمة البسطاء وبالليل الدامس فى أحضان القمر بالأناشيد الغابرة، ترنيمة القدماء حيث أبدية المكان وخلوده بإطلالة الفجر العاشقة المحملة بالندى ورحيق النسيم الصافى الذى يداعب الحلم بعراقة وجلال الأمس، ووهج آمال الغد الآتية. فكيف لأى مصرى أن يخون؟!

المراجـــع

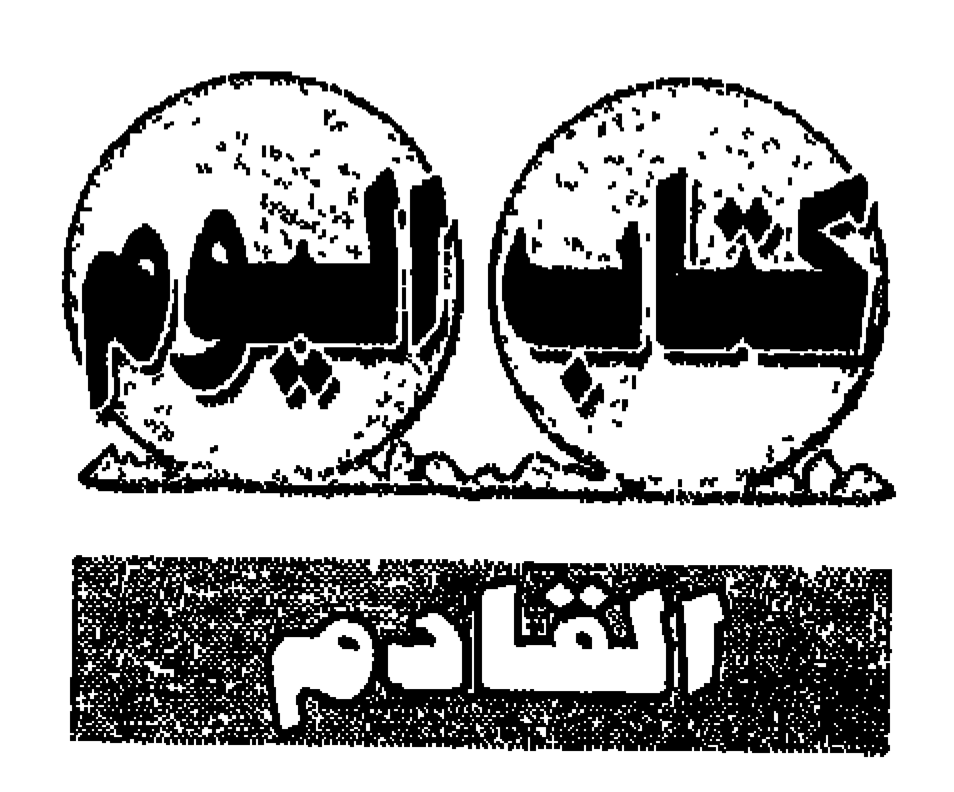
- المرأة من خلال الفنانين المستشرقين للين ثورتون.
- المستشرقون لكريستين بيلتريه.
- الاستشراق للدكتور ادوار سعيد.
- رسالة الدكتورة سهير القلماوى عن الف ليلة وليلة.
- مصر مُصورة للدكتورة عزة هيكل.
- المستشرقون فى المدرسة الأيطالية لكارولين چولير.
- فنانو البوسفور لاوجوست بوب.
- الانسان هذا المجهول كاريل.
- جوستاف فلوبير..الرسائل المصرية.
- عدم المساواة فى الاجناس- جوبينو.
- جيرار دى نيرفال.. الرحلة إلى الشرق.
- فرومونتان أوجين.. صيف فى الصحراء.
- تيوفيل جوتيه- قسطنتين
- النساء كسلعة جنسية.. دراسات فى إيرويسية الفن.
- عادات وتقاليد مصر الحديثة- لايدوارد لين.
- الحريم المستعمر.. ألولا ملك.
- طوق الحمامة.
- الفيمينيزم وتاريخ الفن.
- الف ليلة وليلة.. طبعة بولاق.
- الف ليلة وليلة الترجمة الأولى فى العالم لانطوان جالان.
- الترجمة الفرنسية الثانية لشارل ماردروس.
- ليالى ألف ليلة نجيب محفوظ.
- المقاهى زمان لدانييل روندو.
- تاريخ المقاهى لچان كلود بولونى.
- الرحالة فى مصر ١٨٠٠
- الرسائل الفارسية لمونتسيكيو.
- راسبوتين لهنرى تروايا.
- آخر ايام الرومانوف لبيكوف.
- فى زمن الأباطرة لبوتكين.

● الحزن الروسى.. هيلين كارير.
● راسبوتين والنساء.. فولوب ميللر.
● تحقيق فى مذبحة الرومانوف.. جراى مارينا.
● مقابلاتى مع راسبوتين.. دجانوموفا.
● من قتل راسبوتين ١٩٩٥.
● نيكولاس الثانى القيصر الأخير لهنرى تروايا.
● القياصرة والإرهاب- جنرال جيرراسيموف.
● كيف قتلت راسبوتين.. بورستكيفيتشى.
● ابى راسبوتين.. ماريا راسبوتين ١٩٦٦.
● تاريخ الثورة الروسية.. تروتسكى.
● نهاية راسبوتين للأمير فيليكس يوسوبوف ١٩٢٩.
● اعترافات راسبوتين.. بول موروسى ١٩٩٥
● عاهرة الجمهورية لكريستين دوفييه چونكور.
● قضية ماتاهارى.. ليون شيرمان.
● اشهر الجواسيس. هـ.ر بيرندورف.
● لغز حياة وموت ماتا هارى.. جوميز بى ريلو.
● ماتاهارى.. الغانية والجاسوسة.. شارل هيمانز.
● ماتا هارى وايفابيرون- اليكس رودين وهيميرت.
● العالم السرى للجواسيس.. برنارد نيومان.
● ماتاهارى راقصة وجاسوسة.. سان سيرفان.
● أشهر جاسوسات القرن.. كورت سيجز
● ماتاهاري أو الرقصة القاتمة.. سام واجينار.
● فساد الأمكنة صبرى موسى.
● فخامة السلاطين.. سلاطين الشرق الأوسط لفيليب مانسيل.
● قصور الاحزان للأمبراطورة ثريا بختيار اصفنديارى.
● مذكرات فرح ديبا
● طلاق امبراطورة لكريم ثابت
● فى دار محمد على.. حسن حسن.
● الحياة الفخمة للاغاخان ووريثه كريم.
● ليالى الف ليلة لنجيب محفوظ.
● القاهرة الجديدة نجيب محفوظ.
● ليل حريم السلطان ميشيل دى جريس.
● أزهار الشر لشارل بودلير.

الفهـــرس

الصفحة


إنتظروا
مسابقة
كتاب اليوم
الأدبية



نجيب محفوظ والإخوان

بقلم

مصطفى بيومى

يصدر أول سبتمبر

رقم الايداع ١٣٧٢٧ / ٢٠٠٥

I.S.B.N. 977 - 08 - 1234

اخبار اليوم - ٦ أكتوبر

هذا الكتاب

هو كتاب للتأمل وحكايات واقعية تدعونا لاستخلاص دروس الحياة من بين السطور.. يضم الكتاب مجموعة من الاسرار الخفية لقصص حقيقية بطلاتها.. اميرات.. ساحرات.. راقصات.. جاسوسات.. غانيات.. فاتنات.. احترفن التسلق على غرائز الرجال من اجل الوصول للسلطة.. باستثناء رجل واحد استطاع السيطرة على الأمبراطورية الروسية باستخدام نفس سلاح الانثى -الجنسى- ففحولته الخارقة وقدرته الى التنبؤ وفعل المعجزات جعلته صاحب الكلمة الأولى فى الامبراطورية التى كانت.

من «سالومى» الراقصة المعربدة على مذبح الدماء المقدسة إلى «كريستين دوفينيه» عاهرة فرنسا الشهيرة التى مازالت فضيحتها قضية ساخنة امام القضاء الفرنسى -مروراً بـ «كريستين كيلر» الجاسوسة البريطانية الحسناء التى اطاحت حكايتها بحكومة لندن المحترمة ذات يوم- فالقصص والخفايا السرية لزواج الجمال والسلطة بين الاميرة فوزية وشاه ايران ثم حكاية غرامه وزواجه بـ «ثريا اصفنديارى» فآخر بخته «فرح ديبا».

حكايات متعددة وشائقة.. يربطها قاسم مشترك هو تلك العلاقة الغامضة بين النساء والسلطة.. النفوذ والجنس!!

ولعلنا مع كل قصة من قصص هذا الكتاب ندرك ان قوة المرأة الحقيقية لاتنبع إلاّ من داخلها ومن تراكم رصيدها الانسانى فى الحياة.. فكل العروش التى تربعت عليها اعتماداً على مفاتنها الانثوية انهارت ولو بعد حين!

نوال مصطفى



الثمن ...

طبع بمطابع ...